باتريك زوسكيند

العطر

قصة قاتل

رواية

ترجمة : نبيل الحفار

باتريك زوسكيند العطر

باتريك زوسكيند

العطر

لم تعد اللغة المتداولة كافية للتعبير عن كل تلك الاشياء التي جمعها في ذاته كمفاهيم روائحية. فهو لم يعد يشم الخشب فحسب ، بل انواع الخشب : كالاسفندان والبلوط والصنوبر والدردار والدراق ، كما بدأ يميز بانفه بين الخشب العتيق والطازج والهش والمتعفن والطحلب ، بل حتى انواع الحطب وكسراته وفتاته .

كان يشمها بكل وضوح كمواد مختلفة عن بعضها.



ISBN-2-84305-061-X

9 782843 050619

العطر

قصة قاتل

باتريك زوسكيند

العطر

قصة قاتل

ترجمة: د. نبيل الحفار





اسم المؤلف : باتريك زوسكيند
عنوان الكتاب : العطر
قصة قاتل
المترجم : د .نبيل الحفار
الناشر : المدى
الطبعة الثانية : ١٩٩٧
الطبعة الثالثة : ٢٠٠٤
الطبعة الرابعة : ٢٠٠٧

Author :Patrick Süskind
Title :Das Parfum
Die Geschichte Eines Morders
Translator: Dr. Nabil Alhaffar
Al- Mada P.C.
Second Edition :1997
Third Edition : 2004
Fourth Edition : 2007

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

الجزء الأول

تفوح رائحة الكبريت، ومن المدابغ رائحة قلويات الغسيل الواخزة، ومن المسالخ رائحة الدماء المتفسخة. أما البشر فقد كانوا ينضحون برائحة العرق والملابس غير المغسولة؛ من أفواههم كانت تنبعث رائحة الأسنان المتعفنة، ومن بطونهم رائحة البصل؛ وإن كان العمر قد تقدم بهم قليلاً، فقد كان لأجسامهم رائحة الجبنة العتيقة والحليب الحامض والأمراض الورمية. كانت الروائح الكريهة تفوح من الأنهار والساحات، من الكنائس ومن تحت الجسور، ومن القصور. كانت رائحة الفلاح كريهة كرائحة القس، ورائحة الحرفي المتدرب كرائحة زوجة المعلم. كانت طبقة النبلاء كلها تنضح بالرائحة الكريهة، بما فيها الملك نفسه الذي كانت تفوح منه رائحة حيوان مفترس، ومن الملكة رائحة عنزة شمطاء، في الصيف والشتاء. ففي القرن الثامن عشر لم يكن الإنسان قد توصل إلى وضع حد للتفاعل التحللي للبكتيريا، ونتيجة لذلك لم تكن هناك أية فعالية بشرية، لا البناءة فيها ولا المخربة، دون رائحة؛ كما لم يكن هناك أي تفتح على الحياة أو اندثار لها دون أن ترافقه رائحة.

وفي باريس بطبيعة الحال كانت الروائح على أشدها، فباريس كانت أكبر مدن فرنسا، وداخل باريس كان هناك مكان محدد بين "شارع أوفير" و"شارع فيرونيري" أي في "مقبرة الأبرياء"، حيث كانت الروائح الكريهة تهيمن بصورة جهنمية. فعلى مرور ثمانمئة سنة كان موتى "مستشفى نزل الرب" والأديرة المجاورة يدفنون هنا؛ يومياً خلال ثمانمئة سنة كانت الجثث المتفسخة تُجلب بالعشرات لتوارى التراب في قبور طويلة أو في القبور العائلية وفي مأوى بقايا الجثث، عظمة فوق عظمة طيلة ثمانمئة سنة. وفيما بعد فقط، عشية الثورة الفرنسية، عندما

انهدمت بعض القبور الجماعية بصورة خطيرة، وعندما دفعت الروائح المنبعثة من المقبرة المزدحمة سكان الجوار لا إلى الاحتجاج فحسب، وإنما إلى انتفاضات حقيقية، عندئذ فقط أغلقت المقبرة ونقلت ملكيتها العقارية، فجمعت ملايين العظام والجماجم ثم أهيلت في جوف قبور "مونمارتر" الجماعية. وفي مكان المقبرة السابقة أقيمت ساحة السوق..

وهنا، في أكثر أماكن المملكة بأسرها زخماً بالروائح، ولد جان باتيست غرنوي في السابع عشر من تموز / يوليو ١٧٣٨. كان أشد أيام السنة حراً، فقد جثمت الحرارة كالرصاص فوق المقبرة بحيث كانت تضغط بخار التفسخ المتصاعد من مزيج من البطيخ المتعفن والقرون المحترقة باتجاه الأزقة المجاورة. كانت والدة غرنوي عندما جاءها المخاض تقف أمام عربة سمك في "شارع أوفير" وهي تقشر نوعاً من السمك الأبيض الذي سبق أن نظفته. ورائحة هذا السمك الذي يفترض أنه قد جاء من نهر السين صباحاً كانت قد تصاعدت لدرجة أن طغت على روائح الجثث. لكن والدة غرنوي لم تع لا رائحة السمك ولا الجثث، إذ أن أنفها لم يعد قادراً على استقبال أية رائحة، بالإضافة إلى أن جسمها كان يؤلمها، وأن الألم قد أمات عندها أية حساسية تجاه الانطباعات الخارجية للوجود. كل ما كانت تبغيه هو أن يتوقف الألم وأن تتخلص من عملية الولادة بأسرع ما يمكن. كانت هذه ولادتها الخامسة. وكل ولاداتها السابقة كانت قد أنجزتها هنا أمام عربة السمك. وفي الحالات جميعها كان المواليد إما أمواتاً أو نصف أموات. فاللحم المدمى الذي كان يخرج من رحمها لم يكن ليختلف كثيراً عن أحشاء السمك المكومة أمامها، ولم يحتفظ بمظاهر الحياة أطول منها. ومساءً كانت تنقل الكتلة كلها بكل ما فيها

١

في القرن الثامن عشر عاش في فرنسا رجل ينتمي إلى أكثر كائنات تلك الحقبة نبوغاً وشناعة. وهي حقبة لم تكن لتفتقر إلى أمثال هذه الكائنات. وقصة هذا الرجل هي ما سنرويه هنا. كان اسمه جان - باتيست غرنوي Jean- Baptiste Grenuille. وإذا كان اسمه اليوم قد طواه النسيان، على نقيض أسماء نوابغ أوغاد آخرين، مثل دوساد، سان جوست، فوشيه أو بونابرت وغيرهم، فذلك بالتأكيد ليس نتيجة أن غرنوي، بمقارنته مع هؤلاء الرجال المريبين الأكثر شهرة، يقل عنهم تعالياً واحتقاراً للبشر ولا أخلاقية، باختصار، كفراً؛ وإنما لأن عبقريته وطموحه قد انحصرا في ميدان لا يخلف وراءه أثراً في التاريخ، أي في ملكوت الروائح الزائل.

في العصر الذي نتحدث عنه هيمنت على المدن رائحة نتنة لا يمكن لإنسان من عصرنا الحديث أن يتصور مدى كراهتها. فالشوارع كانت تنضح برائحة الغائط، وباحات المنازل الخلفية برائحة البول، وأدراج البنايات برائحة الخشب المتفسخ وروث الجرذان، والمطابخ برائحة الملفوف المتعفن وشحم الخراف؛ أما الغرف غير المهوّاة فقد كانت تنضح برائحة الغبار الرطب، وغرف النوم برائحة الشراشف المدهنة واللحف الرطبة المحشوة بالريش، وبالرائحة النفاذة المنبعثة من المباول. من المدافئ كانت

لتجرف إلى المقبرة أو إلى النهر. وهكذا كان يجب أن يتم الأمر اليوم، فوالدة غرنوي التي مازالت صبية في منتصف العشرينات من عمرها، والتي مازال جمالها بادياً، وجل أسنانها في فمها، مع بعض الشعر على رأسها، والتي لا تعاني من أية أمراض جدية عدا النقرس والسفلس ومن سل خفيف، والتي مازالت تأمل أن تعيش طويلاً، ربما لخمس أو عشر سنوات، وأن تتزوج مرة وتنجب أطفالاً حقيقيين كامرأة محترمة لحرفي مترمل، وما شابه ذلك.. والدة غرنوي كانت تتمنى أن تتخلص من كل ما كانت تعاني منه الآن. وعندما جاءتها تقلصات المخاض قبعت تحت طاولة تنظيف السمك ووضعت مولودها هناك، كما فعلت في المرات الأربع السابقة، مستخدمة سكين السمك في قطع حبل السرة. لكن ما حدث بعدئذ بسبب الحر والرائحة، التي لم تعها كرائحة، وإنما فقط كشيء لا يحتمل، كشيء مخدر - كما في حقل مليء بالزنبق، أو كما في غرفة ضيقة تعج بأزهار النرجس - هو أنها فقدت وعيها، فمالت على جنبها وسقطت متخطية حدود الطاولة على أرض الشارع، وبقيت مستلقية هناك والسكين في يدها.

صراخ وتراكض، وفي وسط الجمع المحدق بذهول مع الشرطة التي تم استدعاؤها، مازالت المرأة مستلقية في عرض الشارع والسكين في يدها وهي تستعيد وعيها ببطء. وعندما سئلت عما جرى لها، أجابت:

- "لاشيء".
- "وماذا تفعلين بالسكين؟".
- "لاشيء".
- "والدم على ثيابك، من أين؟".

- "من السمك".

ثم نهضت، رمت السكين وذهبت لتغتسل.

وعلى نقيض ما كان متوقعاً بدأ الجنين القابع تحت طاولة التنظيف بالصراخ. فبحث الجمع عن المصدر، واكتشف المولود الجديد تحت سرب من الذباب وبين أحشاء ورؤوس الأسماك المقطوعة، فسحبه. وبناء على القوانين السارية، تم تحويل المولود إلى مرضعة، في حين اعتقلت الأم. وبما أنها قد اعترفت دون أدنى اعتراض بأنها كانت ستترك المولود لمصيره كما فعلت في الحالات الأربع السابقة، فقد تم تحويلها للقضاء، ثم حكم عليها بسبب تكرار جرائم القتل بحق أطفالها بالإعدام تحت المقصلة، ونفذ الحكم بعد أسابيع قليلة في "ساحة دو غريف".

في ذلك الحين كان الطفل قد بدل المرضعة للمرة الثالثة، إذ لم ترغب أية منهن بالاحتفاظ به أكثر من بضعة أيام. قلن إنه كان شديد الجشع، يرضع عن اثنين، فيمنع عن باقي الرضع حصصهم في الرضاعة، وعن المرضعات دخلهن، خاصة وأن إرضاع طفل واحد يستحيل أن يؤمن الدخل المرجو. وسرعان ما تعاطف الضابط المسؤول لافوس مع هذا الوضع فأراد نقل الطفل إلى مركز تجميع اللقطاء والأيتام الواقع في نهاية "شارع سان انطوان"، من حيث تتحرك يومياً قافلة نقل الأطفال إلى مدينة "روان"، إلى المركز الحكومي الرئيسي للقطاء هناك. ولكن بما أن عمليات النقل هذه ينفذها حمالون بسلال على ظهورهم، فيضعون في السلة الواحدة ولأسباب ترشيدية، أربعة رضع معاً، ولما كانت نسبة الوفيات على الطريق جد مرتفعة، وبما أن الحمالين قد منعوا من نقل الرضع غير المعمدين، بل فقط المزودين بأوراق النقل النظامية التي يجب

أن تحصل على خاتم تصديق من "روان"، ولما كان الطفل غرنوي غير معمد، لم يحصل على أي اسم بعد، بحيث يمكن تدوينه في أوراق النقل النظامية، وبما أنه لم يكن مقبولاً من طرف الشرطة أن يوضع طفل مجهول الهوية على بوابة مركز تجميع اللقطاء، مما كان سيغني عن كافة الإجراءات الشكلية.. تجنباً إذن لأية إشكاليات بيروقراطية قد تنشأ عن تصريف الرضيع بصورة غير قانونية، ونتيجة ضغط الوقت أيضاً، غيّر ضابط الشرطة لافوس قراره وأوعز بتسليم الطفل إلى أية مؤسسة كنسية مقابل إيصال؛ كي يصار هناك إلى تعميده وإلى تقرير مصيره المستقبلي. وقد تم التخلص من مشكلته في "دير سان ميري" في "شارع سان مارتان" حيث تم تعميده باسم جان باتيست. ولما كان رئيس الدير طيب المزاج في ذلك اليوم، وصندوق أمواله الخيرية لم ينفد بعد، لم يتم تصدير الطفل إلى "روان"، بل بقي في رعاية الدير. ولهذه الغاية نقل الطفل إلى رعاية المرضعة جان بوسي القاطنة في "شارع سان دينيز" والتي كانت تتلقى مقابل خدماتها ثلاثة فرنكات أسبوعياً.

٢

بعد أسابيع قليلة وقفت المرضعة جان بوسي، وبيدها سلة، على باب "دير سان ميري"، وعندما فتح الباب وظهر لها الأب تيرير الأصلع ذو الخامسة والخمسين عاماً والذي تفوح من جسمه رائحة الخل، قالت له: "خذ!" ووضعت السلة على العتبة. "ما هذا؟" قال تيرير وهو ينحني فوق السلة متشمماً متوقعاً شيئاً يؤكل.

"ابن الحرام، ابن قاتلة الأطفال من شارع أوفير!".

نبش الأب بإصبعه في السلة حتى كشف عن وجه الرضيع النائم.

"يبدو في صحة جيدة، متورد الخدين وحسن التغذية".

"ما تراه عليه من صحة هو على حساب صحتي أنا، فقد أفرغ ما في ثديي من حليب حتى العظم. لكن هذا انتهى الآن. الآن بإمكانك أن تتابع تغذيته بنفسك، بحليب الماعز، بالبطاطا المهروسة وبعصير الجزر. إنه يلتهم كل شيء، ابن الحرام هذا".

الأب تيرير كان رجلاً طويل البال، وكان مسؤولاً عن أموال الدير الخيرية، أي عن توزيع المال على الفقراء والمحتاجين، وكان يتوقع أن يشكره الآخرون على ذلك دون أن يثقلوا عليه. كان يكره الدخول في التفاصيل، لأن التفاصيل تولد المشاكل دائماً، والمشاكل تعني إزعاج طمأنينته، الأمر الذي لم يكن ليحتمله أبداً. لقد انزعج لمجرد أنه قد فتح الباب. فتمنى لو أخذت هذه المرأة سلتها وذهبت إلى بيتها وتركته براحة من مشاكل رضيعها. اعتدل في وقفته ببطء، وبشهيق واحد كان قد استوعب رائحة الحليب وصوف الخراف ذات النكهة الجبنية المنبعثة من المرضعة. كانت الرائحة طيبة.

"لا أفهم ما تريدين. إني فعلاً لا أفهم مرادك. ما يمكنني فقط أن أتصوره هو أن بقاء هذا الرضيع فترة أطول على صدرك، لن يؤذيه أبداً".

"فعلاً لن يؤذيه" أجابت المرضعة باستهجان وتابعت: "لكنه سيؤذيني أنا. لقد نحلت خمسة كيلوات، بينما كنت آكل عن ثلاثة. من أجل ماذا؟ من أجل ثلاثة فرنكات أسبوعياً!".

"ها، فهمت". قال تيرير وقد شعر ببعض الارتياح "أنا في الصورة: الأمر يتعلق بالمال ثانية إذن".

"لا!" قالت المرضعة.

"بل نعم! فالأمر دائماً يتعلق بالمال. عندما يقرع هذا الباب، فلابد أن الأمر يتعلق بالمال. تمنيت لو أفتح هذا الباب مرة لأجد إنساناً يطلب شيئاً آخر، إنساناً يجلب مثلاً، شيئاً بسيطاً، عرفاناً بالجميل، بعض الفاكهة مثلاً، أو بعض المكسرات. ففي الربيع هناك الكثير مما يمكن للإنسان أن يجلبه. بعض الأزهار مثلاً، أو حتى أن يأتي أحدهم ليقول: حياك الله أيها الأب تيرير، أتمنى لك يوماً سعيداً! ولكن يبدو أني لن أعيش مثل هذه التجربة. فإن لم يكن قارع الباب شحاذاً، فسيكون تاجراً، وإن لم يكن تاجراً، فسيكون أحد الحرفيين، وإن لم يطلب بعض النقود فسيقدم لي فاتورة حساب. ما عدت أستطيع الظهور في الطريق. فلو ظهرت، لأحاط بي بعد ثلاث خطوات أناس يطلبون المال".

"أنا لست منهم" قالت المرضعة.

"أما أنا فسأقول لك شيئاً واحداً: لست المرضعة الوحيدة في منطقة هذه الأبرشية. هناك مئات المربيات القديرات اللواتي سيتهافتن على إرضاع هذا الرضيع الرائع أو إطعامه البطاطا المهروسة والعصير وغيرها من المواد الغذائية مقابل ثلاث فرنكات أسبوعياً..".

"أعطه لإحداهن إذن!".

"ومن جهة أخرى لا يستحسن نقل الطفل هكذا، من مرضعة إلى أخرى. من يدري، إذا كان سينمو بحليب مرضعة أخرى كما بحليبك. وليكن بعلمك أنه قد تعود على رائحة صدرك وعلى نبض قلبك".

ثم عاود، وبعمق، استنشاق العبق الدافئ، المنبعث من المرضعة. وعندما لم يلحظ أي تأثير لكلماته عليها، قال:

"خذي الطفل الآن إلى بيتك! سأتداول في الموضوع مع رئيس الدير. سأقترح عليه أن يعطيك أربعة فرنكات أسبوعياً".

"لا". قالت المرضعة.

"حسناً: خمسة".

"لا".

"كم تريدين إذن؟" صرخ تيرير في وجهها وتابع: "خمسة فرنكات تعتبر ثروة بالنظر لمهمة بسيطة كإرضاع طفل!".

"لا أريد أية نقود. أريد أن يخرج ابن الحرام هذا من بيتي". قالت المرضعة.

"ولكن لماذا يا عزيزتي؟" قال تيرير وهو ينبش في السلة مجدداً، "يبدو أنه طفل طيب جداً. صحته جيدة، لا يبكي، ينام جيداً، ثم إنه معمد".

"إنه مسكون بالشيطان".

بسرعة سحب تيرير إصبعه من السلة. ثم قال:

"مستحيل! يستحيل مطلقاً أن يكون رضيع مسكوناً بالشيطان. فالرضيع ليس إنساناً، وإنما هو في مرحلة ما قبل الإنسان، ولذلك فهو لا يمتلك روحاً متكاملة. وبناء على ذلك فهو غير ملفت للنظر بالنسبة للشيطان. هل تكلم مثلاً؟ هل صدر عنه شعاع نور؟ هل حرك أشياء ما في الغرفة؟ هل تفوح منه رائحة كريهة؟".

"بل ليست له أية رائحة على الإطلاق". قالت المرضعة.

"أترين! هذه علامة بيّنة. فلو كان مسكوناً بالشيطان، لصدرت عنه رائحة كريهة".

ولكي يهدئ من روع المرضعة، ولكي يبرهن على شجاعته، رفع

تيرير السلة وقرّبها من أنفه. تشمم السلة ومحتواها لفترة ثم قال: "لا أشم شيئاً غريباً. فعلاً ليس هناك ما هو غريب. ولكن يبدو لي على أية حال وكأن في قماطه شيئاً ما، له رائحة". وقرب السلة منها كي يؤكد انطباعه.

"ليس هذا ما أقصده". قالت المرضعة بجفاء وهي تبعد السلة عنها. "ما قصدته ليس هذا الذي في قماطه، ففضلاته لها رائحة. أما هو، ابن الحرام نفسه، ليست له أية رائحة".

"لأنه صحيح الجسم" صاح تيرير، وتابع "بما أنه صحيح الجسم، فمن الطبيعي ألا تكون له رائحة. الرائحة تصدر عن الأطفال المرضى فقط، وهذا أمر معروف. والمعروف أن الطفل المصاب بالجدري تفوح منه رائحة روث الخيل، والمصاب بالحمى القرمزية له رائحة التفاح العتيق، وللطفل المصاب بالسل رائحة البصل. هذا الطفل صحيح الجسم، هذا كل ما هنالك، إن كان هذا عيباً، فكيف يمكن أن تكون له رائحة؟ هل لأطفالك أنت رائحة؟".

"لا". قالت المرضعة. "فرائحة أطفالي تشبه رائحة أطفال الناس".

أعاد تيرير السلة إلى مكانها على الأرض، فقد شعر ببداية ثورة الغضب تجتاحه تجاه عناد هذا المخلوق الماثل أمامه. ولم يكن مستبعداً في سياق الجدل الناشب بينهما، أن يضطر لاستخدام يديه، وبحيرة. لكنه لم يرد أن يؤدي هذا إلى إصابة الرضيع بأي أذى. فكان أول ما فعله هو أن عقد يديه وراء ظهره، ثم صوب كرشه المدبب باتجاه المرضعة وسألها بحدة: "أتزعمين أنك تعرفين ما هي رائحة أطفال الناس؟ هل تعرفين إذن أن كل طفل معمد هو ابن الله؟".

"أعرف". أجابت المرضعة.

"لكنك تتمادين في زعمك وتؤكدين أن الطفل الذي لا تفوح منه الرائحة التي تقصدينها أنت أيتها المرضعة، جان بوسي من "شارع سان دينيز"، هو ابن الشيطان؟" حرك يسراه بسرعة من خلف ظهره. ونصب السبابة المعقوفة كإشارة استفهام في وجهها مهدداً، فأخذت المرضعة تفكر. إذ لم يكن في صالحها أن يتحول الحديث فجأة إلى استجواب لاهوتي ستكون هي الخاسرة فيه حتماً.

"أنا لم أقل هذا"، أجابت متهربة وتابعت "ففيما إذا كانت المسألة تتعلق بالشيطان أم لا، القرار في ذلك يعود إليكم أنتم أيها الأب تيرير، فأنا لست مختصة في هذه الأمور. لكنني متأكدة من شيء واحد، هو أن هذا الرضيع يجعل شعر رأسي يقف، لأنه لا تصدر عنه تلك الرائحة التي يجب أن تصدر عن الأطفال".

"هكذا"، قال تيرير مطمئناً وأرجع يسراه إلى مكانها السابق. "مسألة الشيطان سنتراجع عنها إذن. حسناً. ولكن أخبريني من فضلك: كيف تكون رائحة الرضيع، إن كان يجب أن تكون له رائحة، حسبما تعتقدين؟ ها؟".

"طيبة". قالت المرضعة.

"ماذا تعنين بـ (طيبة) هذه؟" صرخ تيرير. "هناك أشياء كثيرة رائحتها طيبة. باقة الخزامى رائحتها طيبة. حساء اللحم رائحته طيبة، حدائق العرب رائحتها طيبة. أريد أن أعرف كيف تكون رائحة الرضيع؟".

ترددت المرضعة. فقد كانت تعرف رائحة الرضع، بل كانت متأكدة

من ذلك، فقد سبق أن ربّت وغذت وهزت وقبلت العشرات منهم، حتى أنها تستطيع أن تصل إليهم ليلاً بأنفها. رائحة الرضيع تسكن أنفها الآن، وبكل وضوح، لكنها حتى الآن لم تستخدم الكلمات لوصفها.

"والآن؟" عوى تيرير وهو ينقر على أظافر يده بفارغ الصبر.

"لنقل.." بدأت المرضعة كلامها، وتابعت: "لا أدري كيف عليّ أن أشرح الأمر، لأن.. لأن رائحتهم تختلف من موضوع إلى آخر، رغم أن رائحتهم طيبة في كل المواضع، أتفهم ما أقصده يا أبي! فرائحة أقدامهم مثلاً تشبه حجراً أملس دافئاً.. لا، بل هي أقرب لرائحة اللبن المصفى.. أو الزبدة، كالزبدة النقية تماماً: رائحتهم كرائحة الزبدة الطازجة. وأجسامهم تفوح برائحة مثل.. مثل المعجنات المنقوعة بالحليب. أما رائحة الرأس، في الأعلى، إلى الخلف قليلاً، حيث ينتصب الشعر واقفاً، هنا يا أبي، أترى، هنا، حيث لم يعد لديك منه أي شيء.." وربتت على صلعة تيرير الذي ذهل للحظة أمام فيض تفاصيل هذه الحماقة، فأحنى لها رأسه. "هنا، هنا تماماً تكون رائحتهم أجمل ما يكون، مثل الكراميل الحلو الرائع، أتتصور معي مدى روعته يا أبي! عندما يشمهم الإنسان هنا، يحبهم، سواء أكانوا أطفاله أو أطفال الآخرين. وإن لم تكن لهم مثل هذه الرائحة، وخاصة هنا، عندما تكون رائحتهم أضعف من رائحة الهواء البارد، كرائحة ابن الحرام هذا، عندها.. بإمكانك تفسير الأمر كما تحب يا أبي، أما أنا" وعقدت ذراعيها بحزم تحت ثدييها ملقية باتجاه السلة المركونة عند قدميها نظرة ملؤها القرف وكأنها مليئة بالضفادع، وقالت: "أنا، جان بوسي لن أقبل هذا في بيتي بعد الآن!".

رفع الأب تيرير رأسه ببطء وهو يتحسس صلعته بإصبعه عدة

مرات، كمن يود تسريح شعره، ثم قربه من أنفه، كمحض مصادفة، وأخذ يتشممه مفكراً "مثل الكراميل..؟" سأل وهو يحاول استعادة لهجته الحازمة.. "كراميل! وماذا تعرفين أنت عن الكراميل؟ هل سبق أن أكلت شيئاً منه؟".

"ليس بشكل مباشر". قالت المرضعة، "لكني كنت مرة في فندق فخم في "شارع سان أونوريه" وشاهدت كيف يصنعونه من السكر المذاب والقشطة. كانت رائحته جميلة إلى درجة أني لن أنساها".

"معقول، معقول" قال تيرير مبعداً إصبعه عن أنفه. "أرجوك أن تصمتي الآن! فطاقتي ما عادت تحتمل أن أتابع النقاش معك على هذا المستوى. لكنني توصلت إلى أنك ترفضين، مهما كانت الأسباب، متابعة تغذية الرضيع جان باتيست غرنوي الموكلة إليك تربيته، وإلى أنك تعيدينه الآن إلى الوصي عنه مؤقتاً، أي إلى "دير سان ميري". أجد الأمر مدعاة للأسف، ولكن ليس بوسعي تغييره. اذهبي، فأنت حرة".

ومع كلماته هذه كان قد رفع السلة بيده، واستنشق مرة أخرى بخار الحليب الصوفي الدافئ العابق في الهواء. أغلق الباب وراءه وتوجه إلى مكتبه.

٣

كان الأب تيرير رجلاً مثقفاً، فهو لم يدرس اللاهوت فحسب، بل اطلع على الفلسفة، واهتم إلى جانب ذلك بعلم النبات والكيمياء، وكان يعوّل إلى حد ما على ملكات فكره النقدية، دون أن تصل به هذه إلى تبني مواقف بعض من شككوا بالمعجزات والنبوءات، أو بحقيقة نصوص الكتاب المقدس، علماً بأنه من الصعب تفسيرها عقلانياً وبأنها تتعارض

مع تفسير من هذا القبيل. كان الأب تيرير يفضل الابتعاد عن مثل هذه الأمور التي ستزعجه والتي ستورطه حتماً في مواقف غير مأمونة العواقب، في حين أن من يبغي الراحة لعقله، يحتاج إلى الأمن والهدوء.

لكن ما كان يحاربه بحزم لا هوادة فيه، هو المعتقدات الغيبية المنتشرة بين العامة، كالسحر وقراءة الورق واستخدام الرقيات والعين الحسود وتحضير الأرواح وشعوذات ليلة اكتمال القمر، وغيرها مما يمارسه العوام.

وما كان مدعاة لحزنه العميق هو أن يرى هذه العادات الوثنية مستمرة بعد مرور ألف عام على ترسيخ الديانة المسيحية، وانها غير قابلة للاستئصال. كما أن معظم حالات كون إنسان ما مسكوناً بالشيطان أو اتصال به قد أثبتت بعد التمحيص الدقيق أنها مجرد خزعبلات لا أكثر. لاشك في أن تيرير لن يجرؤ على اتخاذ أية خطوة باتجاه نفي وجود الشيطان نفسه أو التشكيك بسلطته. فالحسم في مثل هذه القضايا التي تمس ركائز اللاهوت يعود إلى مراجع أكبر من كاهن بسيط. ومن جهة أخرى كان جلياً، كما في حال المرضعة الساذجة التي ادعت اكتشاف أثر للشيطان، أنه لا يمكن أن يكون للشيطان، لا الآن ولا مستقبلاً أي دور في هذه المسألة. فمجرد اعتقادها باكتشافه، يعتبر دليلاً قاطعاً على عدم وجود ما هو شيطاني في المسألة، مما يستدعي اكتشافه. فالشيطان ليس ساذجاً لدرجة أن يفضح وجوده على يد المرضعة جان بوسي، وكيف إذا كان ذلك عن طريق الأنف، عن طريق جهاز الشم البدائي الذي ينتمي إلى أحط الحواس! لكأن الجحيم يعبق برائحة الكبريت، والجنة برائحة البخور والمرّ! يا لها من خرافة ظلامية

تعود بمعتنقها إلى عصر ما قبل التاريخ الوثنية، حين كان الإنسان يعيش كالحيوان، أي قبل أن يمتلك عينين ثاقبتين، وقبل أن يعرف اللون، أي حين كان يظن في نفسه القدرة على تشمم الدم، بحيث يفرق ما بين العدو والصديق، حين كان البشر يخشون من المنطلق نفسه ان يتعقبهم عمالقة أكلة لحوم البشر والذئاب الضارية وربات الانتقام، فيتقربون إلى آلهتهم الشنيعة بقرابين مشوية، دخانها يعمي العيون، ورائحتها تزكم الأنوف. إنه لأمر مريع، يكاد البهلول أن يراه بأنفه قبل عينيه! ولربما كان من الضروري أن يضيء نور العقل الذي وهبنا الرب إياه ألف سنة أخرى حتى تندثر بقايا هذه المعتقدات الهمجية.

"آه، وماذا عن هذا الطفل المسكين! هذا الكائن البريء! المضطجع في سلته نائماً وهو لا يدري أي شيء عن الشكوك المقرفة الموجهة ضده. إن ما يُشتم من كلام هذه المرضعة الوقحة هو أني غير قادر على تبيّن رائحة الأطفال، وكيف يجب أن تكون. حسناً، بماذا نجيبها؟". قال ذلك وهو يهدهد الطفل على ركبتيه، تارة بصوته وتارة على رأسه بإصبعه وهو يردد بين الفينة والأخرى "دادا دادا" معتقداً أن ترديده لهذه العبارة سيبعث في نفس الطفل الطمأنينة والحنان. وتابع مخاطباً نفسه "كالكراميل يجب أن تكون رائحتك! ما هذا الهراء! دادا دادا!".

بعد برهة قصيرة سحب تيرير إصبعه، وضعها قرب أنفه، تشممها، لكنه لم يشم سوى رائحة الملفوف المخلل الذي تناوله ظهراً.

تردد لحظة، تلفت حوله ليطمئن أن أحداً لا يراه، رفع السلة إلى مستوى رأسه وقرب أنفه منها إلى أن أحس بشعر الطفل الخفيف الأحمر يدغدغ منخريه، تشمم رأس الرضيع متوقعاً رائحة ما.. لكنه لم يكن

يعرف ماهية الرائحة التي تفوح من رأس الطفل، أي طفل. إلا أنه كان متأكداً من أنها لن تكون رائحة الكراميل، خاصة وأن جوهر الكراميل هو القطر. فكيف يمكن لرضيع لم يتغذ إلا بالحليب حتى الآن أن تكون له رائحة القطر؟ يمكن أن تفوح منه رائحة الحليب، حليب المرضعات، إلا أن رائحته لم تكن كرائحة الحليب. يمكن أن تفوح منه رائحة الشعر، ولربما رائحة شيء ما من عرق الأطفال. تشمم تيرير الطفل مصمماً على شم رائحة الشعر والجلد وشيء من عرق الطفل. لكنه لم يشم شيئاً. لا شيء على الإطلاق. فكر بأنه قد لا تكون للرضيع أية رائحة، وبأن الأمر لابد أن يكون كذلك. فالطفل المعتنى بنظافته لا يصدر أية رائحة، تماماً كما أنه لا يحكي ولا يمشي ولا يكتب، فهذه الأمور تأتي مع تدرجه في السن، وإذا ابتغينا التحديد، فإن الإنسان قبل دخوله سن المراهقة لا تصدر عنه أية رائحة. هكذا هو الأمر، ولا يمكن أن يكون بشكل آخر. ألم يكتب هوراس: "أن اليافع ينضح برائحة الثيران، ومن العذراء تفوح رائحة النرجس الأبيض.."؟ والرومان كانوا يدركون هذه الأمور. فرائحة الإنسان هي دائماً رائحة جسدية – فهي إذن رائحة آثمة. ثم من أين ستأتي الرائحة لرضيع لا يعرف الخطيئة الجسدية ولا حتى في الحلم؟ وكيف ستكون رائحته؟ أليس كذلك يا دادا؟ من الطبيعي ألا تكون لك أية رائحة.

أعاد السلة إلى وضعها السابق على ركبتيه وهو يهدهد الرضيع برقة، رغم انه كان مستغرقاً في نومه. ظهرت قبضة الرضيع من تحت الغطاء، صغيرة ووردية اللون وأخذت بين الفينة والأخرى ترتجف ملامسة الخد بحنان. ابتسم تيرير وهو يشعر بالراحة تغمره فجأة. وللحظة سمح

لنفسه أن يتخيل أنه والد الطفل. لو صح ذلك لما أصبح راهباً، بل مجرد مواطن عادي، أو حرفي صالح بزوجة دافئة تواقة، تفوح منها رائحة الحليب، ولأنجب منها طفلاً وهدهده برقة، هنا على ركبتيه، وارتاح لهذه الفكرة الخيالية. فهي في حد ذاتها فكرة محترمة جداً: أب يهدهد طفله على ركبتيه، إنها لصورة قديمة قدم العالم، وصحيحة متجددة في الوقت نفسه طالما بقي العالم على ما هو عليه. عندها شعر تيرير بالدفء يملأ قلبه وبالعاطفة تجتاحه.

عندئذ استيقظ الطفل. وأول ما استيقظ منه كان أنفه الضئيل الذي اشرأب متشمماً ما حوله. استنشق الهواء وزفره بدفعات قصيرة وكأنه يعطس، ثم عرك أنفه وفتح عينيه. كان لون عينيه غير محدد، يتراوح ما بين لون صدف مياه البحر الدافئة ولون الرخام الحليبي، ويغلفهما غشاء مخاطي يحجب عنهما وضوح الرؤية. وشعر تيرير أن هاتين العينين لم تعيا وجوده، على عكس الأنف. ففي حين كانت العينان باهتتان تحوّمان دون هدف، كان الأنف قد حدد اتجاهه، وانتاب تيرير شعور خاص انه كشخص في ذاته، تيرير نفسه، هو المستهدف. كان جناحا أنفه الضئيلين المحيطين بفتحتي أنفه الضئيلتين في وسط وجهه تتحركان كنبتة مزدهرة، أو كتويج تلك الزهور التي تفترس اللحم والتي نراها في حديقة الملك الخاصة بالنباتات الغريبة، وكانت تصدر منهما قوة هائلة كتلك التي نراها عند هذه الأزهار. وشعر تيرير وكأن الطفل يراه بفتحتي أنفه محدقاً متفحصاً بأكثر مما يستطيع الإنسان أن يفعل ذلك بعينيه، وكأنه يمتص بشراهة شيئاً ما ينبعث من تيرير، دون أن يكون بمقدور هذا إخفاءه أو حجبه. إن الطفل الذي لا رائحة له، كان يشمه هو،

وبوقاحة، هكذا كان الأمر. ارتجف تيرير وأحس بنوع من الصقيع يجتاحه، وشعر فجأة برائحة كريهة ما تصدر عنه، رائحة التعرق والخل، رائحة الملفوف والأردية غير المغسولة. شعر بنفسه عارياً وبشعاً، وكأنه مراقب من شخص ما لا يشي بشيء من نفسه. شعر بالرائحة تخترق جلده إلى أعمق أعماقه، حتى أن أرق المشاعر وأقذر الأفكار قد تعرت أمام هذا الأنف الصغير الجشع، الذي لم يصبح بعد أنفاً بحق، بل مجرد أرنبة ترتجف وتتجعد وتنفرج باستمرار. ارتعد تيرير وقرف من نفسه، فكشر بأنفه وكأنه أمام مصدر رائحة بشعة لا يريد أن تكون له أية علاقة به، متجاوزاً فكرة أن الأمر يتعلق بلحمه ودمه. وقد تبخرت فكرة الحياة الشاعرية حول علاقة الأب لابن وضاعت معها رائحة الأم الطيبة. وشعر بنفسه كمن انتُزع من غلالة الأفكار المريحة التي أحاط نفسه والطفل بها في خياله. فالموجود على ركبتيه الآن هو كائن غريب بارد، حيوان عدواني. ولو لم يتمتع الأب تيرير بشخصية مليئة بخشية الله وبنظرة عقلانية للأمور لقذف هذا الكائن عن ركبتيه بحركة قرف مفاجئة، كمن يبعد عن نفسه عنكبوتاً.

نهض تيرير بحركة سريعة ووضع السلة على الطاولة. أراد أن يتخلص من هذا الشيء بأسرع ما يمكن، بل الآن، في هذه اللحظة.

عندئذ بدأ الطفل بالبكاء، زرّ عينيه، فتح حلقومه الأحمر على أوسع مداه، وأطلق عقيرته بصراخ مقرف جعل الدم يتجمد في عروق تيرير الذي مد زراعه وهز السلة صارخاً: "دادا دادا" محاولاً إسكات الطفل. لكن صراخ الطفل ارتفع وازرق وجهه وبدا وكأنه سيتفجر من شدة الصراخ.

لابد من التخلص منه! فكر تيرير، لابد من التخلص الآن من هذا... وكاد أن يقول "الشيطان"، لكنه ضغط على نفسه ولم يفعل، بل قال في نفسه: علي أن أبعد عني هذا الشقي الذي لا يحتمل! ولكن كيف وإلى أين؟ كان يعرف عشرات المرضعات وبيوت الأيتام في المنطقة، إلا أنها كلها كانت قريبة جداً، تكاد أن تلتصق بجلده، وهذا الطفل لابد أن يبتعد بحيث لا يسمع صوته، ولا أن يكون بمرأى العين، بل بحيث لا يمكن أن يوضع عند هذا الباب في أية لحظة؛ إذن لابد من البحث عن دير آخر، ويفضل أن يكون على الضفة الأخرى؛ والحل الأمثل هو حي "سان أنطوان"، هناك خارج السور، وراء الباستيل، باتجاه أقصى الشرق، حيث تنغلق البوابات ليلاً.

رفع قفطانه بيد، وأمسك سلة الصراخ باليد الأخرى وركض، ركض عبر زحمة الحواري إلى حي "سان انطوان"، متخطياً نهر السين، باتجاه الشرق، نحو خارج المدينة، مبتعداً باتجاه شارع "شارون" مخترقاً إياه حتى نهايته، مقترباً من "دير مادلين دو ترونيل" إلى عنوان مدام غايار التي يعرف انها تقبل الأطفال من أي سن ومن أي نوع، طالما أن هناك من يدفع التكاليف. وهناك سلّم تيرير الطفل ودفع أجرة عام كامل سلفاً، وهرب عائداً أدراجه إلى المدينة. وعندما وصل إلى الدير نفض عنه ثيابه كشيء قذر يود التخلص منه، اغتسل من رأسه حتى قدميه ثم لجأ إلى غرفته واندس في سريره مصلياً عدة مرات لفترة طويلة، إلى أن شعر أخيراً بالراحة ونام.

٤

كانت مدام غايار قد قطعت صلتها بالحياة رغم انها لم تتجاوز الثلاثين من عمرها بعد. وكان مظهرها الخارجي يدل على سنها الحقيقي، وفي الوقت نفسه على ضعفه وثلاثة أمثاله بل مئات أمثاله، أي على مومياء فتاة؛ أما داخلياً فقد كانت ميتة منذ أمد بعيد. عندما كانت طفلة تلقت من أبيها ضربة بقضيب المدفأة فوق جذر أنفها بقليل أدت إلى فقدانها حاسة الشم وأي شعور بالدفء أو البرود الإنساني، بل أية عاطفة مهما كانت، مع هذه الضربة الوحيدة أصبح الحنان بالنسبة لها غريباً كالبغض، والفرح كاليأس. وفيما بعد، عندما ضاجعت رجلاً، لم تشعر بأي شيء، وكذلك أيضاً عندما أنجبت أطفالها، فلم تحزن على من مات منهم، ولم تفرح لبقاء من بقي لها منهم. عندما كان زوجها يضربها لم تهتز شعرة في جسمها، وعندما مات بالكوليرا في "مستشفى نزل الرب" لم تشعر بأي ارتياح. والشعوران الوحيدان اللذان عرفتهما كانا شعورها باعتكار المزاج مع اقتراب موعد الشقيقة الشهري، وشعوراً خفيفاً بالانفراج مع زوال الآلام. عدا ذلك لم تشعر هذه المرأة الميتة بأي شيء.

من ناحية أخرى.. ولربما لفقدها التام لأي عاطفة، فقد كانت غايار تمتلك حساً بالنظام والعدل لا يعرف الشفقة. فهي لم تفضل أياً من الأطفال الذين في رعايتها على آخر، ولم تهمل أياً منهم لصالح الآخر. كانت تقدم لهم ثلاث وجبات يومياً دون أن تضيف فيما بينها ولا حتى كسرة خبز. كانت تُحفّض الصغار ثلاث مرات يومياً، وفقط حتى انقضاء العام الثاني من عمر الطفل. أما من استمر منهم بعد ذلك في تلويث

ثيابه فقد كان يتلقى منها صفعات توبيخ ووجبتين لا أكثر. كانت تنفق نصف الدخل تماماً على أطفال ملجئها، والنصف الآخر بكامله تحتفظ به لنفسها. ثم تحاول في زمن الرخص أن تزيد من ربحها، كما انها لم تضف قرشاً واحداً إلى المصاريف في زمن الغلاء، حتى ولو تعلق الأمر بمسألة حياة أو موت. ولولا ذلك لكان العمل كله غير مجزٍ بالنسبة لها، فهي بحاجة للمال، وقد حسبت الأمر بمنتهى الدقة. فلسنوات شيخوختها كانت تريد أن تشتري ما يعادل راتب تقاعد ثابت، وبالإضافة إلى ذلك كانت تريد أن تضمن من المال ما يؤمن لها أن تموت في بيتها، لا أن تفطس في "مستشفى نزل الرب" كزوجها. إن موته في حد ذاته لم يخلف عندها أية مشاعر. لكنها ارتعبت من هذا الموت العلني الجماعي مع مئات من الغرباء. أرادت أن تضمن لنفسها موتاً خاصاً، ولهذا كانت بحاجة لهامش الربح المتبقي من الإنفاق على الأطفال. ورغم أن قسوة شتاء ما كانت تؤدي إلى خسارتها دخل ثلاثة أو أربعة أطفال، إلا أن وضعها كان دائماً أفضل بكثير من وضع معظم الملاجئ الخاصة، بل فاق حتى الملاجئ الرسمية والكنسية التي كانت نسبة الوفيات السنوية فيها تعادل غالباً تسعة من عشرة. كما أن تعويض الخسائر كان موفوراً، فباريس كانت تنتج سنوياً ما ينوف عن عشرة آلاف لقيط وابن حرام ويتيم، ونتيجة لذلك فإن خسائر مدام غايار لم تكن بالغة الألم.

بالنسبة للطفل غرنوي كانت مؤسسة مدام غايار نعمة، إذ ما كان لأي مكان آخر أن يوفر له إمكانية البقاء على قيد الحياة. أما هنا، عند هذه المرأة التي لا تمتلك روحاً، فقد نما، إذ أن جسمه كان شديد المقاومة؛ فمن ولد مثله وسط القمامة وعاش، لن يسمح للموت أن يداهمه

بسهولة. كان قادراً على الاكتفاء بحساء الماء أياماً طوالاً، أو بأفقر أنواع الحليب، كما استطاع تحمل الخضار الفاسدة واللحم المتفسخ. وخلال سنوات طفولته تمكن غرنوي أن ينجو من الحصبة والزحار، ومن جدري الماء والكوليرا، كما نجا أيضاً من سقوطه في بئر بعمق ستة أمتار، ومن اندلاق الماء المغلي على صدره. صحيح أن آثار ذلك قد تجلت في ندوب وأخاديد، وفي قدم عرجاء جعلته يجرجر مشيته، لكنه عاش. كان شديد المقاومة كالبكتيريا المنيعة، وقنوعاً كقرادة ضئيلة تقبع مستكينة على الشجرة مكتفية بقطرة الدم الوحيدة التي اقتنصتها قبل أعوام. كان جسمه قادراً على الاكتفاء بالحد الأدنى من الغذاء والملبس، أما روحه فلم تكن بحاجة لأي شيء. فالطفل غرنوي كان بغنى عن الشعور بالأمن والدفء والحنان والحب، أي عن كل هذه التسميات التي يزعم البعض أن الطفل بحاجة إليها. ولكن يبدو لنا أنه قد تعمد الاستغناء عنها منذ البداية، كي ينجو بحياته. إن الصرخة التي أطلقها عقب ولادته، من تحت طاولة السلخ والتي دعا بها نفسه إلى الحياة، وأمه إلى المقصلة، لم تكن صرخة غريزية بحثاً عن الشفقة والحب، بل كانت صرخة مدروسة بدقة، ويكاد المرء أن يقول انها صادرة عن عقل مفكر، أراد بها الوليد الجديد أن يحسم أمره ضد الحب ولصالح الحياة. وفي ظل الظروف المهيمنة لم يكن هذا ممكناً دون تلك. ولو طالب الطفل بكليهما معاً، لكان بكل بساطة قد نفق وفطس. وقد كان بمقدوره آنذاك أن يختار الطريق الثاني المفتوح أمامه، بأن يصمت فيموت، دون أن يتجشم عناء طرق السبيل الآخر ما بين الولادة والموت، ولكان بهذا الخيار قد وفر على العالم وعلى نفسه بالذات الكثير من الويلات. إلا أن مثل هذا الخيار كان يتطلب توفر الحد الأدنى من الكرم الذي لم يمتلكه

غرنوي. لقد كان شنيعاً منذ البداية. فاختياره الحياة كان نابعاً من إحساسه بالتحدي والكراهية فحسب.

إنه لأمر بدهي مفهوم أن غرنوي لم يمارس عملية الاختيار، كما يفعل البالغ الراشد الذي يستخدم، إلى هذا الحد أو ذاك، رجاحة عقله وخبرته كمن يختار ما بين احتمالات عدة. إنما كان اختياره نباتياً، أي كالحبة المرمية التي عليها أن تختار بنفسها، إما أن تنمو أو تموت، أو كحشرة القرادة القابعة على جذع شجرة، والتي ليس لدى الحياة ما تقدمه لها سوى النجاة المتكررة من كل شتاء. ونتيجة لذلك فإن هذه القرادة الصغيرة البشعة تكوّر جسمها الرمادي على ذاتها، كي لا تعرض منه للعالم الخارجي سوى أضأل مساحة ممكنة، وتجعل جلدها أملس كتيماً، كي لا يتبخر منه أي شيء، وكي لا تفقد أية ذرة من ذراتها هدراً لصالح العالم الخارجي، وتلجأ إلى تصغير نفسها عمداً، متجنبة بذلك أن يراها أحد فيدوسها. ومثل غرنوي كمثل هذه القرادة الوحيدة، المتكورة على نفسها فوق شجرتها، صماء بكماء عمياء وهي تتشمم فحسب، تتشمم وعلى مدى السنين والمسافات دم الحيوانات العابرة والمتجولة والتي لن تستطيع بقدرتها الذاتية أن تصل إليها مهما فعلت. إن بوسع القرادة أن تدع نفسها تسقط، أن تسقط على أرض الغابة، وأن تتحرك بأقدامها الضئيلة الست بضع ميليمترات ذات اليمين أو ذات الشمال، تحت ورقة نبتة ما لتموت، ويعلم الله أن ليس في الأمر ما يحزن. لكن هذه القرادة العنيدة المتعفنة والمقرفة تصر على الحياة وتنتظر. تنتظر حتى تسوق لها الدم، مصادفة عجيبة، في صورة حيوان ما، إلى تحت شجرتها تماماً. حينئذ فقط كانت تتخلى القرادة عن تحفظها، فترمي بنفسها فوق اللحم الغريب لتتكالب عليه وهي تعض وتنهش....

والطفل غرنوي كان مثل هذه القرادة، فقد عاش متكيساً على نفسه بانتظار الزمن الأفضل. لم يقدم للعالم من ذاته سوى غائطه، لا بسمة ولا صرخة ولا التماعة عين، ولا حتى رائحته. لاشك أن أية امرأة أخرى، سوى مدام غايار، كانت ستنبذ مثل هذا الطفل المشوّه؛ فهي لم تدرك أن لا رائحة له، كما أنها لم تتوقع منه أية خلجة تدل على روحه، لأن روحها هي كانت مبهمة.

أما الأطفال الآخرون فقد أحسوا فوراً بطبيعة غرنوي، فمنذ اليوم الأول شعروا بالرهبة تجاه هذا الطفل الجديد. فتجنبوا الصندوق الذي كان ينام فيه، والتصقوا ببعضهم، ولكأن حرارة الغرفة قد هبطت. الصغار منهم كانوا يصرخون خلال الليل نتيجة توهمهم أن ريحاً تجتاح الغرفة، ورأى آخرون في الحلم أن ثمة ما يحاول كتم أنفاسهم. وذات مرة تكاتف كبارهم بغية خنقه، فجمعوا فوق وجهه الخرق والأغطية والقش ثم ثقّلوا ذلك كله بالقرميد. وفي صبيحة اليوم التالي عندما نبشته مدام غايار كان غرنوي متكسراً ومهشماً، لكنه لم يكن ميتاً. حاولوا ذلك مرات أخرى، دون جدوى. أما أن يخنقوه من رقبته، بأيديهم، أو أن يحشوا فمه أو أنفه، وهي الطريقة المضمونة حتماً، فهذا ما لم يتجرأوا عليه، لأنهم كانوا يريدون تجنب ملامسته، فقد كانوا يقرفون منه قرفهم من سحق عنكبوت بأيديهم.

وعندما كبر غرنوي تخلى الأطفال عن محاولات القتل، فقد أدركوا أن القضاء عليه أمر مستحيل، فتجنبوه وابتعدوا عنه، محاولين ما أمكن عدم ملامسته. لكنهم لم يكرهوه ولم يحسدوه على نصيبه في الطعام، إذ لم يكن في منزل مدام غايار أي سبب لذلك. مجرد وجوده،

ببساطة، كان يزعجهم. وبما أنهم لم يستطيعوا شم رائحته فقد خافوا منه.

٥

ولو ألقينا على غرنوي نظرة موضوعية لما وجدنا فيه ما يخيف. وحتى عندما أخذ ينمو فإنه لم يكن ضخماً أو قوياً بشكل لافت للنظر. كان قبيحاً، ولكن ليس إلى درجة أن يرتعد الإنسان من بشاعته. لم يكن عدوانياً ولا أعسر ولا خبيثاً، كما انه لم يستفز الآخرين، بل كان يفضل الانزواء جانباً. وحتى مستوى ذكائه لم يكن فيه ما يريب. لم يبدأ بالمشي على ساقيه إلا في الثالثة من عمره، وفي الرابعة نطق بأول كلمة؛ وكانت هذه الكلمة "سمك" قد صدرت عنه فجأة كالصدى، في لحظة ثوران عاطفي عندما سُمع عن بعد صوت بائع سمك معلناً عن بضاعته، وهو يقترب في "شارع شارون". أما الكلمات التالية التي صدرت عنه، فقد كانت "باغونيا"، "اسطبل الماعز"، "كرنب" و"جاكلورو" والأخيرة هذه كانت اسم مساعد البستاني الذي كان يعمل في "وقف أبناء الصليب" المجاور والذي كان ينجز أحياناً أصعب الأعمال عند مدام غايار، والذي كسب شهرته من كونه لم يغتسل ولا مرة في حياته. أما الأفعال والصفات وكلمات الحشو فقد كان تعامله معها أقل. فعدا "نعم" و"لا" اللتين لم ينطق بهما إلا في مرحلة متأخرة جداً، لم يلفظ سوى الأسماء، والمحسوسة منها تحديداً، كأسماء النباتات والحيوانات والبشر، فقط حين تستحوذ عليه، من حيث لا يدري، روائح هذه المحسوسات. ذات يوم، تحت أشعة شمس آذار / مارس، بينما كان غرنوي يجلس

على كومة من حطب الزان الذي كان يطقطق من الحرارة، نطق غرنوي لأول مرة بكلمة "خشب". لقد رأى الخشب مئات المرات وسمع اسمه مئات المرات كذلك قبل الآن، بل كان يفهم معنى الكلمة لأنه غالباً ما كان يُطلب منه شتاء أن يخرج لجلب شيئاً منه. إلا أن مادة الخشب لم تستثره بما يكفي كي يبذل الجهد المناسب للتلفظ باسمها. لم يحدث هذا إلا في ذاك اليوم من آذار، عندما كان يجلس على الكومة التي رتبت أجزاؤها كمقعد تحت سقف مستودع مدام غايار في الطرف الجنوبي في الملجأ. كانت تفوح من طبقة الحطب العليا رائحة حلوة كالتي تفع من احتراق بطيء. ومن جوف الكومة تصاعدت رائحة طحلبية، أما جدار المستودع المبني من خشب الشربين فقد كانت تضوع منه في هذا الدفء رائحة الراتينج.

جلس غرنوي ماداً ساقيه على كومة الحطب، مسنداً ظهره إلى الجدار وعيناه مغلقتان، ودون أدنى حراك. لم ير شيئاً، لم يسمع شيئاً، ولم يشعر بأي شيء. كان يشم رائحة الخشب فحسب، تلك الرائحة التي كانت تتصاعد من حوله، محيطة به تحت السقف كالمظلة. ارتشف رائحة الخشب الطيبة، غرق فيها، وترك نفسه يتشربها حتى أدق مسام في جسمه، لدرجة أن أصبح والخشب شيئاً واحداً. فاستلقى هناك على الكومة مثل دمية خشبية، مثل بينوكيو، كالميت، إلى أن عصر من ذاته بعد ما يقارب نصف الساعة كلمة "خشب"؛ قذفها من نفسه وكأنه محاط بالخشب حتى ما فوق أذنيه، وكأن الخشب قد ملأ أمعاءه وبطنه ووصل حتى رقبته. قذفها وصحا منقذاً نفسه من حضور الخشب الطاغي الذي كاد أن يخنقه. انتفض في مكانه ثم انزلق عن الكومة ومشى

مبتعداً عنها كمن يسير على ساقين خشبيتين. ومضت أيام وغرنوي مازال مأخوذاً بكثافة تجربة الرائحة تلك، وكلما تصاعد زخمها في ذاكرته، كان يبربر مستحضراً الحالة: "خشب، خشب".

هكذا تعلم غرنوي الكلام، لكنه بقي يعاني الكثير من الكلمات التي تدل على مادة لا رائحة لها، ومن المفاهيم المجردة، وخاصة ما ينتمي منها إلى حقل الفلسفة والأخلاق. فما كان بوسعه أن يحفظها، وغالباً ما كان يستخدمها بصورة معكوسة. وحتى عندما كبر كان استخدامه لها غالباً مغلوطاً، وعن غير رغبة أيضاً: فكلمات كالقانون، الضمير، الرب، السعادة، المسؤولية، التواضع، الامتنان وما إلى ذلك مما يمكن لهذه المفردات أن تعبر عنه كانت ومازالت بالنسبة له مبهمة.

ومن جهة أخرى لم تعد اللغة متداولة كافية للتعبير عن كل تلك الأشياء التي جمعها في ذاته كمفاهيم روائحية. فهو لم يعد يشم الخشب فحسب، بل أنواع الخشب: كالاسفندان والبلوط والصنوبر والدردار والدراق، كما بدأ يميز بأنفه بين الخشب العتيق والطازج والهش والمتعفن والطحلب، بل حتى بين أنواع الحطب وكسراته وفتاته. كان يشمها بكل وضوح كمواد مختلفة عن بعضها، في حين انه لم يكن بمقدور الآخرين التمييز فيما بينها، ولا حتى بعيونهم. وهكذا جرت الأمور معه بالنسبة لأشياء أخرى، فهذا الشراب الأبيض الذي كانت مدام غايار تقدمه للأطفال كل صباح. والذي اصطلح على تسميته حليباً، كان حسب احساس غرنوي به يختلف طعمه من صباح إلى آخر وفق درجة حرارته أو حسب البقرة التي حُلب منها، بل حتى حسب الحشائش التي التهمتها، أو حسب درجة الدسم المتبقي في الحليب المقدم للأطفال. وهكذا كان أمر

غرنوي مع الدخان مثلاً. هذا الشيء المكون من عبق مئات الروائح، والذي خلال دقائق، بل ثوان يتحول إلى وحدة رائحية متبدلة كلياً عما سبق، لم يكن يمتلك للدلالة عليه سوى اسم "دخان" فقط... كذلك كان الأمر بالنسبة لتراب الأرض الممتدة تحت الهواء، والتي كانت روائحها تتبدل بين الخطوة والأخرى وبين الشهيق والشهيق بحيث تتبدل هويتها كلياً، والتي رغم هذا كله لم يتوفر للدلالة عليها سوى هاتين الكلمتين الجافتين "تراب الأرض". إن هذا الاضطراب الغريب العجيب في العلاقة ما بين العالم الذي يعج بالروائح وبين فقر اللغة جعل الصبي غرنوي يشك بمعنى اللغة؛ فلم يستسهل على نفسه استخدامها إلا عندما كان يضطر للتواصل مع الناس الآخرين.

عندما بلغ السادسة من عمره كان قد امتلك البيئة المحيطة به شمياً بشكل تام. فلم يكن ثمة جسم في منزل مدام غايار لا يعرف غرنوي رائحته، وفي شمال "شارع شارون" كان غرنوي قادراً على التعرف على رائحة أي مكان أو إنسان أو حجر أو شجرة أو عشبة أو سياج، أو حتى أصغر وأضأل زوايا المكان؛ إذ كان بمقدوره تخزين فرادة هذه أو تلك الرائحة في ذاكرته. فلقد جمع لنفسه عشرات آلاف، بل مئات آلاف الروائح ذات الخصوصية، وكانت هذه واضحة وجاهزة في ذاكرته بحيث لم يحتج لبذل الجهد من أجل تذكرها، بل كان قادراً على شمها فعلاً حال استيقاظها في ذاكرته. والأدهى من ذلك هو امتلاكه القدرة على مزجها في خياله حسب رغبته، مما أدى إلى ابتكاره أنواعاً من الروائح، غير موجودة في العالم الحقيقي. فلكأنه كان يمتلك مخزوناً هائلاً من المفردات الدالة على الروائح مكنه من صياغة العديد من الجمل الجديدة ذات

العلاقة بها. وفي سن كان بقية الأطفال فيه قادرين بالكاد، بمفرداتهم التي حفظوها بصعوبة وقسر، على وصف العالم في جمل تقليدية عرجاء. إن الاحتمال الأقرب لوصف موهبته هو تشبيهه بطفل عبقري موسيقياً، تمكن قراءة أبجدية الأصوات والألحان وبدأ الآن يولف بنفسه نغمات وألحاناً جديدة كلياً. طبعاً، مع فارق أن أبجدية الروائح أغنى وأكثر تبايناً واختلافاً من تلك الخاصة بالأصوات. بالإضافة إلى أن النشاط الإبداعي للعبقري غرنوي كان يتفاعل في دخيلته، دون أن يتمكن من معرفة ذلك سواه..

ومع مرور الزمن أصبح غرنوي أكثر تكتماً حيال العالم المحيط به. وأقصى ما كان يفضله هو أن يتجول بمفرده في منطقة سان انطوان، عبر بساتين الخضار والكروم وعبر المروج. وغالباً ما كان يتغيب عن الملجأ، لعدة أيام، إذ كان يحتمل التربية بالعصا المفروضة عليه دون أن يصدر من ذاته أي تعبير عن الألم الناتج عنها. وما كان بوسع الحجز أو تقليص وجبات الطعام أو عمل السخرة أن يؤثر على سلوكه. كما أن الزيارات المتفرقة خلال عام ونصف إلى "دير نوتردام دو بوك سيكور" لم يغير فيه شيئاً. لقد تعلم هناك كيف يهجي الكلمات وكيف يكتب اسمه، ولكن لا شيء سوى ذاك. وقد اعتقد مربيه هناك أنه أبله. أما مدام غايار فقد لفت نظرها أنه يمتلك قدرات وصفات خاصة، إن لم نقل غير عادية. فقد كان خوف الأطفال من الظلمة شعوراً غريباً عنه. ولهذا كان بوسعها في أي وقت كان أن ترسله إلى القبو، إلى حيث لا يجرؤ بقية الأطفال على الدخول ولو كانوا مزودين بمصدر للنور؛ أو إلى المستودع الخارجي في الليل المدلهم كي يجلب شيئاً من الحطب. لم يكن يأخذ معه شمعة أو

فانوساً، ومع ذلك كان يجد طريقه ويحضر المطلوب منه دون تلكؤ، ودون أن يتعثر أو يصطدم بأي شيء. إلا أن الأغرب من ذلك، حسب ظن مدام غايار، هو قدرته على الرؤية عبر الورق والقماش والخشب، بل حتى عبر الجدران والأبواب المغلقة. فقد كان يعرف عدد وأسماء الأطفال الموجودين في الغرفة، دون أن يدخلها. كما كان يرى الدودة في القرنبيط قبل أن تفلقها السكين. وذات مرة عندما خبأت نقودها في حرز أمين، لدرجة أنها هي لم تعد تجدها (فقد كانت تغير مخابئها) أشار دون أن يفتش لحظة واحدة إلى مكان خلف دعامة المدفأة، فإذا بها فعلاً هناك! حتى انه كان يقرأ المستقبل بأن ينبئ عن زيارة ضيف قبل وصوله أو عن اقتراب عاصفة قبل وقوعها، بل حتى قبل أن تظهر سحابة صغيرة واحدة في السماء. ولكن ما كان ليخطر ببال مدام غايار، ولا حتى لو لم تتلق تلك الضربة التي أفقدتها حاسة الشم، أن غرنوي بطبيعة الأمر لم ير ما رأى بعينيه، وإنما بحاسة الشم في أنفه التي أضحت مع الزمن أكثر دقة وحدة: الدودة في القرنبيط، والنقود خلف دعامة المدفأة، والناس عبر الجدران وعن بعد. فقد كانت مقتنعة بأن الصبي، بغض النظر عن بلاهته، بصيراً. ولما كانت تعرف أن البصير يجلب الشؤم، يجلب الخراب والموت فقد أصبحت ترهبه. والفكرة الأكثر رهبة والأشد وطأة التي اجتاحتها هي أن تعيش تحت سقف واحد مع شخص يمتلك القدرة على كشف مخابئ النقود وراء الأعمدة أو خلف الجدران، وبكل دقة. وعندما اكتشفت موهبة غرنوي المرعبة هذه سعت للخلاص منه. ولحسن حظها حدث في الوقت نفسه تقريباً - وكان غرنوي في الثامنة من عمره - أن أوقف "دير سان ميري" مدفوعاته دون أدنى تبرير. ومدام غايار لم تلفت

نظر مسؤولي الدير إلى ضرورة الدفع، بل تمهلت أسبوعاً، وعندما لم تصل الدفعة السنوية المعهودة، اقتادت الصبي غرنوي من يده باتجاه المدينة.

كانت تعرف في "شارع مورتلري" بالقرب من النهر دباغاً يدعى غريمال، كان مشهوراً بحاجته إلى الأطفال كيد عاملة، لا كتلاميذ حرفة أو متدربين، بل كعمال سخرة وحمالين بأجر زهيد. فالمعروف عن أجواء هذه الحرفة أن فيها أعمالاً - كسلخ جلود الحيوانات المتفسخة، ومزج سوائل الدبغ والتلوين السامة، وتشريب قشور الجلد العطن بالقلويات - خطرة لا يجازف المعلم بتعريض حياة تلاميذه لها إن أمكن، بل يعتمد فيها على حثالة العاطلين عن العمل والمتبطلين وجوّابي الآفاق، أو على الأطفال الذين ليس لديهم من يسأل عنهم، حتى إن دعت الحاجة لذلك. ومدام غايار كانت تعرف لاشك أنه لا فرصة أمام غرنوي - حسب المقاييس البشرية - في مدبغة غريمال للبقاء على قيد الحياة، لكنها لم تكن من ذلك النوع الذي يشغل باله بمثل هذه الأفكار، فقد أدت واجبها بانتهاء مسؤوليتها عن رعايته، أما ما قد يحدث للصبي منذئذ فهذا ليس شأنها. إن نجا فهذا حسن، وإن مات فهذا حسن أيضاً. فالمهم أن تسير الأمور على ما يرام. ولهذا طلبت من غريمال وصلاً بتسليمها الصبي له، كما وقعت له على أنها قبضت عمولة بمبلغ خمس عشرة فرنكاً ثم انطلقت إلى منزلها في "شارع شارون". لم تشعر بأدنى درجة من تأنيب الضمير على ما فعلت، بل كانت تعتقد على عكس ذلك بأنها محقة وعادلة في ما أقدمت عليه. فبقاء طفل لديها، ليس ثمة من يدفع تكاليفه سيشكل بالضرورة عبئاً على الأطفال الآخرين، أو حتى عليها

هي بالذات، مما كان سيؤدي إلى تعريض مستقبل بقية الأطفال للخطر، بل مستقبلها هي، أي موتها الخاص المضمون والذي ليس لديها ما تأمله في الحياة سواه.

وبما أننا، عند هذه المرحلة من قصتنا، سنترك مدام غايار دون أن نلتقي بها مرة أخرى فيما بعد، فإننا نود أن نكرس بعض السطور لوصف آخر أيامها. إن المدام التي ماتت من الداخل منذ طفولتها، امتد بها العمر، لسوء حظها طويلاً، وطويلاً جداً. ففي عام ١٧٨٢، وقد شارفت على السبعين من عمرها تخلت عن مهنتها واشترت لنفسها كما كانت قد خططت راتباً شهرياً، وقبعت في منزلها منتظرة الموت. لكن الموت لم يأت. بل جاء بدلاً عنه ما لم يكن في حسبان أي مخلوق على وجه البسيطة، وما لم يسبق أن وقع في هذا البلد أبداً، أي الثورة، بمعنى التبدل السريع لمجمل العلاقات الاجتماعية والأخلاقية، وللقيم المتعارف على سموها. في البداية لم يكن لهذه الثورة أي تأثير مباشر على مصير مدام غايار الشخصي. ولكن فيما بعد - عندما قاربت الثمانين من عمرها - سمعت بأن المسؤولين عن راتبها التقاعدي قد اضطروا للهجرة وأن أملاكهم قد صودرت فجأة وبيعت في المزاد لصاحب مصنع سراويل. ولفترة قصيرة لم يكن لهذا التحول أي أثر مصيري على مدام غايار، لأن صاحب مصنع السراويل استمر في دفع أقساط راتبها في مواعيدها. ثم جاء اليوم الذي تسلمت فيه راتبها على شكل أوراق صغيرة مطبوعة، بدلاً من القطع المعدنية القاسية. آنئذ بدأت نهايتها المادية. فبعد مرور عامين لم يعد يكفي الراتب لشراء حطب التدفئة. ولذا وجدت مدام غايار نفسها مضطرة لبيع بيتها، وبسعر مضحك، إذ فجأة كان هناك الآلاف

ممن اضطروا لبيع بيوتهم. وللمرة الثانية تلقت مدام غايار المبلغ بهذه الوريقات السخيفة التي فقدت بدورها قيمتها بعد لا أكثر من سنتين. وفي عام ١٧٩٧، وقد شارفت على التسعين، كانت المدام قد فقدت كل ممتلكاتها الدنيوية التي بذلت في سبيلها الجهد الجهيد، لتسكن في حجرة مفروشة في "شارع كوكي".

وعندها فقط جاء الموت المتأخر عشرة بل عشرين عاماً في شكل مرض سرطاني قبض على حنجرتها فسلبها الرغبة في الطعام ثم القدرة على النطق، بحيث لم يعد بإمكانها الاحتجاج ولو بكلمة واحدة عندما اقتادوها إلى "مستشفى نزل الرب" حيث وضعوها في نفس القاعة المزدحمة بمئات المرضى المشرفين على الموت، حيث مات زوجها؛ هناك، وضعوها في سرير مشترك إلى جانب خمس عجائز، الجسم بلصق الجسم، وتركوها هناك طيلة ثلاثة أسابيع لتحتضر بكل علانية. ثم خاطوا الكيس فوق رأسها ورموها في الرابعة صباحاً على عربة نقل إلى جانب خمسين جثة أخرى ونقلوها مرافقة برنين جرس خافت إلى المقبرة الجديدة في "كلامار" التي تبعد ما يقارب الميل من بوابات المدينة بحيث ألقيت في مثواها الأخير تحت طبقة من الكلس الحار.

حدث هذا في عام ١٧٩٩. ونشكر الله على أن مدام غايار لم تدر شيئاً عن المصير الذي كان ينتظرها، عندما تركت الصبي وقصتنا في ذلك اليوم من عام ١٧٤٧. فلو عرفت، لفقدت إيمانها بالعدالة، وبالتالي بالمغزى الوحيد للحياة الذي كانت تؤمن به.

٦

مع النظرة الأولى التي ألقاها غرنوي على السيد غريمال - لا، بل مع أول شهيق عبه من الهالة المحيطة به. عرف أن هذا الرجل قادر على ضربه حتى الموت لأبسط عصيان قد يبدر منه. فحياته لم تعد تساوي الآن أكثر من العمل القادر على إنجازه، أي لا أكثر من قيمة فائدته لغريمال. وهكذا انكمش غرنوي على نفسه دون أن يحاول التعبير عن رفضه لما تعرض له، ولو مرة واحدة. وبمرور الأيام ازداد انغلاقه على نفسه، كابتاً في أعماقه طاقة الرفض والتمرد التي تنطوي عليها روحه، مستخدماً إياها على طريقة القرادة، بغرض تخطي عصر الجليد القادم محافظاً على حياته. فكان جلوداً، قنوعاً، غير لافت للنظر، مكتفياً بالحفاظ على بصيص الأمل بالحياة، بمنتهى الحذر. فأصبح مثالاً للطاعة والتواضع وحب العمل. كان يتلقى الأمر فينفذه من فوره، ويتناول وجباته بحب جلي. ولم يعترض على سجنه مساء في الحجرة الخشبية الملحقة بالورشة إلى جانب معدات العمل والجلود الخام المملحة المعلقة فيها. كان ينام في هذه الحجرة على الأرض العارية الممهدة. أما خلال النهار، وحتى هبوط الظلام - ثماني ساعات شتاء وأربع عشرة إلى خمس عشرة إلى ست عشرة ساعة صيفاً - فقد كان يعمل في نزع اللحم عن الجلود ذات الروائح المقرفة وغسلها، في نتف الشعر عنها وتكليسها ونقعها بالقلويات ودكها ودهنها من ثم برائق الطين الكاوي، وكذلك في التحطيب وتقشير جذوع البتولا والتنوب، كما كان ينزل في الخنادق المليئة بالجلود العفنة ذات الروائح الوخازة، ليرتبها في طبقات، حسب أوامر تلاميذ المعلم، وليرشها بعصارة المرارة، وليغطي هذه الأكوام المقرفة

فيما بعد بأغصان التنوب والتراب. ثم كان عليه بعد سنوات أن يعود إلى نبش هذه الخنادق ليخرج جثث الجلود المحنطة من قبورها، بعد أن أصبحت الآن جاهزة لعملية الدباغة.

وإن لم يكن مشغولاً بطمر أو بنبش الجلود، كان عليه أن يجلب الماء. قضى شهوراً طوالاً وهو يجلب الماء من النهر، سطلين في كل مرة، مئات السطول في اليوم. فمهنة الدباغة كانت تتطلب كميات هائلة من الماء من أجل الغسل والتطرية والغلي والصبغ. مرت شهور وهو مبتل من رأسه إلى قدميه، ومع حلول المساء كانت المياه تزرب من ثيابه وجسمه. وكان جلده بارداً وطرياً وممتلئاً بالماء كممسحة جلدية. وبعد مرور عام على هذا الوجود الحياتي الأقرب إلى الحيوانية منه إلى الإنسانية أصيب غرنوي بمرض الجمرة الخبيثة، وهو من الأمراض الرهيبة المتأتية عن ممارسة هذه الحرفة، وغالباً ما كان ينتهي بالموت. فاعتبره غريمال في عداد الأموات وبدأ بالبحث عن بديل، والحزن يخامره، إذ لم يعرف عن حياته كلها عاملاً أكثر قناعة وإنجازاً مثل غرنوي هذا. ولكن على نقيض كل ما كان متوقعاً، قاوم غرنوي المرض وغلبه، ولم يتبق عليه من آثاره سوى ندوب الدمامل السوداء خلف الأذنين وعلى العنق والخدين بحيث تشوه منظره وازداد بشاعة على بشاعة. ولحسن حظه العظيم احتفظ غرنوي من المرض بمناعة ضده، بحيث أصبح بمقدوره منذ الآن، بيديه المجرحتين المدماتين، ودون أية مخاطرة، أن يخلص أكثر الجلود فساداً من اللحوم العالقة بها. فتميز بذلك، لا عن التلاميذ والمتدربين فحسب، بل حتى عن خلفائه المحتملين. وبما أن استبداله بآخر لم يعد الآن سهلاً، كما كان الوضع سابقاً، فقد ارتفعت قيمة عمله، ومعها قيمة حياته. وفجأة لم

يعد مضطراً للنوم على الأرض الجرداء، فقد سمح له بأن يبني في المستودع ما يشبه السرير، من الخشب. ثم حصل على القش ليفرشه فوقه، وعلى غطاء خاص به وحده. كما توقفوا عن قفل الباب عليه ليلاً، وحسنوا نوعية طعامه، إذ أن غريمال لم يعد يعتبره مجرد حيوان، بل أخذ يعامله كحيوان أليف مفيد.

وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره منحه غريمال نصف يوم الأحد كإجازة. وفي الثالثة عشرة سمح له بساعة حرة بعد العمل، يقضيها كما يشاء. لقد انتصر لأنه عاش، ولديه الآن حيز من الحرية يكفي لمتابعة العيش. القرادة غرنوي دبت فيه الحياة مجدداً. تشمم هواء الصباح، وركبته حمية الصيد. وكانت أكبر منطقة روائح في العالم بمتناول أنفه: مدينة باريس.

٧

كان الأمر كما في جنة أحلام التنابل. فالمناطق القريبة وحدها، من "سان جان دولا بوشري" إلى "سان أوتاش" كانت كجنة أحلام التنابل. في الحواري المتفرعة من "شارع سان دينيز" ومن "شارع سان مارتان" كان الناس يعيشون إلى جانب بعضهم بعضاً بكثافة كبيرة، بحيث تزاحمت البنايات، فانطلقت إلى ارتفاع خمسة إلى ستة طوابق، حاجبة عن الإنسان رؤية السماء، كما كاد الهواء في الأسفل يتجمد من كثرة الروائح، كهواء الأقنية الرطبة، فاختلطت روائح البشر بروائح الحيوانات، إلى جانب السديم المتشكل من أبخرة الطعام والأمراض والمياه والأحجار والرماد والجلود، ومن الصابون والخبز الطازج والبيض المسلوق بالخل،

ومن المعكرونة والنحاس المبيّض، ومن النرجس الأزرق والبيرة والدموع، ومن القش المدهن والرطب والجاف. آلاف وآلاف الروائح امتزجت ببعضها لتكوّن خليطاً لا مرئياً، يملأ الأزقة والحواري، مترسخاً في المناطق الواطئة، ومتصاعداً باتجاه الأسطحة دون أن يفقد شيئاً من خواصه، إلا نادراً. والبشر الذين كانوا يعيشون هناك، في خضم هذا الخليط اللامرئي ما عاد بوسعهم تمييز رائحة من أخرى، فقد صدر عنهم ليعود ويغرقهم في لججه من جديد. كان هو الهواء الذي يستنشقونه والذي يعيشون منه. كان أشبه ما يمكن بثوب دافئ طال أمد ارتدائه، فلم يعد بوسع الإنسان شم رائحته أو تحسسه على جلده. أما غرنوي فقد شم كل شيء وكأنها المرة الأولى. وهو لم يشم خليط الروائح في كليته. بل حلله إلى تفرعاته وجزئياته، الأصغر فالأصغر، والأبعد فالأبعد. كان أنفه الحساس قادراً على فك هذه الكتلة المؤلفة من الأبخرة والنتانة إلى خيوط روائحها الرئيسة غير القابلة للتفكيك أكثر مما فعل. وكم كانت متعته هائلة بلف هذه الخيوط وإعادة نسجها على هواه.

غالباً ما كان يقف، متوارياً في زاوية معتمة، متكئاً على جدران منزل ما، بعينين مغمضتين وفم نصف مفتوح ومنخرين منتفخين، متربصاً كسمكة مفترسة في عتمة المياه الجارية ببطء. وأخيراً حينما كانت تصله في نهاية خيط رائحة زكية، نسمة جديدة مثيرة، كان ينقض عليها، يمسك بها، يستنشقها حتى الثمالة، ويحتفظ بها لنفسه إلى الأبد. قد تكون رائحة قديمة، سبق أن عرفها، أو تنويعاً جزئياً عليها، وقد تكون رائحة جديدة تماماً، لا تمت بصلة لتلك التي عرفها حتى الآن، أو لتلك التي رآها: كرائحة القماش الحريري المتصاعدة من ملامسة المكواة له، أو

كرائحة شراب الزعتر، أو كرائحة قطعة بروكار موشاة بخيوط الفضة، أو كرائحة سدادة فلينية لزجاجة خمر نادر، أو كرائحة مشط مصنوع من ظهر السلحفاة. هذا النوع من الروائح هو ما كان غرنوي يتعقبه حتى يصطاده بشغف وصبر صياد السمك، ليدخره من ثمة في نفسه.

وما أن يُشبع أنفه من روائح خليط الحواري السميك حتى ينطلق إلى الأماكن التي توفرَ له فسحة أوسع، حيث تكون الروائح أكثر رقة، ممتزجة بالريح ومنداحة معها، كالعطر تقريباً: إلى ساحة السوق مثلاً، حيث تكون روائح النهار سادرة مساءً أيضاً، بصورة غير مرئية، ولكن بوضوح جلي، ولكأنها مازالت متسارعة التنقل وبحيرةٍ في زحمة الباعة، لكأن السلال المليئة بالخضار والبيض مازالت هناك، وكذلك البراميل المتخمة بالنبيذ والخل، والأكياس بالبهارات والبطاطا والطحين، والصناديق بالمسامير والبراغي، وطاولات اللحم، وبسطات الأقمشة وأدوات الطعام ونعال الأحذية ومئات الأشياء الأخرى التي تباع هناك طيلة النهار.. كانت حركة السوق الغنية حاضرة في الهواء بكل تفاصيلها. وإن جاز التعبير فإن غرنوي قد رأى السوق كله متشمماً إياه. تشممه بدقة أكبر مما يمكن للكثيرين أن يروه بأعينهم، لأن إحساسه به كان يتلو لحظة الشم، فيأتي نتيجة لذلك بصورة أرفع: كجوهر، كروح شيء كان، ولكن دون أن تقلقه خواص الحاضر كالضجيج والازدحام المبهظ المقرف للأجساد البشرية المتكالبة على بعضها.

أو كان يذهب إلى حيث قطع رأس أمه، إلى "ساحة دو غريف" التي كانت تبدو كلسان ضخم يلحس ماء النهر. فهنا كانت ترسو السفن مشدودة إلى أعمدة الشاطئ بالحبال، السفن التي تفوح منها روائح الفحم والحبوب والحشائش المجففة والحبال الندية.

ومن الغرب، عبر هذا المعبر الوحيد الذي يشكله النهر إلى المدينة كان يهب تيار ريح حاملاً معه روائح من الريف، من مروج "نويي" من الغابات الممتدة ما بين "سان جرمان" و"فرساي"، ومن المدن البعيدة مثل "روان" و"سين"، وأحياناً حتى من البحر. وكانت رائحة البحر كشراع نفخته الريح فتشبع بالماء والملح وبشمس باردة. كانت بسيطة وعظيمة وفريدة في الوقت نفسه إلى حد أن تردد غرنوي في تجزيئها إلى السمكية والمائية والطحلبية والطازجة وغيرها. ففضل أن يبقي عليها بشموليتها وأن يحفظها في ذاكرته ككل غير مجزأ. لقد أعجب برائحة البحر لدرجة أن اشتهى الحصول عليها، ولو مرة، نقية، دون شوائب، وبكميات وافرة تسكره، وعندما علم فيما بعد، من الحكايات التي وصلت سمعه، بمدى كبر البحر، وبأن السفن تمخر عبابه لأيام طوال دون أن تلمح اليابسة، امتلكته الرغبة بأن يكون على متن إحدى هذه السفن، في القفص في أعلى صواريها، طائراً عبر رائحة البحر اللامتناهية، التي لم تكن في حقيقتها رائحة، بل نفساً، زفيراً هو نهاية الروائح كلها، وأن يتحلل في هذا النفس والمتعة تملأ جوانحه. ولكن ما كان لأمنيته أن تتحقق أبداً، فغرنوي الواقف الآن على شاطئ "ساحة دو غريف" مستنشقاً وزافراً بقايا رائحة البحر التي وصلت إلى أنفه مرات ومرات لن يرى البحر بأم عينيه، لا البحر الحقيقي ولا المحيط الهائل الواقع إلى الغرب، ولن تسنح له فرصة أن يمتزج بهذه الرائحة.

لقد شم غرنوي روائح المنطقة الواقعة ما بين "سان أوتاش" و"أوتيل دوفي" وعرفها بمنتهى الدقة فأصبح قادراً على التحرك فيها بحرية، حتى في أشد الليالي ظلمة. فوسّع منطقة صيده، في البداية نحو الغرب باتجاه

حواري "سان أونوريه"، صاعداً في شارع "سان انطوان" حتى الباستيل، وأخيراً متجاوزاً النهر إلى الضفة الأخرى باتجاه منطقة "السوربون" وحواري "سان جرمان" حيث يعيش الأثرياء. وهناك عبر بوابات المنازل ذات القضبان الحديدية كانت تتسرب روائح جلد العربات ومساحيق الشعر المستعار الذي يلبسه شباب العائلات النبيلة، ومن الحدائق متجاوزاً الجدران العالية كان ينداح أريج الزهور والورود. وهنا كانت المرة الأولى التي شم فيها غرنوي عطراً حقيقياً، بكل ما تعنيه كلمة عطر من معنى: كان عطر الخزامى أو ماء الورد الذي كانت تزوّد به نوافير الحدائق في المناسبات الاحتفالية، لكنه شم أيضاً روائح طيبة فاخرة ومركبة من المسك وزيت الأميرة والنارنج والمسك الرومي والنرجس والياسمين والقرفة، روائح تخلفها عربات النبلاء وراءها كوشاح ثقيل يداعبه النسيم. بفضول ولكن دون إعجاب خاص سجل غرنوي هذه الروائح في ذاكرته كما كان يسجل الروائح العادية، ولاحظ أن الهدف من العطر هو أن يكون مفعوله فاتناً وجذاباً، كما أدرك حسن روح الأجزاء التي تألفت منها، لكنها بدت في نهاية الأمر بدائية وثقيلة وكأنها قد مزجت مع بعضها بصورة عشوائية بدلاً من أن تأتلف أجزاؤها في تركيب متجانس. وكان على قناعة تامة بأنه قادر على ابتكار روائح أكثر طيباً، فيما لو توفرت له المواد الأولية نفسها.

ومعظم هذه المواد الأولية كان غرنوي يعرفها من أكشاك الورود والبهارات في السوق، أما الأخرى الجديدة عليه فقد رشحها من المزيج وحفظها في ذاكرته دون أسماء لا يعرفها بعد مثل: العنبر والزبّاد وزهر السمكة والصندل وزهر النارنج وبخور اللبان وحشيشة الدينار وذهب القندس وغيرها.

لم يكن انتقائياً، إذ أنه لم يميز بين ما تعارف عليه الناس عامة على انه رائحة طيبة أو كريهة، ليس بعد. إلا أنه كان طماعاً، فقد كان الهدف من جولات صيده هو أن يدخر لديه كل الروائح التي يمكن للدنيا أن توفرها له، وكان شرطه الوحيد هو أن تكون هذه الروائح جديدة. فالرائحة المنبعثة من حصان متعرق كانت تعنيه تماماً كرائحة براعم الزهور الخضراء المتفتحة، ورائحة البقة الكريهة الواخزة لم تختلف في أهميتها بالنسبة له عن رائحة شرحات البقر المشوية المنبعثة من مطابخ السادة. كان يلتهم بأنفه أي شيء على الإطلاق، مستنشقاً إياه بشغف. وحتى في مطبخ الروائح التركيبي القابع في مخيلته، حيث لم يتوقف لحظة عن تصنيع مركبات عطرية جديدة، لم يكن غرنوي قد امتلك مبدأ جمالياً مرشداً لعملياته بعد، فجاءت ابتكاراته غريبة شاذة، سرعان ما كان يخربها، كطفل يلعب بقطع البناء الخشبية، مجدداً ومخرباً، دون مبدأ إبداعي واضح يهتدي به.

٨

في الأول من أيلول / سبتمبر ١٧٥٣، في عام تتويج الملك أقامت مدينة باريس احتفاءً بالمناسبة حفلة ألعاب نارية على "الجسر الملكي". لم تكن الحفلة بفخامة تلك التي أقيمت بمناسبة زفاف الملك، كما لم تكن لتقارن بحفلة ولادة ولي العهد، لكنها على أية حال كانت حفلة ألعاب نارية مثيرة، إذ ركبوا لهذا الغرض عجلات شمسية مذهبة على صواري السفن، ومن أفواه ثيران النار كانت تنهمر الأمطار النجمية من أسوار الجسر باتجاه مياه النهر. وبينما كانت المفرقعات تنفجر في كل مكان،

من الأسوار وعلى اسفلت الشوارع والأزقة كانت الصواريخ تتصاعد إلى السماء لترسم في إطار هذه الظلمة باقات من الزنابق البيضاء. كانت الحشود بالآلاف، متجمهرة على الجسر على ضفتي النهر تعبر بصيحات الإعجاب على احتفائها بما تراه، بالإضافة إلى الهتافات الموجهة إلى الملك الذي اعتلى العرش قبل ثمانية وثلاثين عاماً والذي كانت شعبيته قد تلاشت منذ أمد بعيد. لكن جو حفلة الألعاب النارية كان قميناً بتحقيق ذلك.

وقف غرنوي صامتاً في ظل مبنى "بافيون دو فلور" على الشاطئ الأيمن، مقابل "بونت رويال". لم يحرك يديه مصفقاً، كما لم تلفت نظره الصواريخ المتصاعدة. لقد أتى لظنه أنه قد يشم شيئاً جديداً. ولكن سرعان ما تبين خواء الألعاب النارية من أي شيء، فكل ما كان يبرق ويتلألأ ويصفر وينشر الشرر ويتفجر لم يخلف وراءه سوى خليط من روائح الكبريت والزيت وملح البارود.

كان على وشك أن يترك هذا الحفل الممل إلى بيته عبر طريق "اللوفر" عندما حملت إليه الريح شيئاً ضئيلاً يكاد لا يلحظ، شذرة، ذرة رائحة طيبة، لا، بل أقل من ذلك: كان شيئاً أقرب إلى الإحساس الداخلي بالطيب منه إلى الطيب الحقيقي - وكان في الوقت نفسه إحساساً أكيداً بشيء لم يسبق له أن شمه. تراجع باتجاه الجدار مجدداً، أغلق عينيه وفتح منخريه. كانت الرائحة الطيبة لطيفة ورقيقة لدرجة أنه لم يستطع الإمساك بها. كانت تتجلى، لتضيع ثانية وقد غشاها دخان بارود المفرقعات، أو لتحجبها تعرقات الحشد البشري، ولتجزئها وتسحقها آلاف الروائح الأخرى المنبعثة من المدينة. إلا أنها عادت فجأة،

كطيف، وللحظة فقط، لتشم كلمحة رائعة.. ثم اختفت. كان غرنوي يعاني آلاماً مريعة، وللمرة الأولى لم يكن الألم ناتجاً عن تعرض شخصه الجشع للمهانة، بل كان قلبه فعلاً هو الذي يتعذب. خامره إحساس غريب بأن هذه الرائحة الطيبة هي المفتاح لعالم الروائح الطيبة الأخرى كلها، وبأنه ليس بمستطاع الإنسان أن يفهم الروائح الطيبة، إن لم يفهم هذه بالذات. وأدرك غرنوي أن حياته ستضيع هباءً، إن لم ينجح في امتلاك هذه الرائحة بعينها. كان لابد له من أن يمتلكها، لا بهدف الامتلاك فحسب، بل من أجل راحة قلبه.

ولشدة الهيجان الذي انتابه جاشت نفسه. فهو لم يعرف مصدر الرائحة ولا من أية جهة وصلته. كان انقطاع الرائحة يدوم أحياناً لدقائق طويلة لا تحتمل، حتى تصله شذرة أخرى منها. وفي كل مرة كان يسيطر عليه خوف أن تضيع منه إلى الأبد. وأخيراً، وبإيمان اليائس، أنقذ نفسه من هذه الحالة باعتقاده أن الرائحة قادمة من ضفة النهر الأخرى، من مكان ما من جهة الجنوب الشرقي.

حرر نفسه من جدار مبنى "بافيون دور فلور" وانخرط في الحشد البشري شاقاً طريقه عبر الجسر. كان يتوقف بين الفينة والأخرى، منتصباً على رؤوس أصابعه كي يتمكن من التقاط الرائحة من فوق الرؤوس. نتيجة لهيجانه لم يشم أول الأمر أي شيء، لكنه التقط أخيراً شيئاً ما، فتتبعه بأنفه. ولما كانت الرائحة الآن أقوى من السابق، تأكد غرنوي أنه يسير في الاتجاه الصحيح، فغاص في الحشد شاقاً طريقه بصعوبة بين المتسكعين وعمال الألعاب النارية الذين لم يتوقفوا عن رفع مشاعلهم إلى فتائل الصواريخ. وفي خضم دخان البارود اللاذع ضاع خيط الرائحة

الطيبة من غرنوي، فانتابه ذعر جعله يستخدم منكبيه وساقيه باحثاً عن طريق، وبعد دقائق لا نهاية لها، وصل إلى الضفة الأخرى، إلى "أوتيل دو ميي" و"مرسى مالا كيست"، إلى نهاية "شارع السين". توقف هنا، جمع ذاته، وشم. وصله خيط الرائحة فانقض عليه. كانت الرائحة أشبه بشريط ممتد بطول "شارع السين". محسوس وواضح، لكنها مازالت لطيفة بالغة الرقة. أحس غرنوي بنبض قلبه المتسارع وعرف أنه ليس نتيجة الجهد الذي بذله في الركض، وإنما بسبب عجزه المضني حيال هذه الرائحة. حاول أن يتذكر حالة مشابهة، لكن ذاكرته لم تسعفه بشيء. كان لهذه الرائحة خاصية منعشة، إلا أنها لم تكن لتشبه الليمون الحلو أو الكباد، ولا المرّ أو أغصان القرفة أو البتولا أو الكافور أو إبر الصنوبر، ولا مطر أيار / مايو أو ريح الجليد أو ماء النبع.. وفي الوقت نفسه كانت رائحة دافئة، ولكن ليس كدفء خشب الورد أو الزنبق الملون ذي الأوراق السيفية. هذه الرائحة كانت مزيجاً منهما معاً، من الخفيف والثقيل. لا، لم تكن مزيجاً، بل وحدة، فاترة وضعيفة، ورغم ذلك مركزة وراسخة كقطعة حرير هفهافة متلألئة.. لا، لم تكن كالحرير، وإنما كحليب بحلاوة العسل يتغلغل في مسام الكعك ويذيبه. ولكن كيف للطرفين أن يجتمعا: الحليب والحرير! إنها رائحة كاللغز، لا تخضع لوصف أو تصنيف بأي شكل أو طريقة. في واقع الأمر لا يجوز أن توجد رائحة كهذه، ومع ذلك فقد كانت ماثلة هناك في بداهتها الباهرة. تبع غرنوي أثرها بقلب يخفق فزعاً، فقد أدرك أنه ليس هو الذي يلاحقها، وإنما هي التي أوقعته في شباكها وأخذت تجذبه إليها دون أية مقاومة من جانبه.

صعد غرنوي "شارع السين"، فلم ير فيه أي إنسان، وكذلك كانت المنازل، خاوية وساكنة، فقد كان الناس هناك عند النهر في حفلة الألعاب

النارية. لم يكن ثمة ما يزعجه، لا رائحة البشر المحمومين بالاحتفال ولا رائحة البارود الكريهة اللاذعة. أما الشارع نفسه فقد كانت تفوح منه روائح معتادة، كرائحة المياه والغائط والجرذان وبقايا الخضار المستهلكة. ولكن فوق هذا كله كان يلوح في الهواء الشريط اللطيف الجلي الذي كان يقود غرنوي إلى مبتغاه. وبعد بضع خطوات كان ضوء السماء الليلي الخفيف قد ابتلعته المنازل الشاهقة، فتابع غرنوي طريقه في العتمة، لم يكن بحاجة للرؤية، لأن الرائحة كانت تقود خطاه بثقة.

بعد خمسين متراً انعطف نحو اليمين، باتجاه زقاق أشد عتمة، لا يتجاوز عرضه ذراع إنسان. والغريب هو أن الرائحة لم تشتد، بل أصبحت أكثر نقاء. وبنقائها المتزايد هذا أضحت جاذبيتها أقوى. كان غرنوي يسير دون إرادة، وعند بقعة محددة جذبته الرائحة بقوة نحو اليمين، لكأنما كانت تفوح عبر منتصف جدار سور المنزل. وفجأة ظهر ممر يؤدي إلى الباحة الخلفية متجاوزاً إحدى زوايا البناء، ليصل إلى باحة ثانية أصغر من الأولى، وهنا كان ثمة نور يضيء المكان الذي لم تتجاوز مساحته بضع خطوات طولاً وعرضاً والذي يغطيه سقف خشبي مائل ممتد من جدار البناء. وتحت السقف كانت هناك طاولة عليها شمعة مضاءة. وإلى هذه الطاولة جلست فتاة تنظف البرقوق الأصفر. كانت تتناول الثمار من سلة إلى يسارها لتقشرها وتنتزع بذورها بالسكين، لترميها من ثم في سطل بجانبها. لم تكن لتتجاوز الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها. جمد غرنوي في مكانه، مدركاً لتوه، أن نبع الرائحة التي شمها قبل نصف ميل، من ضفة النهر الأخرى، لم يكن هذه الباحة القذرة، ولا ثمار البرقوق. النبع كان الفتاة.

ولبرهة من الزمن كان غرنوي في حالة شديدة الاضطراب، إذ لم يسبق له في حياته أن رأى شيئاً يوازي جمال هذه الفتاة، علماً بأنه لم ير منها سوى ظلها من الخلف في ضوء الشمعة. إن ما عناه في الواقع هو أنه لم يسبق أن شم أجمل من هذه الرائحة. وبما أنه كان يعرف روائح البشر، الآلاف منها، كروائح الرجال والنساء والأطفال، فإنه لم يصدق أن الجسم البشري قادر على إصدار مثل هذه الرائحة المميزة الفاخرة، فرائحة الجسم البشري عادة، إما أن تكون بلا نكهة أو مقززة يابسة. روائح الأطفال تكون غير محددة، وروائح الرجال بولية ممتزجة برائحة التعرق اللاذعة والجبن، والنساء تفوح منهن رائحة الزنخ والسمك الفاسد. روائح البشر بصورة عامة كانت مملة ومنفرة.. وهكذا كانت هذه هي المرة الأولى في حياة غرنوي التي لم يثق فيها بأنفه، فاستعان بعينيه ليصدق ما شمه.

لم يدم اضطراب حواسه طويلاً. بل لم يلزمه في واقع الأمر أكثر من لحظة ليتأكد من الحالة بصرياً، وليستسلم من ثم دون أدنى مقاومة لمدركات حاسة شمه.

لقد شم الآن فقط انها بشر، شم عرق إبطيها ودهن شعرها ورائحة السمك المنبعثة من فرجها، وكان شمّه ممتعاً للغاية. فعرقها وجده منعشاً كريح البحر، ودهن شعرها كزيت الجوز، وفرجها كباقة من زنابق الماء، وجلدها كزهر المشمش...، وتركيب هذه العناصر مع بعضها أنتج عطراً، هو من الثراء والتوازن والسحر بحيث أن كل العطور التي سبق له أن شمّها وكل تراكيب الروائح التي ابتدعتها مخيلته بدت له فجأة خواء جافاً. مئات آلاف الروائح لم تعد تساوي شيئاً أمام هذه الرائحة بالذات.

هذه الرائحة بالتحديد كانت المبدأ الأعلى الذي يجب على الروائح الأخرى أن تصنف نفسها وفقه، قياساً إلى هذا المثال الذي كان الجمال النقي بعينه.

كان غرنوي متأكداً من أنه لم يكن لحياته معنى إن لم يمتلك هذه الرائحة الطيبة. كان لابد له من أن يتعرف عليها في أدق تفاصيلها وتفرعاتها، فذكراها المركبة وحدها لم تعد تكفي. أراد أن يدمغ هذا العطر الإلهي في فوضى روحه السوداء، أن يتفحصه بمنتهى الدقة وأن يكرس منذ الآن للتراكيب الداخلية لهذه الصيغة السحرية تفكيره وشمّه وحياته.

توجه نحو الفتاة ببطء، مقترباً أكثر فأكثر. تقدم تحت السقف وتوقف وراءها على مسافة خطوة واحدة. لم تسمعه.

كان شعرها أحمر، وثوبها رمادياً دون أكمام. كان ذراعاها بيضاوين ويداها مصفرتين من عصير البرقوق. وقف غرنوي منحنياً فوقها ممتصاً بأنفه شذاها الذي أصبح الآن نقياً لا شائبة فيه، شذاها المتصاعد من عنقها وشعرها وفتحة ثوبها، تاركاً إياه لينساب إلى داخله كهبة ريح رقيقة. لم يشعر بمثل هذه المتعة من قبل أبداً. أما الفتاة فقد سرت القشعريرة في جسمها.

لم تره بعينيها، لكن إحساساً بالرعب انتابها، واجتاحها زمهرير غريب، كذلك الذي يشعر به الإنسان حالما يعاوده رعب قديم منسي. أحست بتيار بارد يسري في ظهرها وكأن أحدهم قد فتح فجأة باب قبو هائل بارد. وضعت سكين المطبخ على الطاولة، ضمت ذراعيها إلى صدرها والتفتت.

تجمدت من الذعر عندما رأته وهو يمد يديه بهدوء ليحيط بهما عنقها. لم تحاول أن تصرخ أو أن تتحرك أو حتى أن تقاوم. أما هو فإنه لم ينظر إليها. لم ير وجهها الناعم الموشى بالنمش، ولا شفتيها الحمراوين، ولا عينيها الخضراوين الواسعتين المتلألئتين، فقد أغلق عينيه بإصرار وهو يخنقها، إذ لم يكن ثمة ما يقلقه سوى فقدان ولو ذرة واحدة من شذاها.

عندما ماتت وضع جسدها على الأرض وسط بذور البرقوق ثم مزق ثوبها، فاندفع تيار الرائحة ليجتاحه بشذاه. هجم بوجهه على بشرتها وأخذ يحركه بمنخريه المفتوحين على آخرهما متنقلاً من البطن إلى الصدر، صاعداً حول الوجه، متغلغلاً في الشعر، عائداً إلى البطن، هابطاً إلى فرجها ففخذيها، إلى ساقيها البيضاوين. تشممها من رأسها حتى قدميها، جامعاً آخر ما تبقى من عبقها عند الذقن والسرة وطية الساعد.

عندما انتهى من تشممها حتى الثمالة بقي لبرهة يدور حولها محاولاً استعادة ذاته المستغرقة فيها كلياً. لم يبغ أن يضيع منه شيء من عبقها، ولذا كان عليه أولاً أن يغلق مزاليجه الداخلية بإحكام. ثم نهض ونفخ الشمعة فأطفأها.

حينذاك كان أوائل العائدين قد وصلوا "شارع السين" وهم يغنون ويهتفون. في الظلمة تشمم غرنوي طريقه إلى الزقاق، ومنه إلى "شارع أوغسطين الصغير" الموازي "لشارع السين" الذي يؤدي إلى النهر. وبعد ذلك بقليل تم اكتشاف الجثة، فتعالى الصياح وأوقدت المشاعل واستدعيت دورية الحراس. أما غرنوي فقد كان على الضفة الأخرى للنهر.

في تلك الليلة بدا له مأواه التعيس كقصر، ومضجعه كسرير رباني.

في ذلك الحين لم يكن غرنوي في حياته قد عرف معنى السعادة بحيث جافاه النوم. وانتابه شعور بأنه يولد من جديد، لا بل للمرة الأولى، فحياته حتى الآن كانت لا أكثر من وجود حيواني غارق في ضباب كثيف يغلف معرفته بذاته. لكن هذا اليوم بالتحديد هو الذي جعله يدرك أخيرا هويته الحقيقية، أي أنه عبقري، لاريب في ذلك، وان لحياته معنى ومقصداً وهدفاً ومصيراً علوياً، هو ببساطة: تثوير عالم الروائح، وانه الوحيد في العالم الذي يمتلك الوسائل لتحقيق ذلك: أنفه ذو الحساسية المتميزة، ذاكرته الخارقة، والأهم من كل ذلك عبق فتاة "شارع دي ماريه" المدموغ في ذاكرته والذي كانت صيغته السحرية مشتملة على كل ما يحتاجه خلق رائحة رائعة، أي خلق عطر: الرقة، القوة، الدوام والجمال المتنوع المرعب الذي لا يقاوم. لقد وجد بوصلة حياته القادمة.

وكسائر العباقرة الحقيرين جميعاً الذين يؤدي حادث خارجي إلى مد سكة مستقيمة في فوضى أرواحهم اللولبية، لم يبتعد غرنوي قيد أنملة عن الاتجاه الذي اعتقد أنه سيوصله إلى مصيره. الآن فقط أدرك سبب مقاومته وتكالبه على الحياة: يجب أن يصبح مبدعاً للروائح الطيبة. لا مجرد مبدع كالآخرين، بل أعظم عطار على مر الدهور.

في الليلة ذاتها تفقد غرنوي أطلال ذاكرته، متابعاً حملته التفقدية حتى في نومه. تفحص ملايين وملايين عمارات الروائح، مرتباً ومصنفاً اياها: الطيبة إلى الطيبة، الرديئة إلى الرديئة، الفاخرة إلى الفاخرة، الثقيلة إلى الثقيلة، الفاسدة إلى الفاسدة والرائعة الخالدة إلى الرائعة الخالدة. خلال الأسبوع التالي أصبح الترتيب أكثر دقة، كما أصبح

مصنف الروائح الطيبة أكثر غنى وتنوعاً، كذلك صار تسلسلها أكثر وضوحاً. وسرعان ما أضحى قادراً على تشييد أولى عماراته حسب الخطة الموضوعة لها: المنازل، الأسوار، الأدراج، الأبراج، الأقبية، الغرف والحجرات السرية.. قلعة لأروع الروائح، تتوسع وتزداد دقة وجمالاً يوماً بعد يوم.

لم يبد غرنوي أدنى اهتمام بالجريمة التي بدأت بها رحلة الروعة هذه، وما كان ليفعل حتى لو وعاها. لقد نسي حتى شكل فتاة "شارع دي ماري". نسي وجهها وجسدها، إذ ان أفضل ما فيها محفوظ لديه وهو تحول إلى ملكيته: إنه مبدأ شذاها.

٩

في ذلك الزمن كان هناك في باريس ما ينوف على العشرة عطارين. نصفهم كان يعيش على ضفة النهر اليمنى، والنصف الآخر على الضفة اليسرى، وواحد منهم في الوسط تماماً، على "جسر بونت أو شانج" الذي يصل الضفة اليمنى بجزيرة مركز المدينة "إل دو لاسيتي". كان هذا الجسر مكتظاً على الجانبين بعمارات ذات أربعة طوابق تحجب عن المشاة رؤية النهر، بحيث يكاد يظن المرء أنه يسير في شارع عادي، راسخ، وفي منتهى الأناقة، فهو في الواقع من أهم المراكز التجارية في المدينة، بل ملتقى أشهر محلات الصياغ والصدافين والباروكات والمحافظ الجلدية والملابس الداخلية النسائية والجوارب والبراويط وجزمات رياضة الفروسية وكتافيات الضباط والأزرار الذهبية والبنوك. وهنا كان متجر ومعمل ومنزل العطار وصانع القفازات جوزيبه بالديني.

فوق واجهة المتجر انتصبت مظلة فاخرة مطلية باللون الأخضر، وإلى جانب الواجهة كانت هناك لوحة ذهبية تحمل شعار المحل بالذهب الخالص: قارورة ذهبية تنبثق منها باقة أزهار ذهبية. وأمام المدخل مدت سجادة حمراء تحمل أيضاً شعار بالديني مطرزاً بالذهب. عندما يدفع الإنسان الباب يصدح رنين أجراس فارسية وينبثق ماء البنفسج من منقاري زوج فضي من مالك الحزين ليصب في وعاء مذهب يحمل أيضاً شعار بالديني.

أما بالديني نفسه فكان يقف خلف المكتب المصنوع من خشب الزان الفاتح اللون، طاعناً في السن وجامداً كعمود أثري، ببزته الزرقاء الموشاة بالذهب وباروكته المغطاة بالبودرة الفضية. كان العطر الذي يرش نفسه به يومياً يتشكل حوله كغمامة تكاد أن تكون منظورة، تطغى على وجوده الشخصي لتغيبه في أبعاد ضبابية. أما جموده فكان يولّد لدى الزبون شعوراً بكون بالديني جزءاً من موجودات متجره. إذ لم يكن ليتحرك إلا عندما ترن الأجراس ويبصق طائرا مالك الحزين - وقلما حدث هذا - في مثل هذه الحالة كانت تدب فيه الحياة فجأة، فيتخلص من يباسه لتسري في جسده الطراوة والحيوية ولينحني مراراً مندفعاً بسرعة من وراء مكتبه، بحيث تكاد غمامة عطره ألا تلحق به، راجياً الزبون أن يجلس لكي يعرض عليه أفخر ما لديه من الروائح ومواد التجميل.

وكان لديه الآلاف منها، بدءاً بأنواع روح الأزهار والأعشاب النقي أو الزيوت والأصبغة وخلاصات الغدد، والمراهم وأنواع الراتينج وسائر العقاقير الأخرى المجففة والسائلة والشمعية، إلى مختلف أنواع الدهون والمعجون والبودرة والصابون والكريم وأكياس المساحيق الصغيرة

والبريانطين وشمع الشوارب واللحى ونقطة الخال ولصقات التجميل، إلى السوائل الخاصة بالحمّام ومعالجة الوجه والأملاح العطرة ومزيل طلاء الوجه، هذا إلى جانب ما لا يحصى من العطور الأصيلة. إلا أن بالديني لم يكن ليكتفي بمنتوجات التجميل التقليدية هذه، فقد دفعه ولعه بالتفوق على المتاجر الأخرى إلى جمع كل ما له علاقة بالروائح الطيبة تحت سقفه. وهكذا كان يجد الزبون عنده كل ما يُصدر دخاناً ذا رائحة طيبة، إلى جانب كافة البهارات من اليانسون حتى القرفة، والشربات المعسّلة والليكور وماء الزهر والورد والفواكه المجففة والمحشوة، والتين والسكاكر والشكولاته وجوز الهند ومخلل الكبَر والخيار والبصل، وسمك التونا المملح، ثم شمع ختم الرسائل المعطر وورق الرسائل المعطر وحبر الحب الذي يفوح برائحة زيت الورد ومحافظ الرسائل ذات الجلد الاسباني وريش الكتابة المصنوعة من خشب الصندل الأبيض والعلب والصناديق المصنوعة من خشب الأرز والتي تصدر عن بعضها منوعات موسيقية، ثم صحف أزهار الزينة وطاسات البخور النحاسية ومختلف القوارير الكريستالية ذات السدادات الكهرمانية إلى جانب القفازات العابقة والمناديل ووسائد أبر الخياطة المحشوة بزهر جوز الطيب وورق الجدران المطيب بالمسك والذي يفوح أريجه في الغرف لأكثر من قرن.

من الطبيعي أنه لم يكن هناك متسع لكل هذه البضائع في المحل الفاخر المطل على الشارع (أو على الجسر). وبما أنه لم يكن ثمة قبو في هذه الأبنية فقد كان من الضروري استخدام المستودع والطابق الأول بأكمله ومعظم غرف الطابق الثاني المطلة على النهر كمخازن، فكانت النتيجة أن سادت في منزل بالديني فوضى روائح لا يحيط بها وصف.

رغم أن كل جزء من بضائعه كان من أفخر الأنواع - إذ لم يكن بالديني ليشتري إلا أفخرها - إلا أن اختلاط روائحها كان غير محتمل على الإطلاق، تماماً كمن يستمع إلى أوركسترا من ألف عازف، يعزف كل منهم لحنه الخاص، وبأعلى طبقة ممكنة. بالديني نفسه ومعاونوه كانوا قد اعتادوا على هذه الفوضى، كقواد فرق الأوركسترا المتقدمين في السن باتجاه الشيخوخة والمصابين - كما هو معروف - بثقل السمع دون استثناء. حتى زوجته التي كانت تسكن الطابق الثالث مدافعة عنه بصلابة ومشقة ضد تمدد مساحة المستودعات لم تعد تنزعج من كثرة الروائح. أما الزبون الذي يدخل محل بالديني للمرة الأولى فحاله مختلف، لأنه كان يتلقى خليط الروائح هذا كلكمة في وجهه، وهي - حسب بنيته - إما أن تثيره حتى التهيج أو أن تدوخه وتتركه مضطرباً، لكنها على أية حال كانت تنسيه سبب قدومه. السعاة كانوا ينسون طلباتهم، والسادة من ذوي النزعة الهجومية كانوا يتلعثمون. أما السيدات فغالباً ما كن يصبن بحالة هيستيرية تماثل الخوف من الأماكن المغلقة فيغشى عليهن، ولا يستعدن وعيهن إلا باستنشاقهن ملحاً بالغ التأثير، من زيت القرنفل والأمونياك وروح الكافور.

وفي ظروف كهذه لم يعد عجيباً في محل بالديني أن تصبح رنات الأجراس الفارسية وبصقات مالك الحزين نادرة فأكثر ندرة.

١٠

"شينييه!" نادى بالديني من وراء مكتبه حيث كان يقف لساعات محملقاً باتجاه الباب، متجمداً كعمود. "إلبس باروكتك!" ومن بين براميل الزيتون ولحم الخنزير المقدد المعلق تقدم شينييه معاون بالديني

باتجاه الجزء الفاخر من المحل. كان شينييه متقدماً في السن، وليس مثل معلمه بالديني. أخرج الباروكة من جيب سترته، ضغطها على رأسه وهو يقول: "هل ستخرج مسيو بالديني؟".

"لا" أجاب بالديني وأضاف: "بل سأنسحب إلى غرفة عملي، وأرجو أن لا يزعجني أحد نهائياً".

"فهمت. أنت تعمل على ابتكار عطر جديد".

بالديني: هكذا هو الأمر. عطر لتطييب جلد إسباني للدوق فيرامون. إنه يبغي شيئاً جديداً. يطلب شيئاً شبيهاً بـ.. بـ.. أعتقد أن اسمه هو "الحب والروح". ويقال إنه نتاج هذا الـ.. هذا الجاهل غير الكفء الذي يعمل في شارع "سان أندريه دي زارت"، ما اسمه هذا الـ.. ما اسمه..؟

شينيه: بيليسييه.

بالديني: نعم. بيليسييه. صحيح. هذا هو اسم هذا الجاهل غير الكفء. الحب والروح من صنع بيليسييه. - هل تعرفه؟

شينييه: طبعاً، بالتأكيد. فرائحته منتشرة في كل مكان الآن. في كل شارع. ولكن إن كنت تسألني عن رأيي.. فهو عادي. ولاشك أنه لن يصمد، ولا بشكل من الأشكال أمام الذي ستبتكره أنت مسيو بالديني!

بالديني: طبعاً لا.

شينييه: رائحته عادية جداً هذا الـ "الحب والروح".

بالديني: مبتذلة؟

شينييه: جداً، ككل الأشياء الأخرى التي ينتجها بيليسييه. اعتقد أن في تركيبه شيئاً من زيت الليمون الحلو.

بالديني: حقاً؟ وغيره؟

شينييه: ربما روح زهرة البرتقال. وربما صبغة زهرة ندى البحر. لكني لست متأكداً.

بالديني: وما الذي يهمني من هذا؟ لا شيء.

شينييه: طبعاً.

بالديني: ما خلطه بيليسييه من مواد في عطره لا يهمني في شيء أبداً. لن أسمح له حتى أن يلهمني!

شينييه: معك حق، مسيو.

بالديني: أنت تعرف أني لا أستلهم أحداً. وأنت تعرف أني أبتكر ـطوري بنفسي.

شينييه: أعرف، مسيو.

بالديني: أستولدها من ذاتي.

شينييه: أعرف.

بالديني: وفيما يخص الدرق فيرامون أنوي أن أبتكر شيئاً سيكون ـط الأنظار.

شينييه: أنا متأكد من هذا تماماً مسيو بالديني.

بالديني: خذ مكاني في المحل الآن. سأذهب لأرتاح. ولا تدع أحداً ـجني يا شينييه!

مع هذه الكلمات جر بالديني ساقيه متثاقلاً كعجوز، محني الظهر المجلود وصعد الدرج ببطء إلى غرفته في الطابق الأول.

أخذ شينييه مكانه وراء المكتب، بالطريقة نفسها التي كان يقف ـها معلمه، وحملق باتجاه الباب. كان يعرف ما الذي سيحدث خلال

الساعات القادمة: في المحل، لا شيء على الإطلاق. وفوق، في غرفة عمل بالديني، الكارثة المعتادة. سيخلع بالديني بزته الزرقاء المضمخة بالعطر وسيجلس إلى مكتبه منتظراً الوحي الذي لن يأتي. ونتيجة لذلك سيهرع نحو الخزانة المترعة بمئات قوارير الاختبار الصغيرة ليخلط المواد ببعضها، لا على التعيين. المزيج سيخيب، وبالديني سيهدر باللعنات ثم سيفتح النافذة بشدة ويلقي المزيج في النهر. سيجرب شيئاً آخر. وهذا أيضاً سيخيب. عندئذ سينفجر بالديني بالصراخ في الغرفة المترعة بالروائح المخدرة، مما سيؤدي إلى إصابته بتشنج عوائي. وعند السابعة مساء سيهبط إلى المحل بائساً خائباً وهو يرتجف ويبكي، ليقول: "شينييه، لقد فقدت حاسة الشم. لم أعد قادراً على ابتكار العطر. لن أتمكن من تسليم الجلد الأسباني للدوق. لقد ضعت. أنا ميت من الداخل، أريد أن أموت. أرجوك شينييه، ساعدني على الموت!". وسيقترح شينييه إرسال من يحضر زجاجة من عطر "الحب والروح" من متجر بيليسييه، وسيوافق بالديني بشرط ألا يعلم مخلوق بهذا العار، وسيقسم شينييه على ذلك. وخلال الليل سيقومان معاً بكل سرية بتعطير جلد الدوق فيرامون بالعطر الغريب. هكذا سيكون الأمر، وليس على نحو آخر. وتمنى شينييه أن تنتهي هذه المسرحية بأسرع ما يمكن. لم يعد بالديني عطاراً عظيماً كسابق عهده. في شبابه قبل ثلاثين أو أربعين عاماً ابتكر "وردة الجنوب" و"زهرة نبيذ بالديني المحبوبة"، وكانا حقاً عطرين رائعين، شكلا مصدر ثروته. أما الآن فقد أصبح عجوزاً مستهلكاً، لا يعرف موضة العطر ولا ذوق الناس الجديد. وعندما توصل فيما بعد، في حالات نادرة، إلى خلط رائحة جديدة، كانت النتيجة

خارج الموضة السائدة، بضاعة لا شاري لها، فيضطر بعد مرور سنة على إنتاجها إلى تخفيف كثافتها إلى العشر، بحيث يمكن أن تباع بشكل ما، كمادة معطرة لنوافير برك المنازل. إنه لأمر مؤسف، فكر شينييه وهو يتفحص وضع باروكته في المرآة. إن وضع بالديني الحالي يدعو للأسف، وكذلك وضع هذا المتجر الجميل، ووضعي أنا بالذات. فلاشك أن بالديني سيقود المتجر إلى الخراب. وحتى ذلك الحين سأكون قد شخت، بحيث ستفوتني إمكانية تسلمه منه.

١١

لقد خلع بالديني بزته المعطرة، إلا أن فعله هذا لم يكن إلا بحكم العادة القديمة. وعطر بزته الذي استخدمه وحمله معه لسنوات وسنوات لم يعد يزعجه، لأنه ما عاد يشمه مطلقاً. لقد أغلق أيضاً أبواب غرفة عمله، راجياً ومتأملاً أن يحصل على الراحة، لكنه لم يجلس إلى مكتبه ليفكر منتظراً وحياً ما، لأنه كان أفضل علماً من شينييه بأن الوحي لن يهبط عليه، إذ لم يسبق أن جاءه الوحي في أي وقت من الأوقات. صحيح أنه قد شاخ واستهلك ولم يعد عطاراً عظيماً، هذا كله حق، إلا أنه كان مقتنعاً بأنه لم يكن عطاراً عظيماً. فـ "وردة الجنوب" ورثها عن أبيه، ووصفة "زهرة نبيذ بالديني المحبوبة" اشتراها من بائع بهارات متجول قادم من جنوا. أما عطوره الأخرى فقد كانت مركبات روائح معروفة من دهور سلفت. لم يسبق له أن ابتكر أي شيء. لم يكن مبتكراً، بل كان رجلاً دقيقاً في تحضيره لروائح طيبة معروفة ومطلوبة. مثل طباخ ينجز عمله روتينياً، مستعيناً بوصفات جيدة ليحضر مأدبة

عظيمة، دون أن يبتكر أي صنف خاص به. وهو لم يلجأ إلى شعوذة المخبر والتجارب والوحي وسرية العمل إلا لأنها كانت صورة مهنية ملازمة لمظهر كل معلم عطار ذي مكانة. فالعطار كان نصف كيميائي، يجترح المعجزات. هكذا أراده الناس أن يكون - حسن إذن، ليكن! أما أن فنه لم يكن سوى حرفة كسائر الحرف الأخرى، فهذا ما لم يعلمه أحد سواه، وهذا كان فخره. لم يبغ أن يكون مبتكراً. فالابتكار بالنسبة له كان مسألة مشكوكاً بأمرها، لأنها تعني دائماً خرق قاعدة ما. ولم يخطر بباله لحظة أن يبتكر عطراً جديداً للدوق فيرامون. وفي الوقت نفسه لن يسمح لنفسه مساء بأن يقنعه شينييه بتأمين عينة من "الحب والروح" من متجر بيليسييه. فالعينة كانت عنده منذ الآن. كانت هناك على المكتب، أمام النافذة، في قارورة زجاجية صغيرة بسدادة مصقولة. لقد اشتراها قبل بضعة أيام، ليس بنفسه طبعاً، إذ ليس من المعقول أن يذهب بشخصه إلى متجر بيليسييه ليشتري عطراً. بل اشتراه عبر وسيط لوسيط آخر.. الحذر مطلوب. لم يكن بنية بالديني استخدام العطر من أجل تحضير الجلد الأسباني للدوق فيرامون فحسب، فالكمية التي اشتراها لا تكفي لذلك. لقد ذهبت نيته إلى حد أسوأ من هذا: أراد أن ينتج نسخة من هذا العطر. لم يكن هذا على أية حال أمراً ممنوعاً، لكنه لم يكن لائقاً أبداً. فتقليد عطر تاجر منافس وبيعه باسمك الشخصي كان أمراً غير محترم على الإطلاق. وما كان يستدعي التحقير هو أن تضبط متلبساً، ولهذا كان من الضروري إخفاء الأمر عن شينييه الثرثار.

يا لبؤس أن يضطر إنسان محترم إلى استخدام مثل هذه الأساليب الملتوية! يا لبؤس أن يلطخ الإنسان أثمن ما يملك، شرفه، بهذه الطريقة

الرخيصة! ولكن ما الذي كان بوسعه أن يفعل؟ فالدوق فيرامون كان على أية حال زبوناً لا يجوز أن يخسره مهما كان الأمر. وزبائنه ما كانوا ليزيدوا عنه بكثير أو قليل فكان مضطراً للركض وراء الزبائن كسابق عهده في مطلع العشرينيات، حين كان في بداية سلم مهنته يجوب الشوارع بصندوقه المحمول على بطنه. ويعلم الله أن جوزيه بالديني صاحب أكبر محلات عطورات في باريس، وفي أفضل مكان فيها، كان بالكاد يدبر أموره مالياً وهو يدور بحقيبة يده الصغيرة من منزل إلى منزل مروجاً لبضاعته. وما كان هذا ليرضيه أو يعجبه أبداً، فقد تجاوز الستين، وكان يكره أن ينتظر في الغرف الصغيرة الباردة ليعرض على هذا المركيز العجوز أو ذاك ألف نوع من ماء الورد أو الزهر أو خل اللصوص الأربعة أو أن يبلفه بدهن لآلام الشقيقة. بالإضافة إلى أن المنافسة في هذه الغرف الصغيرة كانت مقرفة. إذ كان هناك، مثلاً، هذا التاجر المستجد، برؤيِه من "شارع دوفين" الذي كان يزعم امتلاك أكبر عرض لعينات الدهون في أوربا بأسرها، أو كالتو من "شارع موكونسيل" الذي توصل إلى أن يصبح مصدر البضائع الوحيد لقصر الكونتيسه أرتوا، أو انطوان بيليسييه الذي لا يؤمن جانبه، القادم من "شارع سان أندريه ديزارت" والذي ينزل إلى السوق مع كل فصل عطراً جديداً يخلب ألباب الجميع.

ومع كل عطر جديد من عطور بيليسييه كان توازن السوق كله يختل. فعندما يكون الماء الهنغاري موضة السنة، وبالديني قد خزّن ما يكفيه من زهر الخزامى والنارنج وندى البحر كي يغطي طلبات الموضة، يظهر بيليسييه بعطر "نغمة المسك" البالغ الثقل، بحيث تفوح من المتعطر

به رائحة حيوانية لا تحتمل، ومع ذلك يتدافع الجميع لاقتنائه، مما يضطر بالديني إلى تحويل ندى البحر إلى ماء للشعر والخزامى إلى أكياس عطرية صغيرة. وإن جهز نفسه للعام القادم بتخزين كميات كافية من المسك والزبّاد وخلاصة القندس، يتدخل بيليسييه بابتكاره عطراً باسم "زهرة الغابة" يكتسح السوق. وأخيراً، بعد ليال طويلة من التجريب والاختبار وكثير من الرشاوي يكون بالديني قد توصل إلى معرفة تركيب "زهرة الغابة"، فإذا بيليسييه يفاجئه مجدداً بعطر "الليالي التركية" أو "أريج لشبونة" أو "باقة الحب"، أو بما لا يعلم به إلا الشيطان. على أية حال كان هذا الرجل بطاقته الإبداعية التي لا حد لها يشكل خطراً على الحرفة كلها بحيث كاد أن يطالب العاملون فيها بإعادة النظر في قوانينها التي لم تعد تناسب الظروف الحالية، بل كادوا أن يطالبوا بتطبيق أقصى العقوبات بحق هذا الخارج على أعرافهم والذي سيؤدي بصناعة العطور إلى حالة تضخم. ولذا لابد من سحب رخصة العمل منه، علماً بأن منعه من مزاولة العمل يعتبر إجراء في غاية الرحمة.. كما لابد لهذا الرجل من أن يعود تلميذاً كي يتعلم أصول الحرفة على الأقل. فبيليسييه هذا لم يكن معلماً، لا في حرفة العطارة، ولا في صناعة القفازات. فوالده لم يكن أكثر من مراقب لعملية غلي الخل، وبيليسييه نفسه لم يكن غير ذلك. وبحكم مهنته هذه كان يحق له استخدام المواد الكحولية، وعن طريقها فقط تمكن من اقتحام مهنة العطارين كي يعبث فيها فساداً بروائحه الكريهة. ما حاجة الإنسان لعطر جديد في كل فصل؟ هل هذا ضروري؟ في الماضي كان الجمهور قانعاً تماماً بماء البنفسج وبمركب عطر الأزهار البسيط الذي قد يُجري عليه المرء تعديلاً

طفيفاً كل عشر سنوات. وعلى مدى آلاف السنوات كان البشر مكتفين بالبخور والمرّ وبعض أنواع البلسم والزيوت ونباتات البهارات المجففة. وحتى عندما تعلموا التقطير باستخدام الدوارق والأنابيق بحيث تمكنوا بواسطة بخار الماء في معالجة الأعشاب والزهور والأخشاب من استخلاص مبدأ الرائحة على شكل زيت أثيري، أو عن طريق ضغط البذور والحبوب وقشور الفاكهة عبر عصارات من خشب البلوط، أو بالترشيح المتأني للدهون، كان عدد العطور متواضعاً. في تلك الأزمان ما كان ممكناً أن يوجد شخص مثل بيليسييه.

فاستخراج أبسط أنواع الدهون كان يتطلب آنذاك قدرات لا تخطر ببال بيليسييه، خالط الخل هذا، ولا حتى في منامه. إذ لم يكن كافياً أن يتقن المرء عملية التقطير، بل لابد أن يكون إلى جانب ذلك صيدلانياً وصانع مراهم وخيميائياً وحرفياً وتاجراً، ومختصاً في العلوم الإنسانية وبستانياً في الوقت نفسه. كان عليه أن يميز بين شحم الخراف وشحم البقر، وبين بنفسج فيكتوريا وبنفسج بارما، كما كان ضرورياً أن يتقن اللغة اللاتينية. وكان عليه أن يعرف متى يحصد دوار الشمس ومتى تزهر البيلارجونيا، وأن الياسمين يفقد عبقه عند شروق الشمس.. وبديهي أن بيليسييه كان جاهلاً بهذه الأمور، إذ يبدو أنه لم يغادر باريس في حياته، وبالتالي فهو لم ير نبتة الياسمين المزهرة أبداً. وكيف سيكون الأمر إذا تطرقنا إلى الجهد الهائل المبذول بهدف استخراج كتلة ضئيلة من فئة ألف زهرة ياسمين أو بضع قطرات من روحها الخالص! ربما لم يكن بيليسييه يعرف من الياسمين سوى السائل الكثيف ذي اللون البني القاتم، الموجود في قارورة صغيرة إلى جانب العديد من القوارير

الأخرى التي يمزج منها عطر موضته. لا، ما كان لشخص مغتر بنفسه كهذا أن يجد لنفسه موطئ قدم على أرض الحرفة في ذلك الزمن الغابر المجيد، إذ أن كل مقومات ذلك كانت تنقصه: الشخصية، الثقافة، القناعة والإحساس بالخضوع المراتبي في هرم الحرفة. أما نجاحاته العطرية فإنه يدين بالشكر فيها لشخص واحد فحسب، للعبقري ماوريتشيوس فرانجيباني - وهو بالمناسبة إيطالي - الذي اكتشف قبل قرنين من الزمن أن المواد ذات الروائح الطيبة قابلة للانحلال في الكحول. فبمزج فرانجيباني للمساحيق العطرة بالكحول، أي بنقله خاصيتها العطرية إلى سائل طيار تمكن من تحريرها من المادة واعتاق روحها، أي تمكن باختصار من خلق العطر. ويا له من عمل! يا له من إنجاز دهري! وهو حقاً لا يقارن إلا بأعظم منجزات الجنس البشري كاختراع الآشوريين للكتابة، وهندسة اقليدس، وأفكار أفلاطون، وتحويل الإغريق العنب إلى خمر. إنه عمل بروميثيوسي بكل معنى الكلمة!

وكسائر الأعمال العقلية العظيمة التي قد تنير أو قد تظلم طريق البشر، لم يكن لاكتشاف فرانجيباني العظيم جوانبه الخيرة فحسب، بل المنغّصة والمسيئة أيضاً. فما كاد أن يتعلم المرء كيفية أسر روح الأزهار والأعشاب والأخشاب والأصماغ وخلاصات المنويات الحيوانية في صبْغات، وملء القوارير الصغيرة بها، حتى تسرّب فن العطارة بالتدريج من أيدي قلة من كبار الخبراء الحرفيين ذوي السمعة الكونية إلى أيدي المشعوذين الذين يمتلكون أنوفاً بالكاد تمتاز برهافتها، كهذا الحيوان الفسّاء المدعو بيليسييه الذي لم يكن ليبدي أدنى اهتمام بالكيفية التي خلقت بها المحتويات الرائعة التي تملأ قواريره الصغيرة، وإنما تبعاً لمزاجه الشميّ يمزج منها على هواه، أو حسب رغبة الناس.

لاشك في أن ابن الحرام بيليسييه هذا بسنواته الخمسة والثلاثين يمتلك الآن ثروة أكبر من ثروة بالديني الذي لم يتوصل إلى جمعها إلا مؤخراً، وبكد عرق جبينه. وفي حين تزداد ثروة بيليسييه يوماً فيوم، كانت تضمر ثروة بالديني يومياً. لم يكن مثل هذا الأمر في سابق الأيام ممكناً أبداً! فقط منذ عقود قليلة، منذ اندلاع حمى التجديد والإقبال على الأعمال دون أي رادع، وجنون التجريب والتسلق نحو العظمة في كل مكان في كافة المجالات، في التجارة والتداول المالي والعلوم، منذئذ أصبح حتى الحرفي المرموق والتاجر المحترم مضطراً للكفاح في سبيل تأمين لقمة عيشه.

وما جنون السرعة هذا! ما حاجة الإنسان إلى كل هذه الشوارع الجديدة التي تشق في كل مكان، وإلى كل هذه الجسور الجديدة؟ لأي غرض؟ هل ثمة فائدة من أن يصل المرء إلى ليون خلال أسبوع؟ من هو المستفيد من ذلك؟ ومن الذي سيأبه لذلك؟ وما جدوى أن تسرع كالمجنون في عبور الأطلسي لتصل أمريكا في ظرف شهر؟ ألم يكن البشر بكل خير ولآلاف السنوات دون هذه القارة! عما يبحث الإنسان المتحضر في غابات الهنود العذراء أو عند الزنوج؟! لقد وصلوا حتى إلى لابلاند. هناك في الشمال، في الجليد الأبدي حيث يعيش بشر متوحشون يفترسون السمك النيئ. كما أرادوا اكتشاف قارة أخرى يقال انها تقع في مكان ما من بحر الجنوب الذي لا يعلم إلا الله أين يقع! ما سبب هذا الجنون؟ فقط لأن الآخرين يفعلون هذا أيضاً، الأسبان والإنكليز والمأفونون والهولنديون الوقحون. لسبب كهذا سيضطر المرء لمحاربتهم، وهذا ما لا طاقة لنا عليه إطلاقاً. السفينة الحربية تكلف لا أقل من ثلاثمئة ألف [illegible]، لتغرق إلى الأبد خلال خمس دقائق، وبطلقة مدفع واحدة، وثمنها

سيدفع من أموال ضرائبنا. والسيد وزير المالية يطالبنا مؤخراً بعشر الدخل، وهذا مدمر حتى إن لم يدفع الإنسان المبلغ، لأن العقلية كلها في حد ذاتها مهلكة.

إن تعاسة الإنسان تنتج من كونه لا يريد أن يقبع ساكناً في غرفته، هناك حيث يجب أن يبقى. هكذا يقول باسكال. لكن باسكال كان رجلاً عظيماً، مثل فرانجيباني ولكن على صعيد الفكر، كان حرفياً في واقع الأمر. إلا أن أمثال هؤلاء ما عادوا مرغوبين اليوم. فاليوم أصبح الناس يقرأون كتباً تحريضية للهوغنوت والإنكليز. أو يكتبون بحوثاً موجزة أو دراسات علمية مطولة يشككون فيها بكل شيء مهما كان، زاعمين أنه لم يعد ثمة ما هو صحيح، وبناء عليه يجب على كل شيء أن يتغير. وهم يزعمون مؤخراً أن في كأس الماء حيوانات متناهية في الدقة تسبح بحرية ولم يسبق للإنسان رؤيتها، وان الزهري مرض عادي وليس عقوبة ربانية، وأن الرب لم يخلق العالم في سبعة أيام، وإنما خلال ملايين السنين، هذا إن كان هو الذي فعلها حقاً، وان المتوحشين أناس مثلنا، وأن تربيتنا لأطفالنا مغلوطة، وأن الأرض ليست كروية كما كنا نعتقد حتى الآن، بل هي مسطحة من الأعلى والأسفل كالبطيخة، وكأن في هذا ما يهم أحداً! إنهم يسألون وينقبون ويبحثون ويتجسسون ويجربون على كل صعيد. لم يعد يكفي أن يقول المرء أن هذا هو كذا وآن يصفه، بل أصبح من الضروري الآن البرهنة على كل شيء، ويفضل أن يكون ذلك بالشهود والأرقام، وبنوع من التجارب السخيفة. إن ديدرو ودلامبير وفولتير وروسو وغيرهم من الكتبة - حتى ان من بينهم بعض رجال الدين والنبلاء - قد تمكنوا، لاشك في ذلك أبداً، من نقل اضطرابهم

الذاتي الغادر، ومتعتهم بعدم الرضا عن أي شيء وعدم الاكتفاء بأي شيء مهما كان، أي باختصار نقل الفوضى التي لا حدود لها والتي تعشش في رؤوسهم إلى المجتمع كله!

حيثما كان يلتفت المرء حوله، كانت الفوضى المجنونة مهيمنة. الناس يقرأون الكتب، بل حتى النساء. والقساوسة يترددون على المقاهي. وإن تدخلت الشرطة ذات مرة وسجنت أحد هؤلاء الأفاقين الكبار، بدأ الناشرون بالعويل وبتقديم طلبات الاسترحام، وإذا بكبار الشخصيات، رجالاً ونساء، تتدخل في الموضوع، ليتم الإفراج عنه خلال أسابيع قليلة، أو ليسمح له بمغادرة الوطن إلى الخارج حيث يستمر بنشر كتاباته الاستفزازية المخجلة. حتى دردشة الصالونات لم يعد موضوعها سوى مسارات المذنبات والحملات الاستكشافية، والقوة الرافعة ونيوتن، وبناء القنال والدورة الدموية وطول قطر الكرة الأرضية.

حتى الملك نفسه سمح بأن يقدم أمامه عرض مجنون حسب الموضة السائدة لنوع من البرق الاصطناعي يسمى الكهرباء: على مرأى أفراد الحاشية كلها فرك رجل سطح زجاجة فصدرت شرارة، ويقال إن الملك كان بالغ الاهتمام. لو كان جده الأول، لويس العظيم الذي كان من حظ بالديني أن يعاصر فترة حكمه الزاهرة لسنوات طويلة، لو كان حياً، هل كان سيسمح بمثل هذا العرض التافه أمام ناظريه! لكن هذه هي روح هذا العصر الجديد، ولا شك أن العاقبة على الصعد كافة ستكون وخيمة!

وعندما يشكك الإنسان دونى أدنى خجل بسلطة الله والكنيسة، وعندما يلوك الإنسان سمعته الملكية التي أقرها الرب، وشخصية الملك المقدسة، وكأن الأمور قابلة بكل بساطة للتبديل، كما الصور في الألبوم،

بحيث يختار المرء حسب مشيئته، وعندما يصل الأمر بالإنسان أخيراً إلى حد الزعم بإمكانية الاستغناء عن الرب الكلي القدرة في كل ما يتعلق بالنظام والأخلاق والسعادة على الأرض، واعتبار هذه، وبمنتهى الجدية صادرة عن الأخلاق الفطرية والعقل الفطري للبشر.. معاذ الله، معاذ الله! عندما تصل الأمور إلى هذا الحد، لا حاجة للمرء أن يتعجب من انقلاب كل شيء رأساً على عقب، ومن تدهور الأخلاق إلى ما لا حد له ومن أن يوم الحساب الذي أنكروه آت لا محالة. وخيمة ستكون العاقبة. إن مذنّب عام ١٦٨١ العظيم الذي سخروا منه ووصفوه بأنه مجرد كومة من النجوم، لم يكن سوى إنذار رباني مسبق - والجميع يعرف الآن ذلك - محذراً من القرن القادم، قرن التحلل والتفسخ والتردي الفكري والسياسي والديني الذي سببته البشرية لنفسها والذي ستغرق فيه تحت بريق وزيف بعض أزهار المستنقعات، من أمثال بيليسييه!

وقف بالديني العجوز عند النافذة ماداً بصره باتجاه الشمس المائلة فوق النهر بنظرة ملؤها الحقد. تحته ظهرت سفن الشحن منسابة بهدوء نحو الغرب باتجاه جسر "نوف" والمرسى الواقع قبل أروقة "اللوفر". ليس ثمة من يبحر هنا بعكس التيار، ومن ابتغى ذلك كان عليه أخذ فرع النهر الذي يمر بالجانب الآخر من الجزيرة. أما هنا فكل شيء يسري مغادراً، السفن الممتلئة والأخرى الفارغة، قوارب التجديف وقوارب الصيادين العريضة، الماء البني القذر والآخر الذهبي المتموج، كل شيء يجري بعيداً، بهدوء، وباستمرارية حتمية. وعندما خفض بالديني نظره موجهاً عينيه بزاوية حادة على طول جدار المنزل أحس وكأن مياه التيار المندفع تبتلع أسس الجسر، فداخ.

شراء هذا البيت على الجسر كان غلطة، بل غلطة مضاعفة، لكونه

على الجانب الغربي منه، إذ لم يكن أمام ناظريه من هذا الموقع سوى التيار المندفع المغادر. وأحس بالديني بأنه هو وبيته وثروته التي جمعها خلال عشرات السنوات ينجرف مع النهر، وبأنه قد بلغ من العجز والضعف حداً لن يستطيع معه مقاومة هذا التيار الرهيب. أحياناً، عندما كان لديه ما ينجزه على الضفة اليسرى، في المنطقة المحيطة بالسوربون أو في "سان سوبليس" كان يتعمد أن لا يعبر الجزيرة وجسر "سان ميشيل" بل كان يأخذ الطريق الأطول فوق جسر "نوف" الذي لم يكن معموراً بعد. وكان يقف حينئذ على الحاجز الأيمن لينظر إلى النهر صعداً، لكي يرى كل شيء، ولو لمرة واحدة، مندفعاً باتجاهه، وللحظات قصيرة فقط كان يترك لخياله العنان ليتصور أن اتجاه حياته قد انعكس وان تجارته تزدهر وعائلته تنمو والنساء يتهافتن من حوله، وان ثروته تزداد وتزداد بدل أن تنضب.

ولكن ما كان بالديني ليرفع نظره قليلاً حتى يرى بيته على مسافة بضعة مئات من الأمتار، على جسر "أوشانج"، مرتفعاً ونحيلاً لدرجة الوهن، وليرى نافذة غرفة عمله في الطابق الأول، وليرى نفسه، كما الآن، واقفاً هناك باتجاه النهر، مراقباً مياه النهر المندفعة بعيداً عنه. وبهذا كان الحلم الجميل يتبخر، ليلتفت بالديني الواقف على جسر "نوف" أشد انكساراً من من قبل، منكسراً كالآن وهو يغادر النافذة ليجلس إلى طاولته.

١٢

كانت قارورة عطر بيليسييه منتصبة أمامه، والسائل البني الذهبي تتلألأ في نور الشمس صافياً دون عكر. بدا بريئاً كالشاي الفاتح اللون، مع ذلك فقد كان يحتوي إلى جانب أربعة أخماسه من الكحول على

خْمسٍ من مزيج غامض قادر على إثارة مدينة بأكملها. وهذا المزيج قد يشتمل على ثلاثة أو على ثلاثين مادة مختلفة مركبة مع بعضها وفق معدلات ونسب محددة، وباحتمالات لا تحصى. إن روح العطر التي لابد من التوصل إلى معرفة تركيبها، هذا إن جاز الحديث عن الروح عندما يتعلق الأمر بعطر من منتجات هذا المتلاعب البارد بيليسييه.

نظف بالديني أنفه بدقة، وأرخى ستائر النوافذ، فنور الشمس المباشر يُذهب رائحة أي مادة ويفسد أي سائل مركز ذي رائحة شذية. أخرج من درج الطاولة منديلاً أبيض مطرزاً نظيفاً وفرده، ثم أدار سدادة القارورة قليلاً ورفعها. خلال ذلك أبقى بالديني رأسه بعيداً وفتحتي أنفه مضغوطتين، كي يتجنب أي انطباع متسرع ناتج عن رائحة القارورة مباشرة. فالعطر يجب أن يشم في حالة انتشاره مع الهواء، وليس كمحلول مركز أبداً. نثر بضع قطرات على المنديل، ثم حرك المنديل عبر الهواء ليطرد الكحول وقربه من أنفه. شمه ثلاث مرات متتالية سريعة، كمن يتعاطى النشوق، ثم زفر من فوره. حرك يده أمام أنفه مجدداً الهواء ثم كرر عملية الشم بالإيقاع الثلاثي نفسه. وفي الختام عب نفساً عميقاً ثم أخذ يزفره ببطء على دفعات كمن يصعد درجاً طويلاً. رمى المنديل على الطاولة وظهره ثم رأسه على مسند الكرسي.

كان العطر جيداً بصورة مقرفة. هذا البائس بيليسييه كان خبيراً للأسف، معلماً، والشكوى لله، حتى وإن لم يتعلم أي شيء على الإطلاق! وتمنى بالديني لو أن "الحب والروح" عطره هو، إذ لم يكن فيه ما هو عادي مبتذل أبداً، بل كان على العكس، كلاسيكياً متكاملاً ومنسجماً في تكوينه. ورغم ذلك كانت جدته مذهلة. كان منعشاً وليس

مدوخاً؛ فواحاً وليس نفاذاً. كان يمتلك دفئاً رائعاً مستديماً ممتعاً، دفئاً بنياً قاتماً، دون أية تخمة أو تبرج.

نهض بالديني والاحترام يكاد يغشاه ثم قرب المنديل ثانية من أنفه. "رائع، رائع.." همس وهو يتشمم بجشع، "له شخصية مرحة، محببة، كلحن موسيقي، بل إنه يعدل المزاج.. ما هذا الهراء، مزاج معتدل!" قذف المنديل على الطاولة بغضب واستدار متجهاً نحو زاوية الغرفة القصوى وكأنه خجل من إعجابه بالعطر.

يا لسخف أن يسمح لنفسه أن تسترسل بمثل هذه المدائح! (كلحن موسيقي. مرح. رائع. مزاج معتدل.) - هراء! هراء صبياني. إنه انطباع آني. غلطة قديمة. مسألة طبع. ربما من تأثير الجانب الإيطالي فيه، لا تحكم وأنت تشم! هذه هي القاعدة الأولى يا بالديني العجوز الغبي! شم عندما تتشمم، واحكم بعد أن تكون قد شممت. والحب والروح، عطر التوازن. إنه حقاً إنتاج ناجح، هذا إن لم نصرح بأنه مذهل. ولم يكن متوقعاً من رجل مثل بيليسييه أن ينتج شيئاً آخر، ومن كان على شاكلته لا يبتكر كل يوم عطراً جديداً ساحراً. فهذا العكروت كان يعمي الأبصار بمهارته الفائقة، يحير حاسة الشم بانسجام صنعته الكامل، كان ذئبا في فروة خروف من الروائح الكلاسيكية، وبكلمة واحدة: حقيراً مرهوبا. وهذا كان أسوأ من مؤمن لا يتقن عمله.

أما أنت يا بالديني فإنه لن يضلّك. للحظة عابرة فقط فاجأك الانطباع الذي خلقه هذا المنتج كمركب بدقة. ولكن هل يعلم المرء كيف ستكون رائحته بعد ساعة، عندما تطير مكوماته الأثيرية ولا يتبقى منها الجوهر؟ أو كيف ستكون رائحته مساء اليوم عندما لن يبقى للشم

إلا العناصر الثقيلة القاتمة التي تتجلى الآن من خلل غشاء وردي مريح؟ فانتظر بالديني، انتظر!.

القاعدة الثانية تقول بأن العطر يعيش مع الزمن، فله مراحل شبابه ونضجه وشيخوخته. وفقط عندما يتخطى مراحل العمر المختلفة محافظاً على أريجه بالوتيرة نفسها، يعتبر عطراً ناجحاً. كم من مرة جربنا وخلطنا فكانت رائحة مزيجنا عند التجربة الأولى منعشة رائعة، لتفوح منه بعد فترة قصيرة رائحة الفاكهة العطنة، ثم رائحة الزباد النقي المقرفة الذي أكثرنا من كميته. لابد من الحذر في التعامل مع الزباد، فقطرة فائضة منه تسبب الكوارث. نبع أخطاء قديم. من يدري - لربما ارتكب بيليسييه الخطأ نفسه مع الزباد! لربما لن يتبقى من عطر "الحب والروح" الطموح هذا المساء أكثر من نفسٍ من بول القطط! سنرى.

سنتشممه. وكما ينزل نصل الفأس الحاد على الحطبة ليجزئها إلى قطع، هكذا سيكون مفعول أنفنا في فصل أجزاء عطره عن بعضها البعض. وسنرى حينئذ أن عطره الساحر المزعوم قد تم تركيبه بالطريقة العادية المعهودة. نحن، بالديني العطار سنكشف سر خالط الخل المدعو بيليسييه، سننتزع القناع عن سحنته ونثبت لهذا المجدد قدرات حرفتنا القديمة. وعطر موضته سنقلده بمنتهى الدقة. وسيتبدى من بين أيدينا جديداً، نسخة طبق الأصل، بحيث لن يستطيع حتى كلب الريح أن يميزه عن عطره، لا! لن نكتفي بهذا! بل سنلجأ إلى تحسينه! سنثبت له أخطاءه، فنتداركها، لنضعه بالصيغة الجديدة تحت أنفه ونقول له: يا بيليسييه، أنت أخرق! أنت فسّاء صغير! أنت متسلق متطفل على حرفة العطارين، ولا شيء سوى ذلك!

فإلى العمل الآن يا بالديني! اشحذ أنفك وشم دون عاطفة! حلل العطر وفق قواعد الفن! عليك حتى مساء اليوم أن تمتلك صيغة التركيب!

اندفع عائداً إلى طاولته، أخرج ورقاً وحبراً ومنديلاً جديداً، رتب كل شيء في مكانه الصحيح وبدأ بعمله التحليلي. كان يمرر المنديل الجديد المحمل بقطرات العطر الطازجة بسرعة تحت أنفه ليلتقط من غمامة العطر هذا أو ذاك الجزء دون أن يدع المزيج المعقد يشغله عن الجزء، ثم يمد ذراعه بالمنديل بعيداً عنه كي يدون باليد الأخرى بسرعة اسم الجزء الذي التقطه، وليعاود من ثم تمرير المنديل أمام أنفه بسرعة كي يلتقط الجزء الثاني، وهكذا...

١٣

عمل لساعتين متصلتين دون انقطاع. وبمرور الوقت أصبحت حركاته المحموم، وكتابته على الورق كالخربشة. وازدادت كميات العطر التي كان يصبها من القارورة على المنديل الذي كان يضعه تحت أنفه.

ما عاد يشم أي شيء فقد خدّرته المواد الأثيرية التي استنشقها، ولم يعد قادراً على تمييز ما ظن في بداية تجربته أنه قد توصل إلى تحليله بمنتهى الدقة والثقة. إنه لن يتوصل إلى معرفة صيغة هذا العطر المركب حسب الموضة الجديدة؛ اليوم على الأقل لن يتوصل إلى أي شيء، ولا غداً عندما يرتاح أنفه إن شاء الله. لم يسبق له أبداً أن تعلم طريقة الشم التحليلي التفكيكي. وكان يجد في عملية تجزيء العطر شغلاً كريهاً مشؤوماً. كيف يجرؤ المرء على تفكيك الكل المتكامل، أو حتى

الأقل تكاملاً إلى مركباته البسيطة! لم يهمه هذا العمل في شيء، ولم يرده لنفسه.

ولكن يده تابعت حركاتها بميكانيكية، تدربت عليها آلاف المرات، لتخضب المنديل المطرز، لتهزه ولتلوحه بسرعة أمام وجهه. وبالميكانيكية نفسها كان يتنشق مع كل تلويحة كمية من الهواء المتخم، كي يحتفظ بها في صدره، ثم ليزفرها على دفعات وفقاً لقوانين الفن. استمر بالديني بذلك إلى أن أنقذه أنفه بالذات من هذا العذاب، وذلك بأن تورم متحسساً من الداخل، فانسد، وكأنما بفعل سدادة شمعية. لم يعد قادراً الآن على شم أي شيء، ولا حتى أن يتنفس. كان أنفه مسدوداً كالمصاب برشح مزمن، وفي أطراف عينيه تجمعت قطرات دمع صغيرة. الشكر لله في عليائه! فالآن أصبح بمقدوره أن يتوقف مرتاح الضمير. لقد قام بواجبه بكل إمكانياته وحسب قواعد الفن كلها، وفشل، كما سبق له أن فشل مرات ومرات. لابد مما ليس منه بد. انتهينا. في صباح الغد سيرسل أحد مرؤوسيه إلى بيليسييه بطلب زجاجة كبيرة من "الحب والروح" وبها سيعطر الجلد الأسباني للدوق فيرامون، حسب الطلب. وبعدها سيتناول حقيبته الصغيرة الممتلئة بالصابون العتيق والأربطة والدهون وأكياس المساحيق العطرية الصغيرة ليجول بها على صالونات الكونتسات العجائز. وذات يوم ستموت آخر هاته الكونتسات العجائز، ومعها آخر زبوناته. وعندما سيكون هو قد بلغ من العمر أرذله، ومضطراً لبيع بيته، لبيليسييه أو لأي من هؤلاء التجار المتسلقين، وقد يحصل لقاءه على ألفي ليرة. وسيحزم بالتالي حقيبة أو اثنتين ليسافر إلى إيطاليا مع زوجته، هذا إن بقيت حية حتى ذلك الحين. وإن تحمل

مشاق الرحلة وبقي على قيد الحياة فسيشتري بيتاً صغيراً في الريف بالقرب من ميسينا، حيث مازالت الأسعار رخيصة. وهناك سيموت جوزيبه بالديني الذي كان ذات يوم أعظم عطاري باريس، بفقر مدقع، وحسب مشيئة الله. وبهذا ستكون الأمور قد أخذت مجراها الصحيح.

أعاد سدادة القارورة إلى مكانها، وضع الريشة من يده ومسح جبينه للمرة الأخيرة بالمنديل المخضب بالعطر، فشعر برطوبة الكحول المتطاير، ولا شيء سوى ذلك. ثم غابت الشمس.

نهض بالديني. فتح درفة النافذة وغاص حتى ركبتيه في نور المساء، وكان جسده ملتهباً كجذوة مشعل أطفئ لتوه، رأى حاشية الشمس الحمراء القائمة وراء اللوفر، واللهب الخافت فوق أسطحة منازل باريس المائلة والنهر من تحته بعد خلوه من السفن يبرق كالذهب. ولابد لن تكون الريح قد هبت، فلفحاتها كانت تتساقط على سطح الماء كالصدف، فيتلألأ هنا وهناك مقترباً أكثر فأكثر، وكأنما هناك يد هائلة تنثر ملايين القطع الذهبية في الماء، وبدا اتجاه النهر للحظة وكأنما قد انعكس: تيار هائل من الذهب الصافي يندفع نحو بالديني.

كانت عينا بالديني دامعتين وحزينتين. وقف لبرهة ساكناً متأملاً الصورة الرائعة. ثم فجأة دفع درفتي النافذة عن آخرهما ورمى قارورة بيليسييه بقوس واسع في الماء. رأى اصطدامها بسطحه، ممزقة للحظة البساط المائي المتلألئ.

اندفع الهواء النقي إلى الغرفة. تنشقه بالديني ولاحظ أن تورم أنفه قد خف، ثم أغلق النافذة. وفجأة في اللحظة نفسها هبط الظلام، ثم تحولت صورة المدينة والنهر الذهبية البراقة إلى ظل رمادي مسود،

وبلمحة خاطفة أصبح جو الغرفة مقبضاً. وقف بالديني أمام النافذة في الوضعية السابقة نفسها وقد تحجرت نظراته. "لن أرسل أحداً إلى بيليسييه غداً" قال وهو يعانق مسند كرسيه بيديه. "لن أفعلها. ولن أقوم بجولتي عبر الصالونات. سأذهب إلى موثق العقود غداً، سأبيع بيتي ومتجري. وهذا هو ما سأفعله، وكفى!".

اكتسى وجهه بملامح غلام معاند حرون، وفجأة أحس بالديني بالسعادة تجتاحه. لقد عاد ثانية إلى كونه بالديني العجوز الشاب، الشجاع المصمم على مناطحة القدر - حتى ولو كانت الهزيمة في ذلك جلية. وإن يكن! لم يكن أمامه سوى ذلك. فهذا الزمن الغبي لم يترك لنا أي خيار آخر. الرب يمنحنا أيام عسر وأيام يسر، لكنه لا يريد منا في أيام العسر أن نندب وننعي، وإنما أن نتصرف برجولة. ولقد أعطانا إشارته، فصورة المدينة المزيفة، الذهبية الحمراء القانية كالدم كانت تحذيراً يعني أن عليك يا بالديني أن تتصرف، قبل أن يفوت الأوان. فالمنزل مازال قائماً والمستودعات مليئة، ومازال بوسعك التوصل إلى سعر مناسب لتجارتك المتدهورة. حسم الأمر مازال بيدك. أن تقضي ما تبقى من عمرك في ميسينا بتواضع لم يكن هدف حياتك، لكنه أكثر احتراماً، وأقرب إلى مشيئة الله من أن تسقط هنا في باريس من العلياء إلى الحضيض. فلينتصر التجار المزعومون، مثل برويه وكالتو وبيليسييه، فجوزيبه بالديني سينسحب، ولكن بملء إرادته ودون أن يخفض هامته لأحد!

كان في هذه اللحظة فخوراً بنفسه، ومرتاحاً بلا حدود. للمرة الأولى، منذ سنوات طويلة، اختفى من ظهره تشنج الشيخوخة الذي كان

يصلب الرقبة ويحني الكتفين نحو الأمام بحيث يبدو للمرء كالمستعطف، فانتصب قائماً دون جهد، طليقاً من أية معوقات، وغمرته السعادة وأحس بأنفه يستنشق بسهولة مكنته من أن يلتقط بوضوح رائحة "الحب والروح" التي هيمنت على الغرفة، ولكن دون أن يدعها تستحوذ عليه هذه المرة. لقد غير بالديني حياته، وكان سعيداً جداً بذلك. وها هو سيصعد الآن إلى زوجته ليخبرها بالأمر وليعرج من ثم إلى كاتدرائية نوتردام ليشعل شمعة حمداً لله على إشارته وعلى القوة الخارقة التي بثها فيه.

بمثل حيوية الشباب تقريباً رمى الباروكة على جمجمته الصلعاء، انزلق في بذته الزرقاء، تناول الشمعدان عن الطاولة وغادر غرفة عمله. ما كاد يشعل الشمعة ليضيء الدرج الموصل إلى سكنه حتى سمع الجرس يقرع من الطابق الأسفل. لم يكن صوت الجرس الفارسي الجميل المعلق عند باب المتجر، وإنما صوت جرس مدخل الخدم ذي الصليل، صوت مخرش طالما كان يزعجه، وغالباً ما فكر بنزعه واستبداله بجرس ذي رنين مريح، لكنه كان يستبهظ التكاليف. وفجأة خطر بباله أن الأمر قد أصبح الآن سيان، وابتسم لهذه الفكرة، فهو سيبيع الجرس الملحاح والمنزل برمته، وليكن الإزعاج نصيب ساكنه الجديد!

صلّ الجرس مجدداً. أصاخ بالسمع. لاشك أن شينييه قد غادر المتجر، ويبدو أن الخادمة أيضاً لن تتحرك؛ وهكذا نزل بالديني بنفسه ليفتح الباب. سحب المزلاج وأشرع الباب الثقيل - لكنه لم ير أحداً. ابتلع الظلام ضوء الشمعة عن آخره. ثم، وبعد لحظات، تبيّن وجود هيكل ما، غلامٍ أو شابٍ مراهق يحمل شيئاً ما على ذراعه.

"ماذا تريد؟"

"أنا من طرف المعلم غريمال، أحضرت جلود الماعز". قال الهيكل مقترباً، رافعاً في وجه بالديني ذراعه المغطاة بالجلود المرتبة فوق بعضها. ورأى بالديني في ضوء الشمعة وجه يافع بعينين وجلتين متربصتين. كان كالذليل، محاولاً الاختباء وراء ذراعه الممدودة، خشية الضرب. لقد كان غرنوي.

١٤

جلود الماعز التي علي أن أجهزها على الطريقة الأسبانية! واستعاد بالديني في ذاكرته أنه قبل بضعة أيام قد طلب من غريمال أفضل وأطرى ما لديه من الجلود ليحضّر منها للدوق فيرامون حشية مسند للكتابة، مقابل خمس عشرة فرنكاً للقطعة. لكنه لم يعد بحاجة إليها الآن. وبإمكانه بالتالي توفير ثمنها. ولكن ما الذي قد يحدث إن عاد الشاب ببضاعته؟ من يعلم – قد يولّد هذا انطباعاً غير مناسب الآن. سيسبب لغطاً وستكثر الشائعات: بالديني لم يعد تاجراً موثوقاً بكلمته.. بالديني لم يعد أهلاً لعقد الصفقات.. بالديني لم يعد قادراً على الدفع... وهذا ضار جداً الآن لأنه قد يؤدي إلى خفض قيمة المتجر عند البيع. إذن، من الأفضل أن أقبل بهذه الجلود التي لا نفع بها. فلا داعي أن يعلم أحد في هذا الظرف غير المناسب بأن بالديني قد غيّر حياته.

"تعال، ادخل!".

دخل الشاب، وسارا معاً باتجاه المتجر، بالديني في المقدمة حاملاً الشمعدان، ومن خلفه غرنوي مع جلوده. وكانت هذه هي المرة الأولى التي

يدخل فيها غرنوي محل عطار، مكاناً لا تكون الروائح فيه من قبيل الملحقات، وإنما في مركز الأهمية دون منازع.

بديهي أن غرنوي كان يعرف كافة محلات العطارين في المدينة، سواء منها المختص بالعطور الخالصة أم تلك التي تبيع أصناف العطارة الأخرى، فقد قضى لياليه واقفاً أمام واجهاتها، متلصصاً بأنفه عبر شقوق أبوابها. كان يعرف كافة الروائح الطيبة التي تباع هنا، ولطالما مزجها في مخيلته مستنبطاً منها أروع العطور. لم يكن هنا إذن ثمة جديد ينتظره. ولكن كطفل موسيقي يتوق إلى رؤية الأوركسترا عن قرب أو إلى العزف على الأرغن اليدوي في الكنيسة بنفسه هكذا كان شغف غرنوي برؤية محل العطارة من الداخل. فعندما وصل سمعه أن ثمة جلوداً لابد من توريدها إلى بالديني، راهن على كل شيء في سبيل الفوز بهذه المهمة.

وها هو الآن في متجر بالديني، في هذا المكان من باريس حيث اجتمع في أضيق إطار أكبر عدد من الروائح المعدة ليتم تداولها كسلعة. لم ير الكثير في ضوء الشمعة العابر. لمح بسرعة خاطفة ظلال طاولة المكتب والميزان، وطائري مالك الحزين فوق الحوض، والمقعد المخصص للزبائن، والرفوف الجدارية التي كانت تلتمع بين الحين والآخر ملصقات أوعيتها الزجاجية البيضاء إلى جانب الأدوات النحاسية والبواتق والدوارق، كما أنه لم يشم هنا أكثر مما شمه من الشارع. لكنه أحس من فوره بالجدية التي تسود المكان، وليكاد المرء أن يقول: بالجدية المقدسة؛ هذا إن كانت كلمة "مقدس: تعني أي شيء بالنسبة له. شعر بالجدية الباردة، بالحصافة الحرفية وبالحس التجاري الجاف متجلياً في كل قطعة

أثاث، وفي الأدوات والأحواض والقوارير والأواني. وبينما كان غرنوي يتبع بالديني، بل ظل بالديني الذي لم ينتبه لضرورة إنارة الطريق له، خامره إحساس بأنه ينتمي إلى هذا المكان، وليس إلى أي مكان آخر، وأن عليه أن يبقى هنا، من حيث سيتمكن من قلب العالم رأساً على عقب.

لاشك في أن هذا الإحساس، بل هذه الفكرة، كانت تتجاوز أقصى حدود التواضع. إذ لم يكن هناك أي شيء، لا شيء على الإطلاق، يمهد لمساعد عامل دباغة دون أصل أو فصل ودون عمل ثابت أن يأمل بوضع قدمه في أهم محلات العطارة في باريس، خاصة، كما نعرف، أن هذا المحل قيد التسليم، وأن القرار في هذا قد حُسم. لكن أفكار غرنوي المتكبرة لم تكن متعلقة بأمل وإنما بحتمية راسخة. فهو لن يغادر هذا المحل الآن، إلا لكي يحضر حوائجه من عند غريمال، وأما فيما بعد ذلك فهو باقٍ هنا. لقد شمت القرادة رائحة دم. سنوات انقضت وهي منكفئة على نفسها تنتظر. أما الآن فقد تركت نفسها تسقط مجازفة بحياتها دون تفكير ودون أمل. وتشبث غرنوي بموقفه من هذا المنطلق.

اجتازا المتجر ووصلا إلى باب قاعة خلفية من جهة النهر يستخدمها بالديني كمستودع، وفي الوقت نفسه كمخبر يحضر فيه الصابون والدهون ويمزج فيه المياه العطرية في أوعية زجاجية كبيرة.

"هنا" قال بالديني مشيراً إلى منضدة كبيرة بجانب النافذة. "ضع الجلود هنا!".

خرج غرنوي من ظل بالديني، وضع الجلود على الطاولة، وقفز إلى الوراء بسرعة ليقف في الباب معترضاً طريق بالديني الذي جمد لبرهة

ساكناً مبعداً الشمعدان عن الطاولة تجنباً لسقوط قطرات الشمع على الجلد، وهو يتحسس بظهر أصابع يده الأخرى سطح الجلد الأملس. قلب بالديني قطعة الجلد العليا على وجهها الآخر متحسساً في الآن نفسه ملمسها الداخلي المخملي الناعم الطازج، ووجد أن الجلد في غاية الجودة. ولهذا فإنه لن ينكمش عند تجفيفه، وسرعان ما يستعيد طراوته حال المرور فوقه بالمكواة. تأكد من ذلك بمجرد فركه بين السبابة والإبهام، ومن قدرته بالتالي على استيعاب عطر يكفي أريجه لعشر، بل لخمس عشرة سنة. كان الجلد جيداً جداً، بل بالغ الجودة - وقد يصنع منه قفازات، ثلاثة أزواج له وثلاثة أزواج لزوجته، استعداداً للرحلة نحو ميسينا.

سحب يده. نظر إلى طاولة الشغل بكل ما عليها: وعاء النقع الزجاجي الكبير، لوح التجفيف الزجاجي، أواني البشر لخلط وتحضير الصبغات، المدق والمكواة والمقص، وشعر بالحنين يغمره. بدت الأشياء وكأنها نائمة لهبوط الليل، لتعود إلى الحياة مع الفجر. ماذا لو أخذ معه هذه الطاولة إلى ميسينا؟ ومعها بعض الأدوات، الأكثر أهمية منها..؟ فهذه الطاولة تهيئ للإنسان الجو الملائم للعمل. لوحها مصنوع من خشب البلوط، وكذلك مساندها المتشابكة المتينة التي تمنع أية رجة أو اهتزاز، فلا الحموض تؤثر فيها، ولا الزيوت ولا ضربات السكين. إنها ثروة، لكن نقلها إلى ميسينا سيكلف ثروة أكبر، ولو حتى بالباخرة! ولهذا ستباع الطاولة، غداً ستباع الطاولة، بكل ما فوقها وما تحتها وما حولها. صحيح أن قلب بالديني عاطفي، لكنه يمتلك شخصية قوية، ولهذا، رغم ثقل وقع الأمر على نفسه، فإنه سينفذ قراره. إنه سيتخلى عن كل شيء والدموع تترقرق من عينيه، لكنه سيفعلها رغم ذلك، لأنه يعرف أنه على حق، فلقد وصلته الإشارة.

التفت ليغادر، لكن هذا المخلوق القزم كان واقفاً في الباب. وكاد بالديني أن ينساه كلية.

"حسناً" قال بالديني وتابع: "أخبر معلمك بأني راض عن نوعية الجلود، وبأنني خلال أيام قليلة سأمر لأحاسبه".

"حسناً" قال غرنوي وهو في مكانه في الباب، ساداً الطريق بوجه بالديني الذي انتوى مغادرة ورشة عمله. للحظة فوجئ بالديني بسلوك الشاب، لكنه لسلامة طويته اعتبره خجلاً، في حين كان عليه إدراك مدى قحته.

"ما الأمر؟ ألديك المزيد من معلمك لتخبرني به؟ هيا! تكلم!".

وقف غرنوي منكمشاً على ذاته وهو ينظر إلى بالديني بعيون، ظاهرها الخشية، وباطنها التوتر الثعلبي.

"أريد أن أشتغل عندك، أيها المعلم بالديني، عندك هنا، هنا في محلك أريد أن أشتغل".

لم يكن في قوله هذا ما يشي بالرجاء، وإنما بالأمر. ولم يكن مخرج كلماته طبيعياً، بل أشبه ما يكون بالفحيح. ورغم ذلك لم يدرك بالديني مدى ثقة غرنوي بنفسه، فظنه عجزاً صبيانياً. ابتسم في وجهه قائلاً: "أنت أجير صباغ يا بني.. وأنا لست بحاجة لأجراء. لدي مساعد واحد، وهو كاف.. لست بحاجة لأجراء".

"أنت تريد أن تحول جلود الماعز إلى جلود عطرة، أليس كذلك يا معلمي؟.. هذه الجلود التي أحضرتها لك، أنت تنوي جعلها مصدر رائحة عطرة، أليست هذه نيتك؟" صدرت الكلمات من حنجرة غرنوي كالفحيح، وكأنه لم يسمع جواب بالديني أبداً.

"هكذا هو الأمر فعلاً". قال بالديني.

"وبعطر بيليسيه (الحب والروح)؟" سأله غرنوي وهو يزداد انكماشاً على نفسه. اقشعر جسد بالديني خوفاً، لا لتساؤله عن مصدر معرفة الشاب بالأمر، وإنما لمجرد ذكر اسم العطر الكريه الذي فشل اليوم في التوصل إلى سره.

"وكيف خطر ببالك أصلاً، أني سأستخدم عطراً غريباً كي..".

"لأن رائحته تنضح منك" همس غرنوي بحدة، وتابع قائلاً: "من جبينك. وفي جيب سترتك اليمنى هناك منديل مضمخ بهذا العطر. إلا أنه رديء يا معلمي.. عطر (الحب والروح) ليس جيداً، ففيه أكثر من اللازم من عطر النارنج وندى البحر، وأقل من اللازم من زيت الورد".

"هكذا إذن" قال بالديني مذهولاً من تحول الحديث إلى صلب الموضوع وتابع: "وماذا أيضاً؟".

"فيه من زهر البرتقال والليمون الحلو والقرنفل والمسك والياسمين، ومن روح عنب، لا أعرف ما اسمه. لكنه موجود هناك، أترى، في تلك الزجاجة!" وأشار بإصبعه في الظلام. حول بالديني الشمعدان بالاتجاه المحدد وتابع ببصره سبابة الشاب التي كانت تدل إلى زجاجة على الرف، مليئة ببلسم ذي لون رمادي ضارب إلى الصفرة.

"العبهر؟" سأل بالديني.

هز غرنوي برأسه موافقاً وهو يقول: "نعم، العبهر، إنه فيه". ثم تكور على نفسه كالمصاب بالتشنج مردداً لعشرات المرات كلمة "عبهر عبهر عبهر عبهر...".

وجه بالديني الشمعدان نحو المخلوق المردد كلمة "عبهر"، وفكر بأنه

لابد أن يكون أحد الأمور التالية: إما أن يكون مسكوناً، أو مشعوذاً متلاعباً، أو ذا موهبة مباركة. فصحة تركيب عطر "الحب والروح" حسب تسلسل المواد التي ذكرها، كانت أمراً محتملاً، بل قد تكون صحيحة فعلاً. فزيت الورد والقرنفل والعبهر هي العناصر التي كان طيلة بعد الظهر يبحث عنها، دون جدوى، وانضافت إليها بكلامه العناصر المكملة الأخرى - التي ظن أنه قد عرفها - لتشكل قالب الكاتو الشهي الجميل. ولم يعد هناك بعد سوى مسألة نسبة كل عنصر في التركيب، وبكل دقة. وللوصول إلى ذلك كان على بالديني أن يقضي أياماً من التجريب والاختبار. وهو عمل مفزع، وأسوأ لربما من مجرد التعرف على أجزاء العطر. فالمطلوب الآن هو أن تقيس وتزن وتدون الملاحظات، وأن تركز انتباهك كله، فأقل إهمال - كارتجاج القطارة، أو الخطأ في عد النقاط اللازمة - سيفسد كل شيء. وكل تجربة فاشلة تعني خسارة مالية، وكل مزيج خائب يعادل خسارة ثروة صغيرة.. أراد بالديني أن يضع هذا الإنسان الصغير على محك التجربة، أراد أن يسأله عن صيغة عطر "الحب والروح" بتفاصيلها الدقيقة. فإن عرفها بحساب الغرام والقطرة سيكون لاشك محتالاً، حصل على صيغة بيليسييه بطريقة ما، ليشق طريقه للعمل هنا. أما إن حزرها بصورة تقريبية فسيكون عبقرياً على صعيد الروائح، وهذا مدعاة لاستفزاز اهتمام بالديني الحرفي، إلا أنه لا يعني بطبيعة الحال وضع قراره المتعلق بتصفية المحل موضع تساؤل، وهو أيضاً لا يعني أن بالديني مهتم بعطر بيليسييه في حد ذاته. فحتى لو أمّن له هذا الشاب عطر بيليسييه، بكميات تملأ أكبر القوارير، فإنه لن يفكر باستخدامه، ولا حتى في نومه، لتعطير جلود

الدوق فيرامون، لكن.. لكن من ولد عطاراً، وقضى أيام حياته كلها في تركيب العطور، لن يفقد اهتمامه المهني بين لحظة وأخرى! إلا أن اهتمامه بالأمر تجلى الآن واضحاً، توقه للحصول على صيغة ذلك العطر الملعون لم يعد خافياً، والأكثر من ذلك، سبر غور موهبة هذا الشاب الداهية الذي قرأ مفردات العطر عن الجبين. أراد أن يعرف ما يكمن وراء ذلك. لقد غلبه الفضول.

"يبدو أيها الشاب أنك تمتلك أنفاً مرهفاً". قال بالديني بعد أن توقف غرنوي عن الفحيح بكلمة "عبهر"... تراجع إلى داخل الورشة ليضع الشمعدان بحذر على طاولة الشغل وهمس: "أنفاً مرهفاً جداً، لاشك في ذلك. ولكن.."

"أنفي هو الأفضل في باريس كلها، يا معلمي". قاطعه غرنوي بصوت كالصرير، وتابع لاهثاً: "أنا أعرف روائح العالم كله، كل الروائح هنا في باريس، كلها، لكني لا أعرف بعضها بالاسم، لكني قادر على حفظ أسمائها، كلها، كل الروائح التي لها أسماء سأحفظ أسماءها، وهي ليست كثيرة، بضعة آلاف فقط، سأحفظ أسماءها. لن أنسى اسم هذا البلسم، اسمه عبهر، عبهر اسمه...".

"اسكت!" صاح بالديني، "لا تقاطعني عندما أتكلم! أنت طويل اللسان ودعي كذلك. من الذي يعرف ألف رائحة بأسمائها! أنا بالذات لا أعرف ألف رائحة بأسمائها، بضع مئات ربما، هي المعروفة في مجال حرفتنا، لا أكثر ولا أقل، وما عدا ذلك هو روائح كريهة، لا علاقة لنا بها!".

كان جسد غرنوي خلال حديثه المتدفق الطويل قد تمدد، لدرجة أن

استخدم كلتي يديه ليعبر عن شمول معرفته بالروائح كلها، كلها، لكن رد بالديني أعاده في لحظتها إلى انكماشه السابق، فانزوى عند الباب، دون حراك، مترقباً كضفدع سوداء صغيرة.

"ومن البديهي أن يعرف رجل مثلي أن عطر (الحب والروح) يحتوي على العبهر وزيت الورد والقرنفل والنارنج وندى البحر وغيره. وأي أنف حساس مرهف كأنفك وكأنوف الكثيرين في عمرك ممن منحهم الرب هذه الموهبة قادر على معرفة ذلك. أما العطار" - هنا رفع بالديني سبابته ونفخ صدره، وتابع: "فإنه بحاجة لأكثر من أنف حساس. فهو يعتمد على جهاز شم تم تدريبه خلال عشرات السنين، يؤهله للتعرف على مركبات أكثر الروائح تعقيداً، حسب نوعها وكميتها، وبكل ثقة، بل حتى لابتكار تركيبات عطرية جديدة. ومثل هذا الأنف" وأشار بالديني إلى أنفه بإصبعه "لا يأتيك مع الولادة يا بني! لكي تصل إلى أنف كهذا لابد لك من الكثير من الجهد والجلد. طبعاً. هل بإمكانك أنت مثلاً أن تقول لي من فورك وبدقة ما هي صيغة عطر (الحب والروح)؟ قل لي، هل بمقدورك هذا؟".

لم يجب غرنوي.

"هل يمكنك أن تخمن تركيبها، ولو بصورة تقريبية؟" قال بالديني ذلك وهو ينحني إلى الأمام قليلاً كي يرى هذا الضفدع عن قرب وتابع: "قلت تقريباً. ما بك؟ هيا انطق يا أفضل أنف في باريس!".

بقي غرنوي صامتاً.

"أترى؟" قال بالديني وهو ينتصب مجدداً، مسروراً وخائباً في الوقت نفسه. "لا قدرة لك على ذلك. طبعاً. وكيف يمكنك أصلاً؟ فأنت

كمن يحاول أن يحزر عند تذوق الحساء إن كان فيه بقدونس أم كزبرة. حسن، وحتى إن توصلت إلى معرفة ذلك، فمازال أمامك الكثير لتصبح طاهياً. ففي كل فن، وفي كل حرفة، انتبه لما أقوله لك قبل أن تذهب، الموهبة لا تساوي شيئاً؛ المهم في المقام الأول هو الخبرة المكتسبة عبر التواضع والجهد".

ومد يده نحو الشمعدان. في اللحظة نفسها وصله فحيح غرنوي من الباب: "لا أعرف ما معنى صيغة يا معلمي، لا أعرف، لكني أعرف، سوى ذلك، كل شيء!".

"الصيغة هي ألفباء كل عطر". أجاب بالديني بحزم، بغرض إنهاء هذا الحديث، وتابع: "هي المرشد الدقيق الذي يدلنا على النسبة الضرورية للمزج من كل مادة من مواد التركيب، كي ينتج معنا العطر المحدد المطلوب دون أدنى خطأ. هذه هي الصيغة. إنها الوصفة - إن كنت تفهم هذه الكلمة أفضل من تلك".

"صيغة، صيغة" فح غرنوي، وقد كبر حجمه قليلاً، وهو واقف عند الباب. "أنا لست بحاجة لأية صيغة. الوصفة موجودة في أنفي هنا. هل لي أن أمزجها لك يا معلمي، هل لي أن أمزجها، هل لي؟".

"ولكن كيف؟" صاح بالديني بصوت مرتفع وهو يحمل الشمعدان في وجه القزم. "كيف ستمزجها؟".

وللمرة الأولى لم يتراجع غرنوي ولم يتردد. "لكنها موجودة هنا، كلها، كل ما نحتاجه، الروائح كلها موجودة هنا، في هذه الغرفة". قال وهو يشير بيده في الظلام. "زيت الورد هنا! زهر البرتقال هناك! القرنفل هنا! وندى البحر هناك..!".

"طبعاً هنا!" صرخ بالديني، "كلها هنا! لكن هذا كله يا غبي لن يفيد في شيء، إن لم تملك الصيغة، أفهمت".

".. الياسمين هنا! والكحول هنا! زهر النارنج هناك! والعبهر هنا!" تابع غرنوي فحيحه وهو يشير مع كل اسم إلى مكان آخر في هذا الظلام الدامس بحيث يكاد المرء بكل صعوبة تمييز ظلال الرفوف المليئة بالقوارير.

"هل ترى في الظلام أيضاً؟" صاح بالديني في وجهه، "يبدو أنك لا تملك فقط أفضل أنف في باريس، بل أشد عيونها حدة بصر، أليس كذلك؟ أما إن كانت أذناك ضعيفتين، فاقتحمها الآن عن آخرهما، واسمع ما أقوله لك: أنت دجال صغير. قد تكون التقطت شيئاً عند بيليسييه، أو تجسست عليه، أليس الأمر كذلك؟ وجئت إلي معتقداً أن بإمكانك خداعي؟".

وقف غرنوي في الباب وقد أخذ جسمه كامل أبعاده، مباعداً ما بين ساقيه قليلاً، وفارداً ذراعيه بحيث بدا كعنكبوت أسود متعلق بأطراف إطار الباب. "أعطني عشر دقائق" قال بانسيابية ظاهرة، "وسأجهز لك عطر" (الحب والروح). الآن مباشرة، في هذا المكان. يا معلمي، أعطني خمس دقائق!".

"أتظن أني سأدعك ترتع في ورشتي على راحتك؟ لتخبص خلاصات أغلى المواد ببعضها على مزاجك؟ أنت؟".

"نعم" قال غرنوي.

"هه!" صاح بالديني وهو يزفر كل ما في صدره من هواء، دفعة واحدة. ثم عبّ نفساً عميقاً، أطال النظر إلى غرنوي العنكبوتي وفكر. الأمر في الواقع سيان. أنا متأكد من أنه لن يستطيع إنجاز ما يزعمه،

بل من أنه لا يمتلك القدرة على ذلك. فلو تمكن من ذلك لكان أعظم من فرانجيباني العظيم نفسه. ولكن ما الغلط في أن أتأكد بعيني مما أعرفه في نفسي؟ فقد تخطر ببالي ذات يوم في ميسينا - وعندما يشيخ المرء تصبح أطواره غريبة ويتعلق بأكثر الأفكار جنوناً - فكرة أني قد صادفت يوماً مخلوقاً منّ عليه الرب بكرم، فلم أتعرف منه على عبقريته الشمية، على كونه طفلاً معجزة.. لكن الأمر كله غير ممكن، وبعد كل ما يشير به علي عقلي أجد الأمر مستحيلاً. إلا أن المعجزات موجودة، وهذا ثابت لا شك. حسناً، إن جاء يوم في ميسينا، وأنا على فراش الموت، وحضرتني فكرة أني آنذاك في باريس قد وقفت ذات مساء أمام معجزة وجهاً لوجه، فأغمضت عيني..؟ لن تكون الفكرة مريحة أبداً يا بالديني! فليعبث هذا المجنون بقطرات زيت الورد وصبغة المسك، إن كان عطر بيليسييه يهمك فعلاً، فأنت بنفسك كنت ستهدرها! وما قيمة بضع قطرات - كم تساوي بالقياس إلى تأكد الإنسان من علمه وتخطيه عتبة الحياة براحة؟

"اسمع!" قال بالديني بصوت يتصنع الحزم، "اسمع! أنا.. ولكن ما هو اسمك؟".

"غرنوي" أجاب غرنوي. "جان - باتيست غرنوي".

"حسناً، اسمع إذن يا جان - باتيست غرنوي! لقد فكرت بالأمر. سأمنحك الآن، فوراً، الفرصة لكي تثبت زعمك.. وهي في الوقت نفسه فرصة ستتعلم منها بفشلك الذريع فضيلة التواضع التي لا تمتلكها بعد، بحكم صغر سنك، ولك العذر في ذلك، لكنها الشرط الذي لا محيد عنه لتحقيق مستقبلك كعضو في جمعيتك الحرفية وفي طبقتك الاجتماعية،

وكزوج، ومواطن مطيع، وكإنسان، وكمسيحي صالح. أنا مستعد لتزويدك بهذه الموعظة على حسابي، فمزاجي ميال للكرم هذا المساء، لأسباب خاصة طبعاً، ومن يدري، قد تمنحني استعادة هذا المشهد في ذاكرتي ذات يوم، شيئاً من السعادة. ولكن إياك أن تظن أنك قادر على خداعي! صحيح أن أنف جوزيبه بالديني عجوز، لكنه حاد، وبما فيه الكفاية لتمييز أدق فارق بين مزيجك وهذا المنتوج". وأخرج من جيبه المنديل المضمخ بعطر "الحب والروح" ولوح به أمام أنف غرنوي. "تقدم يا أفضل أنف في باريس. تقدم من هذه الطاولة وأرني ما تقدر عليه! ولكن إياك أن تصدم أو تدلق أو ترمي شيئاً! لا تمد يدك إلى شيء. سأزيد كمية النور أولاً. ستحتاج إلى نور باهر من أجل هذه التجربة، أليس كذلك؟".

وتناول شمعدانين آخرين من طرف طاولة البلوط الضخمة وأوقد الشموع. ثم وضع الشمعدانات الثلاثة بجانب بعضها على طول الطرف الخلفي من الطاولة، أبعد الجلود والأدوات المتراكمة على الطاولة، فأصبح منتصفها فارغاً. ثم وبحركات سريعة وهادئة تناول من حامل جانبي المعدات اللازمة للعمل: زجاجة المزج الكبيرة ذات البطن الكروي، القموع الزجاجية، القطارة، المقياس الزجاجي الكبير والآخر الصغير ورتبها كلها أمامه على سطح الطاولة.

كان غرنوي خلال ذلك قد انفصل عن إطار الباب. فخلال خطبة بالديني العصماء كانت حالة التصلب والتوتر والحذر قد فارقته. إنه لم يسمع سوى الموافقة، سوى كلمة نعم، وبفرحة الطفل الداخلية الغامرة عندما يتوصل أخيراً إلى السماح له بفعل شيء ما، مهملاً كل ما يرافق

ذلك من شروط ومواعظ أخلاقية وتحذيرات. وقف هناك، للمرة الأولى أشبه بالإنسان منه بالحيوان، يسمع هدير نصائح وإرشادات بالديني دون أن ينصت، وهو متأكد من أنه قد انتصر على هذا الرجل الذي تراجع أمامه.

وبينما كان بالديني يوضب شمعداناته على الطاولة، انسحب غرنوي إلى الجانب المعتم من الورشة، حيث توجد الرفوف المليئة بأثمن الخلاصات والزيوت والصبغات وأخذ، متبعاً حاسة شمه وحدها، يتناول عن الرفوف القوارير الضرورية لعمليته. كان عددها تسعاً: خلاصة زهر البرتقال، زيت الليمون الحلو، زيت القرنفل، زيت الورد، روح النارنج وندى البحر، صبغة المسك وبلسم العبهر، وضعها بسرعة على طرف الطاولة. ثم تناول أخيراً دمجانة مليئة بالكحول المكثف ووقف خلف بالديني الذي مازال منهمكاً بأناقته الحرفية المتحذلقة بترتيب معدات المزج، مزيحاً هذا الكأس إلى الخلف قليلاً، وذاك إلى الطرف الآخر قليلاً، بحيث يأخذ كل شيء مكانه المعهود، وفي أفضل وضعية تحت نور الشمعدانات، وأخذ ينتظر وهو يرتجف تحرقاً للبدء حال ابتعاد العجوز.

"حسناً!" قال بالديني أخيراً وتنحى جانباً. "ها هو كل شيء مرتب أمامك، كل ما تحتاجه -- لنقل بعبارة ودودة "لتجربتك". لا تكسر شيئاً ولا تدلق شيئاً! ليكن بعلمك: هذه السوائل التي سأسمح لك بالتعاطي معها لخمس دقائق، هي من أغلى وأندر الأشياء التي لن ترى مثيلاً لكثافتها بين يديك في مستقبل أيامك!".

"كم تريدني أن أصنع يا معلمي؟" سأل غرنوي.

"تصنع ماذا..؟" سأل بالديني الذي لم يكن قد أنهى كلامه بعد.

"كم من العطر؟" فح غرنوي، "كم تريد من العطر؟ هل أملأ لك هذه الزجاجة السمينة حتى عنقها؟" وأشار إلى زجاجة مزج تتسع لأكثر من ثلاثة لترات.

"لا، لا تفعل ذلك!" صاح بالديني غاضباً. وما صاح داخله مع صوته كان خوفه المتأصل والعفوي من هدر ثروته. وكمن خجل من صيحته الفاضحة هذه، أتبعها مباشرة بصيحة أخرى قائلاً: "ولا تقاطعني عندما أتحدث!" ثم وبلهجة أهدأ، مبطنة بالسخرية: "وما حاجتنا بثلاثة ليترات من عطر لا يعجبنا كلينا؟ يكفي أن تملأ نصف زجاجة القياس هذه. وبما أنه ليس من اليسير مزج هذه الكميات الضئيلة بدقة، سأسمح لك بملء ثلث زجاجة المزج".

"جيد" قال غرنوي، "سأملأ ثلث هذه الزجاجة بعطر الحب والروح. لكنني يا معلم بالديني سأفعل ذلك على طريقتي. لا أدري إن كانت هي الطريقة الحرفية الصحيحة، فهذه لا أعرفها، لكني سأتبع طريقتي".

"تفضل!" قال بالديني الذي كان متأكداً من أنه ليس ثمة طريقتي أو طريقتك، بل طريقة وحيدة صحيحة ممكنة، هي معرفة الصيغة ثم حساب نسب المواد بكل دقة لإنتاج المحلول المركز الذي سيمزج من ثم مع الكحول بنسبة معينة دقيقة، تتراوح غالباً بين واحد إلى عشرة أو واحد إلى عشرين كي تعبق روح العطر بالقدر المطلوب. ليس هناك طريقة سوى هذه، وهو متأكد تماماً من ذلك. ولهذا فإن ما رآه في البداية، ثم ما راقبه عن بعد بسخرية، ثم بارتباك، وأخيراً بدهشة العاجز، بدا له كالمعجزة المتجلية، لدرجة أن انحفر المشهد في ذاكرته فلم ينسه حتى آخر أيام حياته.

١٥

كان أول ما فعله غرنوي الصغير هو أن نزع سدادة دمجانة الكحول الصافي. وجد صعوبة في رفع هذا الوعاء الهائل، إذ كان عليه أن يرفعها إلى مستوى رأسه تقريباً، فهكذا كان ارتفاع زجاجة المزج التي وضع القمع الزجاجي في فوهتها الذي صب فيه الكحول من الدمجانة مباشرة دون الاستعانة بزجاجة المقياس. ارتعد بالديني من هول الجهل الماثل أمامه: فهو لم يقلب نظام عالم العطور رأساً على عقب فحسب، بأن بدأ بمادة التمديد قبل أن يحضر السائل المركز بل إنه من حيث قدرته الجسدية لا طاقة له على ذلك! كان يرتجف من الجهد، وبالديني كان يتوقع في كل لحظة سقوط الدمجانة الثقيلة محطمة كل ما على الطاولة. الشموع، الشموع يا إلهي، فكر بالديني. سيحدث انفجار، وسيحرق بيتي..! كان على وشك أن ينقض لينتزع الدمجانة، عندما وضعها غرنوي بنفسه على الطاولة بسلام، معيداً السدادة إلى مكانها. كان المحلول الخفيف الرائق يرتج داخل زجاجة المزج - لم تذهب أي قطرة منه هدراً. استرخى غرنوي للحظات ووجهه يغمره الرضا كمن أنهى الجزء الأكبر مشقة من عمله. وفي الواقع جرت خطوات العمل التالية بسرعة مذهلة، لم يتمكن بالديني معها من متابعتها بعينيه، بالإضافة إلى أنه لم يستطع أن يتعرف فيما رآه على طريقة متبعة أو على تتابع محدد لخطوات الحدث.

يبدو أن غرنوي كان يتناول قوارير خلاصات الروائح عشوائياً حسب ترتيبها على الطاولة، ينزع السدادة، يضع المحلول تحت أنفه لثانية، فيسكب من هذا أو يقطر من ذاك أو يصب كمية أكبر من قارورة أخرى

في القمع، وهكذا دواليك. أما القطارة وأنابيب الاختيار وزجاجات التعيير والملاعق الصغيرة وعصا التحريك - كل الأدوات التي تمكّن العطار من السيطرة على عملية المزج المعقدة، فإن غرنوي لم يلمسها، ولا مرة واحدة. بدا الأمر ولكأنه يلعب، كطفل يخلط الوحل بالحشيش بالماء ليطبخ خبيصة مريعة وهو يزعم أنها حساء. فعلاً، كالطفل تماماً، فكر بالديني، كما أنه يبدو فجأة كطفل، رغم يديه الغليظتين، رغم وجهه المغطى بالندوب وآثار البثور ورغم أنفه الضخم الذي يليق برجل عجوز. ظننته أكبر مما هو عليه، والآن يبدو لي أنه أصغر سناً، وكأنه في الرابعة أو الخامسة من عمره، كأولئك الصغار المنغلقين على أنفسهم، العنيدين، اللااجتماعيين، الذين هم في حد ذاتهم أبرياء، سوى أنهم لا يفكرون إلا بأنفسهم ويريدون إخضاع كل شيء في الدنيا لسطوتهم، وهم مستعدون لفعل ذلك إن ترك لهم الإنسان في جنون عظمتهم الحبل على الغارب، بدلاً من أن يعرضهم بالتدريج إلى أشد الإجراءات التربوية كي ينضبطوا، فيترعرعون ويصبحون أناساً كاملين قادرين على التحكم بوجودهم. إن مثل هذا الطفل الصغير يكمن داخل هذا الشاب الصغير الذي يقف إلى الطاولة بعيون متوهجة ناسياً كل ما حوله، غير واع كما يبدو سوى بوجوده مع القوارير التي يدنيها من القمع دون أدنى رشاقة كي يمزج خليطه المجنون الذي سيزعم بكل ثقة من ثم - وهو مؤمن أشد الإيمان بذلك - أنه عطر "الحب والروح" الفاخر. انتابت بالديني رعشة هزت كيانه لمرأى هذا الإنسان يتقافز أمامه تحت ضوء الشموع بثقة بشعة، وعاوده الشعور بالأسى والبؤس والغضب الذي ملأه وهو ينظر بعد ظهر ذاك اليوم إلى المدينة الغارقة بحمرة الغسق، وفكر: ما كان يمكن لمثل

هذا الكائن أن يوجد سابقاً، إنه عينة من البشر جديدة تماماً، لا يمكن أن توجد إلا في هذا الزمن الحديث الفاسد.. لكني سألقن هذا الشاب الشديد الثقة بمقدرته درساً لن ينساه! سأمسح به الأرض بعد هذه المهزلة، سأجعله يجرجر أذياله منسحباً من هنا، كما جاء، كخرقة بالية، هذا القمامة! ما عاد يجوز أن يختلط المرء بأي إنسان، كائناً من كان، في أيامنا هذه، فالعالم يعج بالقمامة!

كان بالديني منشغلاً بسورة غضبه وبقرفه من العالم بحيث لم يدرك معنى حركة غرنوي عندما سد فجأة القوارير كلها وسحب القمع مع زجاجة المزج ثم أمسكها من عنقها بيد وسد فوهتها بكف يده الأخرى وخضها بعنف - وفقط عندما دارت الزجاجة عدة مرات في الهواء وتطاير محتواها الثمين كالعصير بين بطن الزجاجة وعنقها، صاح بالديني بغضب وهلع: "توقف! يكفي! توقف من فورك! كفى! ضع الزجاجة الآن على الطاولة ولا تلمس أي شيء آخر، أفهمت، لا شيء آخر! لاشك أني كنت مجنوناً عندما استمعت لهذيانك. طريقتك في التعامل مع الأشياء، فظاظتك، جنونك البدائي، كل هذا يجعلني أدرك أنك همجي، همجي بدائي، وأنك فوق ذلك ولد وقح متطاول وحقير. لست أهلاً حتى لخلط الليموناضة، ولا حتى لبيع عرق السوس، فكيف تريد أن تصبح عطاراً! افرح واشكر ربك إن سمح لك معلمك بمتابعة خلط أصبغة الجلود! وإياك، أتسمعني؟ إياك أن تطأ قدمك عتبة عطار ثانية!".

هكذا تكلم بالديني وبينما كان يتكلم تضوع هواء الغرفة من حوله بعطر "الحب والروح"، ولعبق الرائحة الطيبة قدرة على الإقناع أقوى من الكلمات ونور العين والشعور والإرادة. إنها قدرة على الإقناع لا تقاوم،

إنها تتغلغل فينا، كما الهواء في رئتينا، إنها تملؤها، تتعشق فينا وليس من وسيلة لدرئها.

كان غرنوي قد وضع الزجاجة، سحب عن عنقها يده المبللة بالعطر ومسحها بحاشية ردائه. تراجع خطوة أو اثنتين إلى الوراء بفعل تقريع بالديني له، ومع حركة جسده المضطربة تموج الهواء موزعاً العبق الجديد من حوله. ولم تكن هناك ضرورة لأكثر من هذه الحركة. صحيح أن بالديني لم يزل غارقاً في سورة غضبه، يهدر ويشتم، ولكن مع كل شهيق كانت تنضب الذخيرة الداخلية لغضبه الظاهري الاستعراضي. لقد خمن أنه قد هزم، ولهذا لم يتبق من غضبه مع نهاية كلامه سوى الصياح الفارغ. وعندما صمت، ولبرهة طويلة، لم يكن بحاجة إلى تعليق غرنوي: "إنه جاهز". فقد أدرك ذلك.

رغم ذلك، ومع أن الهواء من حوله كان مفعماً بعبق "الحب والروح" اقترب بالديني من الطاولة ليختبر الأمر. أخرج من جيب سترته منديلاً صغيراً مطرزاً ناصع البياض، فرده وقطر عليه قطرتين سحبهما من زجاجة المزج بالقطارة الطويلة. لوح بالمنديل بذراعه الممدود ليهويه ثم وبالحركة الرشيقة المعهودة مرره تحت أنفه متنشقاً رائحة العطر، ثم جلس على كرسي صغير وهو يزفر الرائحة من صدره. وفجأة شحب لون وجهه بعد أن كان محمراً من فورة الغضب: "غير معقول" همس لنفسه، "أقسم بالله أن هذا لا يصدق". ولعدة مرات متتالية ضغط المنديل على أنفه، تشمم، هز رأسه وهمس: "غير معقول". كان عطر "الحب والروح: ما من شك في ذلك، إنه "الحب والروح"، هذا المزيج العبقري المقيت، إنه نسخة طبق الأصل لن يستطيع حتى بيليسييه نفسه أن يميزها من منتوجه. "غير معقول..."

بدا بالديني العظيم في جلسته صغيراً شاحباً، وسخيفاً وهو يمسك بيده منديله الصغير ويضغطه على أنفه كعذراء أصابها الزكام. لقد أفقده العطر حتى القدرة على الكلام، فحتى "غير معقول" لم تعد تصدر عنه، بل فقط "هم، هم.. هم، هم.. هم، هم" برتابة وهو يهز برأسه هزات خفيفة محدقاً في زجاجة المزج. بعد برهة من الزمن اقترب غرنوي من الطاولة، كالظل، دون أدنى صوت.

"إنه ليس عطراً جيداً" قال ثم تابع: "تركيبه رديء جداً، هذا العطر".

"هم، هم، هم" قال بالديني. فتابع غرنوي كلامه: "وإن سمحت لي يا معلمي، سأحسنه. أعطني دقيقة واحدة وسأجعل لك منه عطراً محترماً!".

"هم، هم، هم" قال بالديني وهز برأسه. ليس لأنه كان موافقاً وإنما لأنه في حالة العجز والجمود التي أصابته لم يعد قادراً على الاستجابة لأي شيء إلا بقوله "هم، هم، هم" مع هزة من رأسه. واستمر على حالته هذه دون أية بادرة للتدخل عندما بدأ غرنوي بالمزج للمرة الثانية. وللمرة الثانية صب غرنوي من دمجانة الكحول الصافي فوق العطر الموجود في زجاجة المزج. وللمرة الثانية وبتتابع بدا عشوائياً صب غرنوي كميات مختلفة من القوارير في القمع. عندما انتهى من ذلك هز الزجاجة برفق كقدح كونياك، ولم يخضها كالمرة السابقة، ربما ترفقاً بمشاعر بالديني المرهفة، وربما حرصاً منه على محتواها الثمين. في هذه اللحظة، عندما كان السائل الجاهز يرتج متلألئاً في الزجاجة، استيقظ بالديني من خدره، نهض والمنديل مازال بطبيعة الأمر مضغوطاً على أنفه كمن يحاول درء هجوم جديد على عالمه الداخلي.

"إنه جاهز يا معلمي. الآن أصبح عطراً جيداً". قال غرنوي.

"طيب، حسناً حسناً". أجاب بالديني محركاً يده الحرة في وجه غرنوي علامة الرفض.

"ألا تريد أن تأخذ عينة؟ ألا تريد أن تجربه يا معلمي؟ ألا تريد؟" حشرج غرنوي.

"فيما بعد، لست جاهزاً الآن لتجربة جديدة.. رأسي مشغول بأمور أخرى إذهب الآن! اتبعني!"

وتناول أحد الشمعدانات عن الطاولة وتوجه نحو الباب المؤدي إلى المتجر وغرنوي خلفه. وصلا إلى الدهليز الضيق الموصل إلى مدخل الخدم والموردين. اتجه العجوز نحو البوابة، رفع المزلاج وفتح. تراجع جانباً مفسحاً الطريق لخروج الشاب.

"هل ستسمح لي بالعمل عندك الآن يا معلمي، هل ستسمح لي؟" سأل غرنوي وقد وقف عند العتبة بعينيه المتربصتين وجسمه المطأطئ.

"لا أدري" قال بالديني. "سأفكر في الأمر. اذهب الآن!".

واختفى غرنوي فجأة، وكأن الظلام قد ابتلعه. وقف بالديني في الباب محملقاً في الليل، الشمعدان بيده اليمنى، وبيسراه المنديل الصغير على أنفه كمن يرعف، واجتاحه خوف مفاجئ. أغلق الباب وأنزل المزلاج بسرعة، ثم أبعد المنديل الواقي عن وجهه، وضعه في جيبه، وعاد عبر المتجر إلى الورشة.

كان العطر بالغ الروعة إلى حد أن اغرورقت عينا بالديني بالدموع. ما كان بحاجة لأن يختبره، وقف فقط عند الطاولة بجانب زجاجة المزج وتنفس. كان العطر إلهياً. وإذا كان عطر "الحب والروح" كعزف كمان منفرد، فإن هذا هو سيمفونية كاملة. بل أكثر من ذلك.

أغلق بالديني عينيه تاركاً العنان لذكريات باهرة تستيقظ في نفسه. رأى نفسه شاباً يتبختر مساء عبر حدائق نابولي، رأى نفسه في أحضان امرأة ذات شعر أسود مجعد ورأى على إطار النافذة خيال غصن محمل بالزهور تداعبه نسمة ليلية، سمع أسراب طيور تغني، ومن حانة بحرية بعيدة وصلته الموسيقى، سمع همساً رقيقاً في أذنه وبوحاً بالحب، وشعر الآن بشعر رأسه يقف من البهجة، في هذه اللحظة فتح عينيه وتنهد سعيداً. لم يكن هذا العطر كالعطور التي عرفها الإنسان حتى الآن. إنه ليس كالروائح المستخدمة بغرض تعطير الجو أو الملابس والحاجيات أو مستحضرات التجميل. إنه شيء جديد كل الجدة، عالم قائم بنفسه، عالم سحري غني، ينسي المرء كل القرف المحيط به ويجعله يشعر بالغنى والارتياح والانعتاق والسعادة..

ارتخت شعرات ذراع بالديني وغمرت روحه سكينة ساحرة. تناول الجلود الموضوعة على طرف الطاولة، وأخذ سكيناً وقطعها. ثم وضع القطع في الحوض الزجاجي وغمرها بالعطر الجديد. وضع لوحاً زجاجياً فوق الحوض ثم سكب بقية العطر في قارورتين، ألصق عليهما قطعتي ورق وكتب عليهما اسم "ليلة نابولي". ثم أطفأ الشموع وذهب.

عندما جلس مع زوجته للطعام في الطابق العلوي لم يفه بكلمة. وبشكل خاص لم يذكر شيئاً عن القرار النهائي الحاسم الذي اتخذه بعد الظهر. وزوجته أيضاً لم تقل شيئاً، فقد لاحظت مزاجه المرح، وكان في هذا منتهى رضاها. كما أنه لم يذهب إلى كنيسة نوتردام ليشكر الرب على قوة الشخصية التي منحه إياها. وللمرة الأولى في حياته نسي اليوم أن يصلي قبل أن ينام.

١٦

في صبيحة اليوم التالي ذهب بالديني مباشرة إلى غريمال. وكان أول ما فعله عنده هو أن دفع ثمن جلود الماعز، المبلغ كله دفعة واحدة ودون أية مساومة. ثم دعا غريمال إلى زجاجة من النبيذ الأبيض في حانة برج المال وأخذ يساومه بشأن غرنوي. لم يخبره طبعاً لماذا يحتاجه ولأي غرض، بل لفق أمامه قصة حول صفقة جلود معطرة كبيرة، يحتاج لتهيئتها إلى معرفة صبي غير متدرب، إلى صبي قنوع، كي ينجز له الخدمات البسيطة كقص الجلود وما إلى ذلك. طلب زجاجة أخرى وعرض على غريمال عشرين ليرة كتعويض عن المتاعب التي سيسببها غياب غرنوي. عشرون ليرة كانت مبلغاً هائلاً، فوافق غريمال من فوره. ذهبا إلى المصبغة حيث وجدا غرنوي لدهشتهما الشديدة واقفاً بالانتظار وحاجياته تحت إبطه. دفع بالديني العشرين ليرة وأخذ معه غرنوي، وهو يفكر بأن ما فعله هو أفضل صفقة في حياته.

وغريمال من جهته كان مقتنعاً بأنه قد أبرم أفضل صفقة في حياته، فعاد إلى حانة برج المال حيث جرع زجاجتي نبيذ أخريين، ثم انتقل عند الظهر إلى حانة الأسد الذهبي على ضفة النهر الأخرى حيث أخذ يسكر بلا حدود، لدرجة أنه في وقت متأخر من الليل عندما أراد العودة إلى حانة برج المال ظن أن "شارع نونينديير" هو "شارع جيفروا لانيير"، وبدلاً من أن يصل مباشرة إلى "جسر ماري"، كما كان يأمل، ساقه قدره المحتوم إلى رصيف شجر الدردار حيث سقط بطوله، ووجهه يتقدمه في الماء، كمن يرتمي على سرير مريح. مات غريمال من فوره. أما النهر فقد احتاج لمدة أطول بكثير ليبعده عن الضفة الضحلة متجاوزاً به سفن

الشحن الراسية جارفاً إياه نحو التيار الأقوى في الوسط، فعند ساعات الصباح الأولى سبح غريمال، بل جثته المبللة، بشكل متسارع مع التيار باتجاه الغرب.

وعندما عبر "جسر أو شانج" دون صوت ودون أن يصطدم بدعائم الجسر، كان جان باتيست غرنوي فوقه بعشرين متراً يستعد لدخول الفراش. فقد حصل في الزاوية الخلفية من ورشة بالديني على مضجع، كان الآن على وشك امتلاكه للمرة الأولى، بينما كان راعيه السابق يسبح مع السين البارد مباعداً ما بين ذراعيه وساقيه. تكور غرنوي على نفسه بسعادة فبدا صغيراً كالقرادة، ومع لحظات النوم الأولى غاص في ذاته أكثر فأكثر، داخلاً بأبهة المنتصر حصنه الداخلي الذي حلم بأن يحيي فيه حفل انتصار أريجي هائل صاخب يتصاعد فيه دخان البخور وبخار المرّ، على شرفه هو بالذات.

١٧

بالحصول على غرنوي بدأ صعود بيت جوزيبه بالديني إلى مستوى مرموق وطنياً، لا بل أوربياً. الجرس الفارسي لم يعد يصمت، وطائرا مالك الحزين لم يتوقفا عن البصق في المتجر الواقع على "جسر أوشانج".

حتى خلال المساء الأول توجب على غرنوي تحضير دمجانة كاملة من "ليلة نابولي"، يبيع منها في سياق اليوم أكثر من ثمانين قارورة صغيرة. انتشرت سمعة العطر بسرعة مذهلة، لدرجة أن عيني شينييه قد أصبحتا زجاجيتين من عد النقود المتكاثرة، كما أصيب بألم في ظهره من كثرة انحناءات الاحترام للزبائن المرموقين والأكثر علواً في السلم الاجتماعي،

وحتى لخدم هؤلاء. وذات يوم طار الباب حتى كاد أن ينخلع ودخل خادم الأمير دارغنسون وصاح بطريقة لا يقدر عليها سوى الخدم، إنه يريد خمس زجاجات من العطر الجديد، وبعد خروجه بربع ساعة كان شينييه لا يزال يرتجف وجلاً فالأمير دارغنسون كان مدير أعمال الملك ووزير الحربية وصاحب أوسع نفوذ في باريس كلها.

بينما كان شينييه متروكاً في المتجر وحده أمام تدفق الزبائن، أغلق بالديني باب الورشة على نفسه وتلميذه الجديد، مبرراً ذلك أمام شينييه بنظرية خيالية، سماها "تقسيم وترشيد العمل". وأوضح ذلك قائلاً بأنه قد راقب بصبر ولسنوات طويلة كيف أن بيليسييه وأمثاله من حقراء الحرفة قد سرقوا زبائنه وخربوا تجارته. أما الآن فإن صبره قد نفد. الآن سيواجه هذا الاستفزاز وسيكيل لهؤلاء المتسلقين الأوغاد الصفعة بمثلها، وبوسائلهم نفسها: ففي كل موسم، بل كل شهر، وحتى كل أسبوع إن لزم الأمر سيظهر إلى السوق بعطر جديد، وأي عطر! سيغرف من نبع إبداعه الخلاق. ولهذا بات ضرورياً أن ينصرف كلياً إلى إنتاج العطور، معتمداً فقط على هذا المساعد غير المتدرب حرفياً، بينما على شينييه أن يكرس نفسه لبيعها. وبهذه الطريق العصرية سيفتح الإنسان صفحة جديدة في تاريخ مهنة العطور، سيقضي على المنافسة ويصل إلى الشراء الخيالي طبعاً، ولقد استخدم كلمة "الإنسان" متعمداً، وواعياً بأبعادها، لأنه لن ينسى أن يشرك مساعده القديم العجوز بنسبة مئوية من هذا الشراء الخيالي.

لو وقع هذا قبل أيام قليلة لاعتبر شينييه خطبة معلمه دليلاً على الخرف، ولاعتقد بأنه قد أصبح جاهزاً لمستشفى العجزة، ولن يطول به

الوقت حتى يسقط المدقّ من يده نهائياً. أما الآن فإن شينييه لم يفكر أبداً، إذ لم تسنح له الفرصة لذلك من كثرة العمل. فكان يبلغ به الإرهاق مساءً حداً لا يستطيع معه أن يفرغ الصندوق ليحسب نصيبه ويفصله. ولم يخطر بباله قط، ولا حتى في الحلم أن يشك في أن ما يجري مريب وغريب، رغم أن بالديني كان يخرج من ورشته كل يومين تقريباً برائحة طيبة جديدة.

ويا لها من روائح طيبة! لم تكن عطوراً من أعلى، بل من أرفع المستويات فحسب، وإنما أيضاً مختلف أنواع الكريم والبودرة والصابون ودهن الشعر والكولونيا والزيوت.. كل ما يجب أن تفوح منه رائحة طيبة، عبق الآن بصورة جديدة مختلفة وأروع من أي يوم مضى. وكان الناس يتكالبون كالمأخوذين على شراء كل شيء، حقاً كل شيء، حتى على أشرطة الشعر العطرة التي ابتدعها ذات يوم مزاج بالديني الغريب هجم الجمهور كالمسحور، غير مبال بالأسعار. كل ما أنتجه بالديني كان ينجح نجاحاً كاسحاً لدرجة أن اعتبر شينييه الأمر حدثاً طبيعياً، ولم يعد يفتش عن أسبابه. أما أن يكون التلميذ الجديد، القزم الأخرق الذي كان يعيش في الورشة كالكلب والذي كان يراه المرء أحياناً، عندما يظهر المعلم في الباب، يراه واقفاً في الخلفية وهو ينظف الزجاجات والهاونات والمدقات، أن يكون هذا الذي لا يساوي شيئاً هو السبب في ازدهار تجارة المحل الخيالي، هذا ما لم يكن شينييه ليصدقه، حتى لو قيل له ذلك صراحة.

بطبيعة الحال كان للقزم كل العلاقة بكل شيء. فما كان يحضره بالديني إلى المتجر ويسلمه لشينييه ليبيعه لا يعادل سوى جزء يسير مما

كان غرنوي يمزجه وراء الأبواب الموصدة. ومقدرة بالديني على الشم لم تساعده على اللحاق بابتكارات غرنوي. وغالباً ما كان يتعرض لعذاب حقيقي عندما يتوجب عليه الاختيار بين روائع غرنوي. هذا التلميذ الساحر كان قادراً على تزويد عطاري فرنسا كلها بالوصفات، دون أن يكرر نفسه ودون أن يبتكر ولو مرة واحدة شيئاً غير ذي قيمة أو عادياً.

ـ إنه بكلمات أخرى ليس قادراً على تزويدهم بالوصفات، أي بالصيغ، لأنه حتى الآن ما زال يمزج روائحه الطيبة بالطريقة الفوضوية غير الحرفية نفسها، التي عرفها بالديني، والتي يبدو حسبها أن غرنوي يخلط ويمزج المواد الرئيسية بفوضى عارمة. ذات يوم طلب بالديني من غرنوي عند تحضيره مزيجاً جديداً أن يستخدم الميزان وأنابيب القياس والقطارة، رغم أنه ليس بحاجة لذلك. لم يكن هدف بالديني السيطرة على هذه العملية المجنونة وإنما أن يفهم ما يجري. ثم طلب إليه أن يتعود على استخدام الكحول كوسيلة تمديد وليس كرائحة، ولهذا يجب إضافته في المرحلة التالية، ثم رجاه رجاءً حاراً أن يخفف من قفزاته المجنونة، أن يتحرك بانسيابية وهدوء، كما يليق بعامل محترف.

فعل غرنوي ذلك. وللمرة الأولى استطاع بالديني أن يتابع حركات أيدي معلم السحرة هذا بين المواد والأدوات وأن يسجلها. جلس إلى جانب غرنوي حاملاً القلم والورق وأخذ يدون كم غراماً استخدم غرنوي من هذه المادة، وكم ميللتراً من تلك، وكم قطرة من الثالثة، مذكراً إياه بين الحين والآخر بضرورة التمهل. بهذه الطريقة الغريبة، أي بأن أعاد بالديني تحليل العملية بالوسائل والمواد نفسها، والتي ما كان ليتعرف عليها لولا ملاحظاته، توصل أخيراً إلى حيازة التركيب خطياً. كيف كان

بمقدور غرنوي مزج عطوره دون هذه الصيغة، فقد بقي بالنسبة لبالديني لغزاً، إن لم نقل معجزة. أما الآن فقد تحولت هذه المعجزة على الأقل إلى صيغة خطية، وفي هذا ما يرضي روحه التواقة إلى القواعد والقوانين، كما فيه إنقاذ لتصوره الخاص عن عالم العطور قبل الانهيار التام.

بالتدريج تمكن بالديني أن يستخلص من غرنوي وصفات كافة العطور التي ابتكرها حتى الآن، ومنعه أخيراً من البدء بمزج أي عطر جديد إن لم يكن هو حاضراً بالقلم والورق ليراقب العملية بعينين يقظتين ويسجلها خطوة فخطوة. أما ملاحظاته التي ضمت حتى الآن عشرات الصيغ فقد نقلها بخط ديواني وبكل دقة إلى دفترين صغيرين مختلفين، قفل على أحدهما في خزنته الحديدية المقاومة للحريق، وحمل ثانيهما معه بصورة دائمة، حتى عند النوم، وشعر لذلك بالأمان. فالآن أصبح قادراً بنفسه، إن أراد، على استعادة وفهم معجزات غرنوي التي هزت كيانه عندما عايشها أول مرة. وظن أنه بمجموعة صيغه الخطية سيتمكن من وضع حد للفوضى الخلاقة المريعة المتدفقة من داخل تلميذه. وحقيقة أنه لم يعد يقف محملقاً كالأبله، بل مشاركاً في عملية الخلق بعينين يقظتين مدوناً كل ما يلاحظه منحته الراحة ودعمت ثقته بنفسه. وبعد فترة من الزمن استحوذت عليه فكرة أن دوره في إنجاح الروائح السامية لا يستهان به. وحالما يدون الصيغة في دفتره الصغير ويحفظه في خزنته أو بلصق صدره كان ينتابه شعور أكيد بأنها قد أصبحت ملكه هو.

وأسلوب العمل التنظيمي الذي فرضه بالديني لم يخلُ من فائدة بالنسبة لغرنوي، رغم أنه لم يكن بحاجة إليه. لم يكن غرنوي مضطراً لمراجعة صيغة عطر ما من الملاحظات كي يعيد تركيبه بعد أسابيع أو

شـهـور، فـهـو لا ينسى الروائح. لكنه بالاستـخدام الإلزامي للمـيـزان والمكاييل اكـتـسب لغـة العطارة، وأحس بغـريزته أن مـعـرفـة هذه اللغـة ستنفـعـه. بعـد أسـابيع قليلة أتقن غرنوي أسـمـاء كـافـة المواد المعطرة الموجودة في ورشة بالديني، لا بل أصبح قادراً على كتابة صيغة عطره بنفسه، وبالعكس، على أن يحول صيغة أو وصفة غريبة إلى عطر أو إلى أي مـسـتـحضـر عـاطر آخر. وأكثر من هذا! بعد أن تعلم التعـبـيـر عن أفكاره العطرية بالغرام والقطرة لم يعد بحاجة إلى الخطوة التـجـريبـيـة العـمليـة. فـعند تكليف بالديني له بابتكار رائحة طيبة جديدة، سواء لمناديل الجيب أو لمستحضرات التجميل، ما عاد غرنوي يلجأ إلى القوارير والمساحيق، بل كان يجلس بكل بساطة إلى الطاولة ويكتب الصـيـغـة مباشرة. لقد تعلم توسيع الطريق الممتد من تصوره الداخلي للرائحة إلى العطر الجاهز فإلى وضع الصيغة. من جهة نظر العالم أي من وجهة نظر بالديني، كان هذا تقدماً ملحوظاً. معجزات غرنوي بقيت كما هي. إلا أن الصيغ التي كان يزودها بها الآن خلصتها من كونها مرعبة، وفي هذا ميزة لا شك. وكلما ازداد إتقان غرنوي للعمليات الحرفية وطرائقها وأصبح أكثر طبيعية باستخدامه لغة العطارين التقليدية، كلما ضعف خوف ووسواس المعلم منه. صحيح أن بالديني مازال على اعتقاده بأن غرنوي رجل خارق الموهبة فيما يخص الروائح، لكنه لم يعد يعتبره فرانجيباني الثاني أو معلم سحرة رهيب، وغرنوي كان مسروراً بذلك، لأن إتقانه لعادات ومظاهر الحرفة سيساعده على تمويه حقيقته. وها هو قد فعلها حتى مع بالديني نفسه بإتقانه المثالي للعمليات عند وزن المواد وخض زجاجة المزج والتقطير على منديل التجريب الأبيض.

لقد قارب أناقة معلمه في فض المنديل وهزه والتلويح به بسرعة تحت أنفه. وبين الفينة والأخرى، بحساب زمني دقيق، كان يرتكب أخطاءً متعمداً أن يلاحظها بالديني: كأن ينسى استخدام الفلتر، أو يخطئ في تعيير الميزان، أو أن يسجل نسبة عالية جداً من صبغة العنبر في صيغة ما.. ويدع معلمه ينبهه إلى الأخطاء، قاصداً أن يصححها له، فيوهمه بذلك أن الأمور في نهاية الأمر طبيعية لا شائبة فيها. لم يبغ إرباك العجوز وتشويشه، فقد أراد فعلاً أن يتعلم منه. لا مزج العطور ولا نسبها الصحيحة، طبعاً لا! ففي هذا المجال لم يكن ثمة في العالم كله من لديه ما يعلمه إياه، والمواد الموجودة في محل بالديني كلها لا تكفي لتحقيق تصوراته عن عطر حقيقي عظيم. والروائح التي أنتجها هنا كانت بسيطة كلعب الأطفال بمقارنتها مع تلك التي يحتفظ بها في داخله والتي ينوي تحقيقها ذات يوم. لكنه كان يعرف أن الوصول إلى بغيته يتطلب توفير شرطين أساسيين لا غنى عنهما: أولهما توفير الغطاء الاجتماعي، أي الانتساب على الأقل إلى الجمعية الحرفية بصفة أجير مؤهل، فيتمكن تحت حمايتها من الانغماس في رغباته وأهوائه الحقيقية، ومتابعة أهدافه الأساسية دون أي إزعاج، وثانيهما معرفة جميع العمليات والطرائق الحرفية المستخدمة لإنتاج الروائح وعزلها وتركيزها وحفظها بحيث تكون جاهزة في الوقت المناسب لاستعمالها لهدف أعلى، فغرنوي كان يمتلك فعلاً أفضل أنف في العالم سواء من الناحية التحليلية أم التخيلية، لكنه لم يمتلك القدرة بعد على السيطرة على الروائح كمادة.

١٨

لهذا وبكل رغبة ترك لمعلمه أن يرشده في فن طبخ الصابون من دهن الخنزير، وخياطة القفازات من جلود معاملة بالمواد الكيميائية والطبيعية، وخلط البودرة من دقيق القمح وعجينة صمغ اللوز ومسحوق جذور البنفسج. كما تعلم برم الشموع العطرة من فحم الخشب ونيترات البوتاسيوم ونشارة خشب الصندل، وضغط السكاكر الشرقية من المر واللبان ومسحوق الكهرمان، وصنع الكرات الدخانية من البخور واللّك ونجيل الهند والقرفة، ونخل وفرز البودرة الملكية المركبة من مسحوق ورق الورد وزهر الخزامى وقشور الكارسكاريلا؛ حرك الخلائط التجميلية، البيضاء الزرقاء الفاتحة، وشكل الأصابع الدهنية وأصابع أحمر الشفاه. شطف أنقى مساحيق طلاء الأظافر ومبيّض الأسنان ذي نكهة النعناع. خلط سائل التجعيد المخصص لشعر الباروكات، وقطرة معالجة الثآليل والمسامير، وسائل معالجة نمش الوجه، وكحل العيون، ومرهم الذبابة الإسبانية للرجال، والخل المعقم للنساء.. كما تعلم تحضير كافة أنواع المياه والمساحيق ووسائل التواليت والتجميل، بالإضافة إلى خلط أنواع الشاي والبهارات والليكور والمخللات وما شابه ذلك. باختصار، لقد تعلم غرنوي كل معارف بالديني المتوارثة جيلاً عن جيل. صحيح أنه لم يبد كبير اهتمام بذلك، إلا أنه لم يتذمر، بل تفوق.

على نقيض ذلك أظهر غرنوي اهتماماً واضحاً بإرشادات بالديني له لدى تحضير الصبغات والعينات والخلاصات. كان لا يمل من هرس بذور اللوز المر أو دق حبات المسك أو تقطيع كتل العنبر بالسكين أو برش جذور البنفسج ليذيب مزيج المسحوق الناتج من ثم في أصفى أنواع

الكحول. تعلم استخدام قمع الفرز الذي يفصل الزيت النقي الناتج عن ضغط قشور الليمون عن العصير العكر. تعلم تجفيف الأعشاب والأزهار على شبكات في فيء دافئ، وحفظ أوراق النباتات الجافة في أوانٍ وصناديق مختومة بالشمع. واكتسب فن إزالة بقع الدهون وصناعة منقوع الحقن وتصفيته وتركيزه وتنقيته وتقطيره.

لم تكن ورشة بالديني بطبيعة الحال مناسبة لتصنيع كميات كبيرة من زيوت الأزهار والأعشاب. ومنطقة باريس ما كانت لتوفر أصلاً ما يكفي لذلك من النباتات الطازجة. كما أن نزعة بالديني الخيميائية لم تكن تنتعش إلا عندما تطرح في السوق كميات زهيدة الأسعار من أزهار السمكة وندى البحر والنعناع الطازجة أو من حب اليانسون وبراعم الزنبق وجذور الناردين، والكمون وجوزة الطيب والقرنفل. عندئذ كان يخرج إنبيقه الضخم المسمى بإنبيق الرأس المغربي، وهو عبارة عن برميل تقطير نحاسي مزود في أعلاه بوعاء تكثيف، كان يفتخر به، خاصة وأنه يستعمله منذ أربعين عاماً لتقطير الخزامى في الهواء الطلق على سفوح "ليفورين" الجنوبية أو على مرتفعات "لوبيرون". وبينما كان غرنوي منهمكاً بدق وسحق وبشر مواد التقطير، كان بالديني يسرع في تسخين الفرن - فالسرعة في معاملة المواد هي ألفباء الصنعة - ناصباً فوق برميله النحاسي الذي يملأ قاعدته بالماء، ثم يبدأ بقذف مواد التقطير فيه وهو يسد جداري الرأس المغربي عند الدعامات، موصلاً به أنبوبين لدخول وخروج الماء، وموضحاً لغرنوي أن جهاز التبريد الذكي المركب على رأس البرميل هو من بنات أفكاره، ففي الهواء المطلق آنذاك كانت التهوية كافية طبعاً لتحقيق التبريد المنشود. ثم يعود لنفخ النار في الفرن.

بدأ البرميل يغلي. وبعد برهة أخذ البخار يتحول إلى قطرات، ثم إلى خيط سائل ليصب عبر الأنبوب الثالث للرأس المغربي في الزجاجة الفلورنسية التي وضعها بالديني تحته. كان مظهره في البداية مزعجاً، كحساء ضعيف عكر. ولكن بالتدريج، بعد أن استبدلت الزجاجة بأخرى، وركنت جانباً، انفصل الحساء إلى سائلين مختلفين: ماء الزهر والأعشاب في الأسفل، وفوقه طبقة من الزيت الكثيف. فإن فتح المرء الآن سدادة الزجاجة الفلورنسية السفلى وترك ماء الزهر ذا الرائحة الخفيفة ينساب عبرها بحذر لتبقى لديه الزيت الصافي، أي خلاصة النبتة أو روحها ذات الرائحة الفواحة القوية.

فتنت العملية غرنوي وسحرته. وإن كان ثمة في الحياة ما يثير حماسه - ولا يمكن طبعاً أن يكون خارجياً مرنياً، وإنما داخلياً خفياً، كحماس ملتهب على لهب بارد - فهو هذه العملية بالنار والماء والبخار، وبهذه الآلة المبتدعة بهدف استخلاص الروح العطرة. وهذه الروح العطرة، هذا الزيت الأثيري هو أفضل ما في العملية، وهو كل ما كان يهمه منها. أما البقايا السخيفة، الزهر، الأوراق، القشور، الثمار، اللون، الجمال، الحيوية وكل ما هو فائض فيها، فلم يكن ليبالي بها على الإطلاق، إذ أنها لم تكن أكثر من قمامة لابد من التخلص منها.

بين الحين والآخر، عندما يصبح السائل المقطر بصفاء الماء، كانا يرفعان البرميل عن النار، يفتحانه ويفرغانه من المادة المطبوخة التي كانت تبدو صفراء باهتة وخاملة كقش مبتل، كعظام طيور صغيرة مصفرة، كخضار طبخت أكثر من اللازم فبهتت وتميعت فأضحت كالوحل، فاقدة كيانها الذاتي المميز، مقرفة كالرمم، ومجردة تقريباً من

خاصية عبقها. كانا يرميان المادة المطبوخة من النافذة إلى النهر، ليبدأا من جديد بصب الماء ويقذف المواد النباتية في البرميل بعد رفعه عن نار الفرن، ليغلي الماء فيه ثانية ولتصب عصارة حياة النباتات في الزجاجة الفلورنسية. غالباً ما كان يدوم هذا طيلة الليل، بحيث يهتم بالديني بشؤون الفرن، وغرنوي بالزجاجات. وخلال فترات تبديلها لم يكن هناك ما يمكن أن يفعلاه.

فكانا يجلسان على كرسيين صغيرين بقرب النار حول البرميل الضخم الثقيل. كلاهما أسير، ولكن لأسباب مختلفة. فبالديني كان يستمتع بالجمر وبحمرة اللهب والنحاس، ويحب أزيز الحطب المشتعل وصوت بقبقة الإنبيق، وفي هذا ما يدعو لسرحان الخيال والحلم. وبما أن الحرارة تستدعي الظمأ فقد تناول زجاجة نبيذ من المتجر. وبما أن لاحتساء النبيذ مفعوله كسابق الأيام فقد بدأ بالديني بسرد حكايات عن ذاك الماضي، لا أول لها ولا آخر: عن حرب الوراثة الأسبانية التي كان له ضلع كبير فيها ضد النمساويين، وعن فرسان القميص الذين أربك معهم قوافل المسؤولين من الأعداء، وعن ابنة أحد أتباع طائفة الهوغنوت التي سحرها أريج الخزامى فأسلمت نفسها له، وعن نجاته بأعجوبة من حريق غابة امتد إلى المنطقة كلها بسبب هبوب ريح الميسترال، وعن التقطير في الهواء الطلق، في ضوء القمر، مع النبيذ وصيحات الجنادب وعن ابتكاره آنذاك لزيت خزامى رائع وقوي إلى حد أن دفع الزبائن وزنه بالفضة، ولطالما عاود تكرار هذه الحكايات بالذات، ليعود من ثم لحكاياته عن فترة تدريبه في جنوه، عن سنوات تجواله وعن مدينة غراس التي بلغ عدد العطارين فيها مثل عدد الحذائين في مكان آخر والتي

يعيش فيها عدد كبير من الأغنياء كالأمراء في بيوت فاخرة ذات حدائق ظليلة وشرفات واسعة وغرف طعام بأثاث خشبي يأكلون فيها من صحون خزفية فاخرة وبأدوات طعام ذهبية، وما إلى ما هنالك..

كان بالديني يسرد هذه الحكايات وهو يحتسي الخمر، ونتيجة للخمر وحرارة الجمر ولشغفه بحكاياته نفسها، اكتست وجنتاه بحمرة ملتهبة.

أما غرنوي الذي جلس أبعد منه عن النار فإنه لم يسمع شيئاً مما قاله. لم تكن الحكايات القديمة لتهمه بقدر العملية الجديدة. كان يحدق باستمرار نحو ذاك الأنبوب المثبت على رأس الإنبيق والذي عبره يجري السائل المقطر. وخلال تحديقه كان يتصور نفسه كإنبيق مثل هذا، يغلي، ومنه يتدفق السائل المقطر، ولكن بصورة أفضل وأجد وأكثر إدهاشاً، سائل مقطر من نباتات نادرة ومنتخبة، زرعها في داخله بنفسه، حيث تزهر دون أن يشمها أحد سواه، نباتات سيحول عطرها الفريد العالم إلى جنة عدن، تكون الإقامة فيها من حيث روائحها محتملة بالنسبة له. كان غرنوي يحلم بأن يكون إنبيقاً هائلاً يغرق العالم بسائله المقطر الذي ينتجه بنفسه.

وبينما كان بالديني سارحاً تحت تأثير الخمر وهو يسرد حكاياته المتطرفة أكثر فأكثر، عما كان عليه الحال في الماضي، منغمساً أعمق فأعمق في تصوراته الخلاعية الفاجرة، قطع غرنوي حبل أحلامه الخيالية الغريبة، طرد تصوره عن الإنبيق الهائل من رأسه وفكر بدلاً عن ذلك بكيفية تسخير معارفه الجديدة لصالح أهدافه القريبة المدى.

١٩

لم ينقض وقت حتى صار غرنوي اختصاصياً على صعيد التقطير. واكتشف أن لحرارة النار تأثيراً حاسماً على جودة السائل المقطر، وفي ذلك ساعده أنفه أكثر من قواعد عمل بالديني. اكتشف أن كل نبتة أو زهرة أو خشب أو ثمرة زيتية تتطلب معاملة خاصة. فأحياناً يحتاج الأمر لأكبر كمية من البخر، وأحياناً لوقت محدد من الغليان، وبعض الزهور لا تنضح بأفضل ما فيها إلا عندما تتعرق على نار هادئة. ووجد بالإضافة إلى ذلك أن لعملية التحضير الأهمية نفسها. فلتقطير الخزامى والنعناع يمكن للمرء أن يضع في البرميل كميات كبيرة دفعة واحدة. أما الأنواع الأخرى من الأزهار والنباتات فيجب حسب كل منها أن تقطف زهورها بعناية، أو أن تقطع إلى أجزاء، أو أن تبشر، أو أن تهرس، أو حتى أن يضاف إليها السكر قبل قذفها في البرميل النحاسي. إلا أن ما جعل غرنوي يحس بالمرارة هو اكتشافه أن هناك الكثير مما لا يمكن تقطيره مطلقاً.

كان بالديني قد أطلق يدي غرنوي في تشغيل الجهاز بعد أن تأكد من قدرته على التعامل معه، فاستخدمه هذا إلى أبعد حدوده. فبينما كان يعمل نهاراً في مزج العطور والروائح وصنوف العطارة الأخرى، كان يكرس الليل لفن التقطير المليء بالأسرار، مخططاً لإنتاج روائح جديدة كلياً، كي يتمكن عبر ذلك على الأقل من خلق بعض الروائح الطيبة التي يحملها في داخله، لكنه لم يحقق في البداية أي نجاح على هذا الصعيد، صحيح أنه ابتدع زيتاً من زهور القرّاص وحبوب الجرجير، وماءً عطراً من قشور البيلسان الطازجة وأغصان شجر التنوب، لكن رائحة السائل

المقطر لم تشابه أبداً رائحة المواد الأساسية، ولكن كان فيها ما يكفي من الإثارة لحفظها واستخدامها في عمليات لاحقة. وفي الوقت نفسه كانت ثمة مواد فشلت معها طريقة التقطير فشلاً ذريعاً. فقد حاول غرنوي مثلاً بالتقطير أن يتوصل إلى رائحة الزجاج، الباردة اللزجة، والتي لا يمكن للإنسان العادي أن يحس بها، فأحضر زجاج نوافذ وقوارير وحطمه إلى شظايا ونثار - ولم يتوصل رغم ذلك إلى أي شيء. قطّر النحاس والخزف والجلد وحجر الصوّان. قطّر تربة الأرض لا على التعيين. قطّر الدم والخشب والسمك الطازج. قطّر شعر رأسه. في الختام قطّر حتى الماء، ماء نهر السين الذي بدا له رائحته المميزة جديرة بالحفظ. لقد اعتقد غرنوي أن بمقدوره استخلاص ما يميز روائح هذه المواد، مستعيناً على ذلك بجهاز الإنبيق، تماماً كما كان يحصل عندما يقطر الصعتر والخزامى وبذور الكمّون. لكنه كان يجهل أن عملية التقطير لا تؤدي إلا إلى فصل المواد عن بعضها، وحسب درجة كثافتها إلى جزئياتها، وأنها لا تعني للعطارين أكثر من فصل الزيت الأثيري لبعض النباتات عن بقاياها الخالية من أية رائحة أو عبق، وأن عملية التقطير لا تفيد شيئاً حيال المواد التي فقدت زيتها الأثيري.

وهذا واضح طبعاً بالنسبة للإنسان المعاصر المثقف فيزيائياً. أما بالنسبة لغرنوي فقد كانت هذه المعرفة تتويجاً لخيبات سلسلة من المحاولات، فلقد قضى ليالي طويلة أمام الإنبيق محاولاً بأي طريقة كانت بواسطة التقطير، التوصل إلى روائح طيبة جديدة، لا يعرفها العالم بعد في شكلها المركز هذا، إلا أنه لم يتوصل إلا إلى بعض زيوت النباتات السخيفة.

أما نبع تصوراته الغني الذي لا ينضب فقد بقي مستغلقاً عصياً، لم تخرج منه أية قطرة لرائحة محسوسة، وخاصة تلك التي كان يحلم بها.

وعندما أدرك مدى فشله سقط مريضاً حتى كاد أن يموت.

٢٠

خلال الأيام الأولى التي ارتفعت درجة حرارته وكان ينضح عرقاً. ثم وكأن مسام جلده ما عادت تكفي، طفح جسمه بالبثور الحمراء التي كانت تتفجر ساكبة محتواها المائي، لتعود وتمتلئ من جديد، في حين يتورم بعضها إلى خراجات حمراء تتشقق كفوهة البركان باصقة القيح اللزج المختلط بالدم الأحمر المصفر. وبعد فترة قصيرة بدا غرنوي كشهيد مرجوم من داخله بجسد متقرح، جروحه لا تندمل.

عندها جذع بالديني جزعاً شديداً خوفاً من فقدان تلميذه الثمين في اللحظة التي يمهد فيها للخروج بتجارته إلى ما يتجاوز العاصمة، بل حتى ما يتجاوز حدود البلاد. فغالباً ما جاءته طلبات، لا من خارج باريس فحسب، بل من بلاطات أجنبية أيضاً، ترجو تزويدها بالعطور المستحدثة التي جُنّت بها باريس. ولتغطية هذا كان بالديني يفكر بتأسيس فرع لمتجره في ضاحية "سان انطوان"، بمصنع صغير بكل معنى الكلمة ينتج ويبيع روائح الموضة بالجملة، معبأة في قوارير صغيرة أنيقة، تجهزها شابات صغيرات أنيقات للتصدير إلى هولندا وإنكلترا وإلى الإمبراطورية الألمانية. وهذا لم يكن جائزاً قانونياً لمعلم حرفة مقيم في باريس، لكن بالديني، بفضل روائحه المغرية، كان قد حاز مؤخراً على دعم من الجهات العليا، ليس من مدير أعمال الملك فحسب، بل أيضاً من

السيد مدير جمارك باريس، ومن عضو في وزارة المالية الملكية، ومن مناصر للمشاريع الصناعية المزدهرة مثل المسيو فيدو دو برو الذي كان يطمح للحصول على امتياز ملكي يستطيع بموجبه أن يحقق أقصى ما يتمناه المرء، أي الحصول على ترخيص مرور يمكن بموجبه تجاوز كافة الحواجز الجمركية الحكومية المركزية أو تلك التابعة للإقطاعيات، فتنتهي بذلك المتاعب التجارية كلها ويصبح الطريق الأبدي نحو الثراء المشروع مكفولاً.

وكان لدى بالديني مشروع آخر، حمله بين جنباته كالمرأة الحبلى، تواقاً لولادته. مشروع معاكس إلى حد ما لمشروع مصنع ضاحية "سان أنطوان"، لا ينتج بالجملة وإنما للمشتري العادي. كان بالديني يخطط لابتكار عطور خاصة بمجموعة من الشخصيات الراقية والأخرى السامية، عطور تناسب هذه أو تلك الشخصية. كالثياب المفصلة لها خصيصاً، لا تستخدم إلا من قبلها ولا تحمل اسماً سوى اسمها. كان يخطط مثلاً لعطر يحمل اسم "المركيز دي سيرناي"، أو اسم "الماريشال دو فيبار" أو اسم "دوق إغويون" وما إلى ذلك؛ بل حلم حتى بعطر يحمل اسم المدام "الماركيزة دو بومبادور" وحتى بعطر "صاحب الجلالة الملك" معبأ في قارورة منقوشة ومذهبة بأناقة بالغة، يحمل أسفلها اسم: "جوزيبه بالديني"، – عطار، محفوراً اسم الملك واسمه هو على القارورة نفسها! لقد وصلت أحلام بالديني حتى إلى هذا المستوى، في حين ارتمى غرنوي على مضجعه مريضاً، رغم قسم غريمال، رحم الله روحه، بأن غرنوي لا يمكن أن يمرض، ولا حتى بالطاعون الأسود. لكنه رغماً عني وعنك مريض! فماذا لو مات؟ أمر مريع! فعندئذ ستموت معه أحلامي بالمصنع، وبالفتيات الصغيرات الأنيقات، وبالامتياز، وبعطر الملك.

ونتيجة لذلك كله قرر بالديني أن يبذل كل ما بوسعه في سبيل إنقاذ حياة تلميذه الغالية. فأمر بنقله من مضجع الورشة إلى سرير نظيف مرتب في الطابق الثاني من المبنى وأمر بفرش السرير بالقماش الدمشقي الفاخر وتطوع بنفسه للمساعدة في حمل المريض إلى الطابق الثاني رغم قرفه الشديد من البثور والخراجات المتقيحة. كما أمر زوجته بتحضير حساء الدجاج المزوج بالنبيذ، ثم أرسل بطلب أشهر طبيب في المنطقة، المدعو بروكوب الذي ما كان ليتحرك من مكانه قبل نقده عشرين فرنكاً سلفاً.

جاء الطبيب، رفع الشرشف عن غرنوي برؤوس أصابعه، ألقى نظرة وحيدة على جسده الذي بدا وكأنه قد أصيب بمئة رصاصة، وغادر الغرفة دون حتى أن يفتح حقيبته التي كان مساعده يحملها خلفه دائماً. بدأ تقريره لبالديني بقوله: إن الأمر واضح تماماً، ثم فسر ذلك قائلاً بأن غرنوي مصاب بنوع من الزهري الجدري الأسود مختلطاً بحصبة قيحية في مراحلها الأخيرة. ولهذا، لا ضرورة للعلاج. خاصة وأن جهاز فصد الدم لا يمكن استخدامه حسب الشروط النظامية مع هذا الكيان المتفسخ الأقرب إلى الجثة منه إلى الكيان البشري الحي، وإذا أضفنا إلى ذلك أن الرائحة المتوقعة لقروح هذا المرض، لم تظهر حتى الآن، وفي هذا إلى حد ما، ما قد يثير جدلاً علمياً، فبوسعنا الجزم بأن الوفاة ستقع خلال اليومين القادمين دون أدنى شك، تماماً كعدم شكك بأن من يقف أمامك هو الدكتور بروكوب. ثم طالب بعشرين فرنكاً أخرى لقاء رؤيته المريض – خمسة منها يمكن استردادها في حال تسليم الجثمان بغية عرضه على تلاميذ الطب كحالة كلاسيكية تثبت صحة التشخيص، وغادر.

خرج بالديني عن طوره. ونتيجة ليأسه شكا وصرخ، وعض أصابعه غضباً على مصيره، على فساد تجارته وخططه الوشيك، والذي أخذ يتسرب من بين أصابعه كالزئبق، قبل تحقيق الهدف المنشود. سبب الفشل فيما مضى من الأيام، كان بيليسييه وأشباهه الموهوبين من مبتكري الروائح، أما الآن فهو هذا الفتى الذي لا ينضب نبع روائحه العطرة الجديدة، هذا الحقير التافه الذي لا يُستبدل ولا حتى بالذهب، والذي لم يخطر بباله أن يمرض بالزهري الجدري المتقيح إلا الآن! في مرحلة التأسيس! أما كان لهذا أن يحدث بعد سنتين مثلاً! بعد سنة! فحتى ذلك الحين كان بوسع المرء أن يستنزفه كمنجم فضة، أو كالحمار الذي يبيض ذهباً. كان بإمكانه أن يموت على راحته، خلال سنة! ولكن لا، فهو سيموت الآن، ويا إلهي، خلال يومين فقط!

للحظة فقط خامرت بالديني فكرة أن يحج إلى نوتردام، أن يشعل هناك شمعة راجياً الأم العذراء أن تمنّ على غرنوي بالشفاء. لكنه تخلى عن الفكرة نتيجة ضغط الوقت. وهرع لجلب الورق والأقلام، طارداً زوجته من الغرفة بحجة السهر على المريض بنفسه، ثم جلس على كرسي بلصق السرير، القلم والورق بين يديه، محاولاً استنزاف اعتراف عطري من غرنوي، إذ لا يجوز، بحق الآلهة، أن تدفن كنوزه التي يخبئها في داخله معه، قبل أن يفصح عنها، بالصوت على الأقل! بمقدوره في اللحظات الأخيرة أن يترك وصية، في أيد أمينة طبعاً، كي لا يحرم العالم إلى الأبد من أفضل ما ابتدعته قريحته من روائح! وهذه الوصية - مفتاح صيغ الروائح الطيبة - ستكون في حرز أمين لدى بالديني الذي سيبذل كل جهده للمحافظة عليها وتنفيذها. وسيحفظ لاسم غرنوي

مجداً خالداً لا ينسى! وإنه ليقسم بأسماء القديسين على أنه سيضع أفضل هذه العطور عند أقدام الملك، في قارورة أنيقة محفورة ملبسة بالذهب، وعليها الإهداء المحفور: "من جان باتيست غرنوي، عطار في باريس". هكذا تكلم بالديني، بل بالأحرى هكذا همس في أذن غرنوي، راجياً متوسلاً ومتزلفاً دون توقف.

لكن كل ما فعله ذهب هباءً، إذ لم يخرج من غرنوي سوى السائل المائي والقيح المختلط بالدم. كان مستلقياً على القماش الدمشقي الفاخر ناضحاً من جسده العصارات المقرفة، أما كنوزه، معارفه فقد بقيت خبيئة هذا الجسد، ولم يظهر منها ولا حتى صيغة عطر واحدة. كان يود بالديني أن يخنقه، أن يقتله، أن يمزق هذا الجسد المحتضر إرباً، كي يستخرج منه كنوزه الثمينة، كان بمقدوره أن يقدم على ذلك، لو رأى فيه أية نتيجة، حتى ولو تعارض مع إيمانه المسيحي بضرورة حب الآخرين، تعارضاً صريحاً.

لكنه تابع الترفق بالمريض محيطاً إياه بأنعم وأرق الأصوات، ماسحاً جبينه الغارق بالعرق وبراكين جروحه الملتهبة بكمادات باردة - وكم كلفه هذا من جهد مرعب لتجاوز قرفه -، مرطباً فمه بالنبيذ، محرضاً لسانه على النطق. استمر ذلك طيلة الليل، ولكن دون أي جدوى. وعند الفجر استسلم بالديني، والتجأ وهو في غاية الإرهاق إلى مقعد في الزاوية الأخرى من الغرفة، زاوله الغضب ليحل محله شعور بإحباط هادئ وهو يحدق في جسد غرنوي الصغير المحتضر المستلقي في السرير هناك، هذا الجسد الذي لم يعد بوسعه، لا إنقاذه ولا حتى سرقته، ما عاد بمقدوره أن يستفيد منه بأي شيء، فأصبح كقبطان سفينة لا حول له سوى متابعة غرق سفينته وهي تجرف معها إلى القاع كل ثروته.

وفجأة انفرجت شفتا المحتضر وصدر عنهما صوت واضح ثابت لا يتوقع من جسد منهار كهذا، قال: "أخبرني يا معلمي، هل هناك طريقة أخرى غير العصر والتقطير لاستخلاص رائحة جسم ما؟" وبطريقة آلية أجاب بالديني الذي ظن الصوت قادماً من العالم الآخر: "طبعاً، هناك طريقة أخرى".

"ما هي؟" جاء السؤال من السرير. فتح بالديني عينيه المتعبتين عن آخرهما ليجد غرنوي ساكناً بين الوسائد دون أي حراك. هل نطقت الجثة؟

"ما هي؟" جاء السؤال من السرير ثانية، وفي هذه المرة لاحظ بالديني حركة شفاه غرنوي، فقال في نفسه: "هذه هي النهاية، إنها سكرة الموت لا شك في ذلك". فنهض وتوجه إلى السرير، وانحنى فوق المريض. فتح هذا عينيه ونظر إلى بالديني تلك النظرة المتربصة الغريبة نفسها التي واجهه بها عند لقائهما الأول.

"ما هي؟" سأل.

لملم بالديني شتاته - إذ لم يرد أن يخيب آخر رجاء لمحتضر - وقال: "هناك ثلاث منها يا بني: أولاها مرث الأزهار بدرجة حرارة معينة، وثانيتها مرث الأزهار بدرجة برودة معينة، وثالثتها مرث الأزهار بالزيت أو الدهن. وهي كلها تفوق التقطير جودة، كما يلجأ المرء إلى استخدامها بهدف استخلاص أكثر الروائح روعة، كرائحة الياسمين والورد وزهرة البرتقال".

"أين؟" سأل غرنوي.

"في الجنوب. خاصة في مدينة غراس". أجاب بالديني.

"حسناً". قال غرنوي وأغمض عينيه.

نهض بالديني ببطء، كئيباً منقبض النفس. جمع أوراقه التي لم يخلط عليها حرفاً، ثم أطفأ الشمعة. في الخارج كان النهار قد انبلج، وبالديني كان في غاية الإرهاق. وفكر بأنه لابد من استدعاء الكاهن، لكنه صلّب بيمينه بسرعة وخرج من الغرفة.

أما غرنوي فقد كان في أوج حياته، كان فقط مستغرقاً في النوم وهو يمتص عصاراته. بثور جسده بدأت تجف والخراجات تنضب والجروح تلتئم؛ وخلال أسبوع كان قد شفي.

٢١

كان الأحب إلى قلبه هو أن يغادر من فوره إلى الجنوب، إلى حيث يمكن للمرء أن يتعلم الطرق الجديدة التي تحدث عنها العجوز. ولكن ما كان بوسعه حتى التفكير بذلك. فهو لا أكثر من تلميذ متدرب، أي لا شيء. وإذا نظرنا إلى الأمر بجدية تامة - هكذا أوضح له بالديني بعد أن تجاوز فرحته الأولى ببعثه - فهو أقل من لا شيء. فلكي يعتبر تلميذاً نظامياً لابد من أن تتوفر فيه شروط لا عيب فيها: معرفة أسماء الزوجين اللذين أنجباه، المنبت الاجتماعي المعترف به، وعقد الاتفاق بينه وبين معلمه، وهو، غرنوي، لا يملك شيئاً منها. وإن ساعده بالديني، رغم كل ذلك، بالحصول على شهادة التلميذ الحرفية، فسيكون ذلك فقط بسبب موهبة غرنوي المميزة، وبشرط أن يسلك في المستقبل سلوكاً قويماً سليماً، وكذلك نتيجة لطيبة بالديني اللامحدودة، والتي لن يتخلى عنها رغم ما سببته له من أضرار.

وطبيعي أن وفاء بالديني بوعده النابع من الطيبة الصافية قد استغرق قرابة الثلاث سنوات. خلال هذه المدة حقق بالديني بمساعدة غرنوي أقصى ما بلغته أحلامه. فأسس المصنع في ضاحية "سان أنطوان"، ودخل البلاط بعطوره الخاصة، كما حصل على الامتياز الملكي. وصلت منتوجاته العطرية إلى أسواق بطرسبورغ وبالرمو وكوبنهاغن، حتى أن أحد عطوره المتميز برائحة المسك كان مطلوباً في القسطنطينية نفسها، في موطن العطور، والله على ذلك شهيد.

كبريات متاجر وسط لندن كانت عابقة بعطور بالديني، تماماً كبلاط بارما، وفي قصر ملك وارسو لم يختلف الأمر عن قلعة الأمير ديتمولد. فبعد أن اقتنع بالديني بأنه سيقضي آخر أيامه في فقر مدقع في ميسينا، أصبح وهو في السبعين من عمره أشهر وأعظم عطار في أوروبا وأغنى مواطن في باريس.

في مطلع عام ١٧٥٦، بعد أن كان قد اشترى المنزل المجاور، وخصصه للسكن فحسب، بسبب امتلاء الأول حتى سقفه بمواد العطور والتوابل، فاتح بالديني غرنوي بأنه على استعداد لإطلاق سراحه، ولكن بشروط ثلاثة: أولها أن لا ينتج بنفسه أي عطر من العطور التي ابتكرت تحت سقف بالديني وأن لا يعطي صيغها إلى شخص ثالث؛ وثانيهما أن يغادر باريس وألا يعود إليها ثانية خلال حياة بالديني؛ وثالثها أن يتكتم على الشرطين الأولين تماماً. وأن عليه أن يقسم على كل ذلك بأسماء جميع القديسين، باسم روح أمه المسكينة وبشرفه الذاتي.

وغرنوي الذي لا شرف له، والذي لم يكن يؤمن بالقديسين ولا حتى بروح أمه المسكينة أقسم. كان بوسعه أن يقسم بأي شيء، وأن يقبل بأي

شرط يضعه بالديني لقاء حصوله على هذه الشهادة الحرفية السخيفة التي ستمهد أمامه الطريق للعيش والسفر والشغل دون أن يلفت الأنظار. أي أمر آخر كان بالنسبة إليه سيان. وما هي هذه الشروط أصلاً! ألا يعود إلى باريس؟ وما حاجته بباريس! فهو يعرفها ظهراً عن قلب، بل يعرف حتى أقرف زواياها، إنه يحملها في ذاته حيثما ذهب، إنه يمتلك باريس منذ سنوات. ألا يعاود إنتاج عطور بالديني الناجحة، وألا يقدم صيغها لآخر؟ ولكأنه عاجز عن ابتكار آلاف غيرها، بالجودة نفسها، بل أفضل، فقط إن أراد ذلك. إلا أنه لم يبغ هذا، ولا حتى الدخول في منافسة مع بالديني أو غيره من عطاري باريس البورجوازيين. لم يكن هدفه الوصول إلى الثروة بفنه، ولا حتى أن يعيش منه إن كانت هناك أية وسيلة أخرى لذلك. لم يبغ إلا إظهار ما هو كامن في ذاته، ولا شيء سوى ذلك. وكان يعتبر هذا الكامن في داخله أروع من كل ما يمكن للعالم الخارجي أن يقدمه. ولهذا لم تكن شروط بالديني بالنسبة لغرنوي شروطاً.

ذات فجر يوم من أيام مايو / أيار الربيعية انطلق غرنوي. كان قد حصل من بالديني على كيس ظهر صغير، على قميص ثانٍ،على زوجين من الجوارب، على قطعة كبيرة من اللحم المقدد، على غطاء حصان وعلى خمسة وعشرين فرنكاً. وهذا أكثر بما لا يقاس مما يجب على بالديني أن يقدمه، خاصة وأن غرنوي لم يدفع قرشاً واحداً لقاء العلم الذي حصل عليه عنده. إن واجب بالديني تجاهه لا يطالبه بدفع أكثر من فرنكين للطريق، ولا شيء سوى ذلك. إلا أن طيبته الغالبة إلى جانب ميله العميق الذي نما خلال سنوات العشرة الطويلة نحو جان باتيست الطيب

قد دفعاه لأن يفعل ما يفعل. تمنى له وافر الخير لرحلته، مذكراً إياه بضرورة ألا ينسى قسمه. كان بالديني مع هذه الكلمات قد أوصل غرنوي إلى باب الخدم، إلى حيث استقبله أول مرة، وتركه يمضي.

لم يصافحه مودعاً، فميله العميق نحوه لم يبلغ هذا الحد، علاوة على أنه لم يسبق أبداً أن أعطاه يده. ولطالما تجنب ملامسته، قرفاً، وخشية أن تلتصق به عدوى عار ما نتيجة هذه الملامسة. ودعه باختصار، فأحنى غرنوي رأسه وغادر إلى شارع خاوٍ من أي مخلوق.

٢٢

تابعه بالديني وهو يهبط الجسر باتجاه الجزيرة، صغيراً محني الظهر، حاملاً ربطة حاجياته على ظهره كحدبة من الخلف بدا غرنوي كرجل عجوز. وهناك عند قصر البرلمان حيث تنعطف الحارة غاب عن أنظاره، فشعر براحة حقيقية.

لم يستطع أن يحب هذا الشخص على الإطلاق، نهائياً، بوسعه أخيراً أن يعترف لنفسه بذلك. طيلة المدة التي آواه فيها عنده واستغله خلالها لم يشعر بالراحة. كان يشعر بنفسه كرجل فاضل يرتكب الإثم لأول مرة، كمن يلعب بأوراق مغشوشة. لاشك أن خطر اكتشافه كان ضئيلاً، في حين كانت فرصة نجاحه هائلة، ولكن كذلك كان القلق الدائم وعذاب الضمير. لم يمض يوم طيلة السنوات الماضية دون أن يساوره القلق من أنه لابد سيدفع ثمن تورطه مع هذا الشخص.

هل ستنتهي الأمور على خير يا ترى! كان يبتهل طيلة الوقت خائفاً قائلاً لنفسه: آه لو أجني ثمرة هذه المغامرة الجريئة دون أن تعاقبني السماء على ذلك! آه لو أنجو فقط! صحيح أن ما أفعله ليس عملاً صالحاً، لكن الرب سيغض نظره عني، مؤكد أنه سيفعل ذلك! لطالما أنزل بي طيلة حياته العقوبة تلو الأخرى، بشدة، ودون أي مبرر. أفليس من العدل الآن أن يتعامل معي بتسامح! أين تكمن خطيئتي، إن كانت خطيئة أصلاً؟ في أني تصرفت بقليل من الحرية خارج إطار النظم الحرفية، باستغلالي الموهبة الرائعة لتلميذ غير متدرب وادعاء قدراته لنفسي! أفي خروجي قليلاً عن أخلاق الحرفة التقليدية! أبإقدامي اليوم على فعل كنت ألعنه بالأمس! هل هذا جريمة؟ هناك أناس يقضون حياتهم كلها غشاً بغش. أما أنا فلم أغش إلا قليلاً، ولبضع سنوات ليس إلا، وفقط لأن المصادفة قد ساقت في طريقي فرصة لا تتكرر. وقد لا تكون محض مصادفة، بل قد يكون الرب نفسه هو الذي أرسل الساحر إلى بيتي ليعوضني عما مضى من المهانة التي لحقت بي على يدي بيليسييه وزلمه. أليس محتملاً أن تكون الإرادة الإلهية موجهة ضد بيليسييه، وليس ضدي! كيف إذاً ستكون عقوبة الرب لبيليسييه إن لم تكن بإعلائي فوقه؟ وبناء على ذلك تكون سعادتي أنا وسيلة لتحقيق العدالة الإلهية، ولذلك يتحتم عليّ قبولها، دون أدنى خجل، ودون أدنى إحساس بالندم...

هكذا كان يفكر بالديني خلال السنوات السابقة، صباحاً عند هبوطه الدرج الضيق إلى المتجر، ومساء عند صعوده الدرج نفسه محملاً بقطع الذهب والفضة ليعدها ويودعها خزنته. وليلاً عندما يضطجع إلى جانب هيكل زوجته الشاخر، غير قادر على النوم من فرط السعادة.

أما الآن، أخيراً، فقد انتهى كل شيء وذهبت معه الأفكار الوبيلة... لقد غادر ضيف الشؤم دون رجعة، وبقيت الثروة سالمة لأبد

الآبدين. وضع بالديني يده على صدره وأحس عبر قماش ردائه بالدفتر الصغير الملتصق بقلبه. الدفتر الذي يحتوي على ستمئة صيغة مدونة، أكثر مما بوسع أجيال بحالها من العطارين أن تبتكره. لو فقد اليوم كل شيء، فبوسعه بهذا الدفتر الصغير وحده أن يستعيد ثراءه خلال أقل من سنة. حقاً، ما الذي يمكن أن يتمناه أكثر من هذا!

سطعت شمس الصباح على أسطحة المنازل المقابلة، وعلى وجهه صفراء ودافئة، وهو ما يزال يحدق نحو الجنوب باتجاه قصر البرلمان – ويا له من شعور غامر بالارتياح أن لا يُري شيء من غرنوي! – ونتيجة لشعوره بعظيم الامتنان قرر أن يحج اليوم بالذات، دون تأخير، إلى نوتردام ليلقي بقطعة ذهبية في صندوق التبرعات، وليوقد ثلاث شموع وليركع شاكراً ربه على غمره إياه بمثل هذه السعادة اللامحدودة وعلى تجنيبه مغبة الانتقام.

لكن ولسوء الحظ ثمة ما أعاقه ثانية عن تحقيق نيته. فبعد الظهر عندما كان على وشك الذهاب إلى الكنيسة وصلت شائعة أن الإنكليز قد أعلنوا الحرب على فرنسا. لم يكن في الخبر بحد ذاته ما يزعج. إلا أن بالديني كان ينتوي أن يصدر اليوم بالذات كمية من عطوره إلى لندن. ولهذا بدلاً من الحج إلى نوتردام نزل إلى المدينة ليتسقط الأخبار، ولينتقل من ثم إلى مصنعه في ضاحية "سان أنطوان" ليوقف، مبدئياً الآن، شحنة لندن. وفي السرير ليلاً، قبل أن يغلبه النعاس بقليل، خطرت بباله فكرة عبقرية: بمناسبة الصراح الحربي القادم حول مستعمرات العالم الجديد سيغمر السوق بعطر يحمل اسم "شرف الفاتحين"، وهو عطر بطولي سيربح بالديني بنجاحه أضعاف الخسارة التي قد تترتب نتيجة لتوقيف

صفقة إنكلترا. بهذه الفكرة الحلوة التي راودت رأسه الخرف العجوز الذي وسّده المخدة بارتياح واطمئنان نظراً لوجود دفتر الصيغ العطرية الصغير تحتها، نام المعلم بالديني، وإلى الأبد.

فخلال الليل حدثت كارثة بسيطة، كانت السبب، رغم التأخير الطويل، في صدور أمر ملكي يقضي بإزالة كافة المباني عن جسور باريس كلها: إذ دون سبب معروف انهار الجانب الغربي من "جسر أوشانج" ما بين الدعامة الثالثة والرابعة، فتداعى منزلان كاملان فجأة بحيث لم يكن من الممكن إنقاذ أي من سكانهما. والضحايا، لحسن الحظ، كان شخصين فقط: جوزيبه بالديني وزوجته تيريزا. أما الخدم فقد كانوا، بعذر أو دون عذر خارج المبنيين. وشينييه الذي وصل عند الصباح إلى البيت قبل أن يصحو من سكرته، ولنقل أراد أن يصل إلى بيته – فالبيت لم يعد هناك – أصيب بانهيار عصبي. لثلاثين سنة مضت كان شينييه متعلقاً بأمل أن يذكره بالديني – الذي لا أولاد ولا أقارب له – في وصيته كوريث، أما الآن وبضربة واحدة، ذهب الميراث كله، كل شيء، البيت والمتجر والبضائع والورشة وبالديني نفسه، بل حتى الوصية التي ربما كان فيها أمل بتملك المصنع!

لقد اختفى كل شيء، الجثث والخزنة ودفتر الستمئة صيغة. الشيء الوحيد الذي تبقى من بالديني، من أعظم عطار في أوروبا هو رائحة مختلطة من المسك والقرفة والخل والبنفسج وآلاف الروائح الأخرى التي تضوع بها نهر السين من باريس حتى "لوهافر" ولأسابيع عديدة.

الجزء الثاني

٢٣

عندما انهار بيت جوزيبه بالديني كان غرنوي على الطريق نحو أورليان. خلف وراءه روائح المدينة الكبيرة، متقدماً مع كل خطوة نحو هواء أكثر نقاء وصفاء ونظافة، وبالتدريج أقل كثافة. لم تعد تلاحقه متراً فمتراً مئات وآلاف الروائح المختلفة والمتبدلة بسرعة، بل قلة منها، المتوفرة هنا، كرائحة الطريق المترب والمروج والتربة والنباتات والمياه، الروائح التي تعبق في المدى الشاسع، يحملها النسيم الهويني، متنقلة بانسياب هادئ، دون أي انقطاع باتر مفاجئ.

وفي هذه الخاصية وجد غرنوي نوعاً من الخلاص، فالروائح الطيبة الرفيقة تداعب أنفه. وللمرة الأولى في حياته لم يكن مضطراً لأن يشم مع كل شهيق شيئاً جديداً، غير متوقع، معادياً، أو لأن يفقد شيئاً ممتعاً. للمرة الأولى كان بوسعه أن يتنفس تقريباً بحرية، دون أن يتشمم متربصاً. لنقل "تقريباً"، إذ ليس بوسعه ما يعبر أنف غرنوي بحرية. فحتى عندما لم يعد هناك أي مبرر لذلك، بقي تحفظه الغريزي الدائم يقظاً في نفسه، تجاه كل شيء يأتي من الخارج ولابد من أن ينسرب إلى داخله. طيلة حياته، حتى في تلك اللحظات القليلة التي عاش فيها بوادر رضا وقناعة، بل حتى شيئاً من السعادة كان يفضل أن يزفر بدلاً من أن يستنشق، تماماً كما لم يبدأ حياته بنفسٍ متفائل، وإنما بصرخة قاتلة. ولكن بغض النظر عن هذه

المحدودية الملازمة له أحس غرنوي كلما ابتعد عن باريس براحة أكبر فتنفس بارتياح، وهدأت حركاته، وخطواته، وانتصبت قامته بحيث بدا عن بعد كتلميذ حرفي عادي، أي كإنساني طبيعي تماماً.

كان أقصى ما يُشعره بالانعتاق هو بعده عن البشر. ففي باريس كانت الكثافة البشرية بالنسبة لمساحة الحركة المتاحة أكبر من أية مدينة أخرى في العالم - فباريس كانت تعج بستة، بل بسبعمئة آلاف إنسان. كانت الشوارع والساحات تزدحم بهم، والعمارات من الأقبية حتى الأسطحة كانت تفيض بهم. لم تكن ثمة ثغرة في باريس دون بشر، ولم يكن هناك حجر أو رقعة أرض لا تفوح برائحتهم.

الآن فقط، بعد ثمانية عشر عاماً، مع انسحابه المتسارع من باريس أدرك غرنوي أن جوها المترع بهواء السديم الخانق هو ما كان يكتم أنفاسه. كان مقتنعاً طيلة الوقت بأن العالم بعامة هو ما هو عليه، وأن عليه أن يتقي شره. لكن العالم لم يكن السبب، بل البشر. وبدا له أن العالم، العالم البشري، قابل لأن يتأقلم المرء معه.

في اليوم الثالث من رحلته وصل غرنوي إلى حقل جاذبية روائح أورليان. قبل رؤيته، بمسافة طويلة، لأية علامة تدل على اقترابه من المدينة أحس غرنوي بالزخم البشري في الهواء، وحزم أمره، بعكس قراره السابق، أن يتجنب أورليان. لم يرد أن يفسد حرية التنفس التي حصل عليها مؤخراً بجو البشر الزنخ. تابع طريقه ملتفاً حول المدينة حتى وصل إلى نهر اللوار عند "شاتونوف"، وعبره عند "سوللي". وهنا انتهى زاده من اللحم المقدد، فاشترى قطعة جديدة وتابع طريقه مبتعداً عن النهر متوغلاً في السهول.

ومنذ تلك اللحظة تجنب غرنوي على طريق رحلته حتى القرى، مأخوذاً بالهواء الجديد الرقراق، الخالي من رائحة البشر. وفقط بغرض تعويض زوادته اقترب من قرية، بل من مزرعة معزولة، حيث اشترى الخبز ثم اختفى في الغابات. وبعد أسابيع قليلة لم يعد ليحتمل حتى رائحة المسافرين النادرين الذين يلتقيهم على دروبه غير المطروقة، ولا حتى رائحة الفلاحين الذين يخرجون في مواقيتهم المعتادة إلى حش بقايا الزرع. ثم أصبح يتجنب قطعان الماشية، لا بسبب الغنم نفسه، وإنما تجنباً لرائحة الراعي. تغلغل في الحقول، محتملاً الكثير من الطرق الجانبية الطويلة، لدى تشممه، ولو على مسافة ساعات، رائحة فرسان مقتربين. لا لأنه، ككثير من الحرفيين والمتبطلين، كان خائفاً من الرقابة والسؤال عن أوراقه، خشية جرهم إلى الخدمة العسكرية - فهو لم يعلم أصلاً أن هناك حرب - ولكن فقط، لأنه كان يقرف من رائحة الفرسان. وهكذا تلاشت خطته التي كان يريد بموجبها الوصول إلى "غراس" بأسرع السبل. لم يعد غرنوي راغباً بالوصول إلى مكان محدد، وإنما فقط بالابتعاد عن البشر، أياً كانوا.

وخلال المرحلة الأخيرة لم يعد يتحرك إلا ليلاً. أما خلال النهار فقد كان يختبئ تحت أكوام العشب أو بين الأجمات، أي في الأماكن التي لا يمكن لأحد أن يطرقها، منكفئاً على نفسه كالحيوان، ساحباً فوقه غطاء الخيل ذا اللون البني، وأنفه مكوراً تحت إبطه باتجاه الأرض، كيلا تزعج أحلامه أية رائحة غريبة. ومع الغروب كان يستيقظ، ليمد أنفه في الاتجاهات كلها متشمماً، وعندما يتأكد من أن آخر فلاح قد غادر حقله وأن آخر متجول قد لجأ إلى مكان ما قبل حلول الظلام، وعند هبوط

الليل الذي يخلي الأرض من أية أخطار بشرية محتملة، كان غرنوي يزحف خارجاً من مخبئه ليتابع رحلته، لم يكن بحاجة إلى النور كي يرى، وغالباً ما كان خلال أيام تجواله السابقة يغمض عينيه، ليتابع طريقه بأنفه. فقد كان ضوء القمر الذي يجهل الألوان ويرسم معالم الأرض دون تزويق، ضوء القمر الذي كان يجلل الأرض بلونه الرمادي الوسخ ويخنق الحياة ولو لليلة، هذا العالم المسكوب كالرصاص، الذي لا تتحرك فيه سوى الريح التي تغطي الغابات الرمادية أحياناً كالظل، والذي لا يحيا فيه سوى روائح الأرض الجرداء، هذا العالم وحده هو الذي كان يعترف به، لأنه يشابه عالم روحه.

على هذا المنوال تقدم غرنوي باتجاه الجنوب، تقريباً، إذ لم يكن يهتدي ببوصلة مغناطيسية، وإنما ببوصلة أنفه فحسب التي دفعته إلى تجنب أية مدينة أو قرية أو مزرعة على الطريق.

انقضت أسابيع دون أن يقابل أي إنسان، وكاد أن يقتنع بأنه الوحيد على هذه الأرض المعتمة التي لا ينيرها سوى ضوء القمر البارد، لو لم تقنعه بوصلته الحساسة بغير ذلك.

فالبشر موجودون في الليل أيضاً، وحتى في أقصى بقاع الأرض. الفارق الوحيد هو أنهم كالجرذان قد ارتدوا إلى جحورهم وناموا. لكن الأرض ليست نقية من آثارهم، فهم حتى في نومهم يخرجون روائحهم التي تتسرب عبر النوافذ المشرعة، وحتى عبر شقوق البناء إلى الخارج، لتفسد الطبيعة. وكلما ازداد تعود غرنوي إلى الهواء الأنقى كلما ازدادت حساسيته تجاه أية رائحة بشرية تفاجئه بصورة غير متوقعة، قادمة من مكان ما، كريهة ومقيتة، مشيرة إلى وجود بيت راعٍ أو كوخ

عمال مناجم أو مغارة لصوص. وكان هذا يدفعه إلى التوغل أبعد فأبعد مع تفاقم حساسيته من الرائحة البشرية. وهكذا قاده أنفه إلى قصي الأماكن، مبعداً إياه بالتدريج عن البشر، جازفاً إياه بقوة متزايدة نحو نقطة هي قطب العزلة.

٢٤

هذا القطب، أي النقطة الأكثر نأياً عن البشر في المملكة كلها كانت في سلسلة جبال "سنترال" في منطقة "أوفرج" على مسافة خمسة أيام سفر من "كليرمون" جنوباً، على قمة بركان "بلومب دو كانتال" الذي ينتصب شاهقاً بارتفاع ألفي متر.

كان الجبل على شكل مخروط هائل من الصخر ذي اللون الرمادي الزئبقي، محاطاً بسهل مرتفع شاسع وقاحل مغطى بطحالب رمادية وأدغال رمادية. وهنا وهناك كانت تظهر بعض النتوءات الصخرية البنية اللون كالأسنان الفاسدة إلى جانب بعض الأشجار المحترقة المتفحمة.

وحتى في عز النهار كانت تبدو المنطقة موحشة مقبضة بلا واقعيتها، لا تشجع حتى أفقر الرعاة في هذا المحيط الفقير على الاقتراب منها بقطيعه. وليلاً في نور القمر الشاحب كان يبدو هذا القفر المهجور حتى من الرب نفسه كجزء من عالم آخر لا يمت لعالمنا بصلة، لدرجة أن المجرم ليبرون الشهير في "أوفيرج" كلها فضل أن يخاطر بعبور جبال "سيفين"، حيث أمسكوا به ومزقوه إرباً، على أن يختبئ في "بلومب دو كانتال" حيث ما كان ليبحث عنه أو يجده أحد؛ لكنه كان متأكداً من أن الموت نتيجة الوحدة والعزلة عن الحياة سيكون أكثر

شناعة. لمسافة أميال حول الجبل لم يكن هناك أي إنسان أو حيوان حقيقي ذي دم حار، سوى بعض الخفافيش والجعران والأفاعي. ومنذ عشرات السنوات لم يتسلق أحد القمة.

وصل غرنوي إلى الجبل في ليلة من شهر آب / أغسطس عام ١٧٥٦. عندما انبلج الفجر كان على القمة. لم يكن يعلم بعد أن رحلته قد انتهت هنا، بل ظنها مجرد محطة على الطريق نحو أجواء أنقى. تلفت حوله رامياً بصر أنفه إلى المدى الشاسع للقفر البركاني: باتجاه الشرق إلى هضاب "سان فلور" ومستنقعات نهر "ريو"؛ باتجاه الشمال إلى المنطقة التي قدم منها عابراً طيلة أيام جبال "كارست"؛ باتجاه الشرق إلى حيث حملت إليه ريح الفجر رائحة الصخر والحشائش اليابسة ولا شيء سوى ذلك؛ وأخيراً باتجاه الجنوب نحو امتدادات "بلومب دو كانتال" حتى شعاب "تروييه" القاتمة البعيدة. كان البشر بعيدون في الاتجاهات كافة، ومع ذلك فإن أي خطوة في أي اتجاه كانت تعني الاقتراب الأكبر منهم. تاهت البوصلة في دورانها ولم تعد تشير إلى أي اتجاه. لقد وصل غرنوي إلى هدفه. لكنه في الوقت نفسه أضحى أسيره.

عندما أشرقت الشمس كان غرنوي لا يزال في البقعة نفسها رافعاً أنفه في الهواء، محاولاً بجهد اليائس التقاط الاتجاه الذي يتهدده منه خطر البشر، والاتجاه المعاكس الذي عليه متابعة فراره فيه. في كل اتجاه كان يرتاب ببقية رائحة بشرية خفية، لكنه لم يجد شيئاً. لم يكن هناك سوى السكون، أو سكون الروائح، إن جاز التعبير. في كل مكان من حوله سيطرت رائحة متجانسة صادرة عن الصخر الميت والنتوءات المكشرة والعشب الجاف، تهف كنسمة خفيفة، ولا شيء سواها.

احتاج غرنوي لفترة طويلة كي يصدق ما لم يشمه. لم يكن جاهزاً لسعادته بعد. لذلك طالت مقاومة شكوكه لعقله. ومع ارتفاع الشمس لجأ إلى الاستعانة بعينيه أيضاً مفتشاً عن الأفق عن أية دلالة على وجود بشري، عن سقف كوخ، عن دخان نار، عن سور أو جسر أو قطيع. وضع يديه على أذنيه وأنصت باحثاً عن صوت منجل أو نباح كلب أو صراخ طفل. قضى النهار كله، حتى في عز الحر، واقفاً على قمة "بلومب دو كانتال" مفتشاً عن أي دليل، ولكن دون جدوى. وعند الغروب بدأت شكوكه تتراجع مفسحة المجال أمام إحساس متعاظم بالنشوة: فلقد أفلت من الحقد المقيت! إنه حقاً لوحده تماماً! إنه الإنسان الوحيد في العالم!

تصاعدت من أعماقه فرحة هائلة، كفرحة من نجا من سفينة غارقة فرأى جزيرة مأهولة بعد أسابيع طويلة من الضياع في البحر. هكذا كانت فرحة غرنوي بوصوله إلى جبل الوحدة. صرخ من فرط السعادة. رمى كيس ظهره وغطاءه وعصاه وأخذ يخبط الأرض بقدميه، رافعاً ذراعيه، راقصاً دائراً حول نفسه، صائحاً باسمه في الجهات الأربع، ضاماً قبضتيه، هازاً إياهما بحماس في وجه الأرض الشاسعة الممتدة تحته وفي جو الشمس الغاربة بانتصار، وكأنه هو الذي طردها من السماء. حتى أعماق الليل بقي غرنوي يتصرف هكذا كالمجنون.

٢٥

قضى غرنوي الأيام التالية في تدبير أمور معيشته على الجبل، لقد اقتنع بأنه لن يغادر هذه المنطقة المباركة قبل مضي فترة من الزمن. بدأ بالبحث عن الماء، ووجده في شق تحت القمة بمسافة قريبة، ينساب

كشريط رفيع على الصخر. لم يكن كافياً، لكنه إن استمر في لعقه لساعة من الزمن فسيشبع حاجته منه ليوم كامل. كما وجد الغذاء أيضاً، كالسحالي الصغيرة والأفاعي والعشب والتوت الطحلبي. هذه الطريقة في التغذية، المرفوضة تماماً حسب المعايير البرجوازية، لم تزعجه بأي شكل من الأشكال، فهو حتى خلال الأسابيع والشهور الأخيرة لم يتناول أي طعام من صنع البشر مثل الخبز واللحم المقدد والجبن، بل كان عندما يحس بالجوع يتناول كل ما تصل إليه يده خلال الطريق. لم يكن ذواقاً أبداً، ولا علاقة له بالمتع الحسية أياً كانت، إلا متعة الرائحة النقية المجردة، كما أنه لا يأبه كثيراً بمسائل الراحة، فكان يقنع بأن يفترش الصخر العادي. لكنه وجد ما هو أفضل من ذلك.

اكتشف بالقرب من مكان الماء نفقاً طبيعياً يؤدي بعد انعطافات ضيقة كثيرة إلى قلب الجبل، وينتهي بعد ثلاثين متراً بفسحة ترابية ضيقة. لامس كتفا غرنوي الصخر إلى الجانبين، وكان عليه أن ينحني كي يتمكن من العبور. ولكن كان بوسعه أن يجلس، وإن تكور على نفسه فبوسعه أن يستلقي. وكان في هذا أقصى مبتغاه فيما يخص الراحة، فللمكان ميزات لا تقدر: ففي نهاية النفق كان المكان مظلماً حتى في عز النهار، وهادئاً كالموت، والهواء فيه رطب ندي مالح. ومن فوره شم غرنوي أن المكان لم تدخله حياة من قبل. وعندما امتلكه لنفسه غلبته رهبة مقدسة. فرد غطاء الحصان بعناية على الأرض كمن يغطي محراباً، ثم اضطجع فوقه وشعر بسعادة غامرة. استلقى في أكثر جبال فرنسا وحدة ووحشة، على عمق خمسين متراً تحت السطح، كمن يستلقي في قبره الخاص. لم يسبق له في حياته أن شعر بالأمان كالآن، ولا حتى

في بطن أمه. لو احترق العالم في الخارج فإنه هنا لن يلاحظ من ذلك شيئاً. أخذ يبكي بصمت، ولم يعرف لمن عليه أن يتوجه بالشكر على كل هذه السعادة.

خلال الفترة التالية لم يبرح غرنوي كهفه إلى الخارج إلا ليلعق الماء، أو ليتبول ويتغوط بسرعة، ولكي يصطاد السحالي والأفاعي، وكان يسهل عليه ذلك ليلاً لأنها كانت تختبئ تحت الأحجار أو في جحور صغيرة، فيكتشفها بأنفه.

لم يصعد إلى القمة خلال الأسابيع الأولى إلا مرات معدودة ليراقب الأفق. وسرعان ما أصبح هذا عادة ثقيلة أكثر منها ضرورة، إذ أنه لم يشم ما يهدده في أي من تلك المرات. وهكذا أوقف أخيراً جولاته، مركزاً على ضرورة العودة إلى مقامه بأسرع ما يمكن بعد أن ينجز الأمور الضرورية للبقاء على قيد الحياة، فهنا في هذا المقام كانت حياته الفعلية، أي أن يجلس ما ينوف عن العشرين ساعة في اليوم في ظلام كامل وهدوء كامل وسكون كامل، على غطائه في نهاية الممر الصخري مسنداً ظهره إلى لفة حاجياته، ضاغطاً كتفيه بين الصخور، مكتفياً بذاته.

معروف أن هناك أناساً يبحثون عن الوحدة كالتائبين والفاشلين والقديسين والأنبياء. وهم غالباً ما ينسحبون إلى الصحراء حيث يقتاتون الجراد والعسل البري. بعضهم يعيش في المغاور أو الصوامع في جزر نائية، أو يدخلون - بشيء من الاستعراضية في أقفاص معلقة في الهواء. وهم يفعلون ذلك كي يكونوا أقرب إلى الرب. بالوحدة يزهدون في رغباتهم وعبرها يحققون التوبة، منطلقين في ذلك من إيمانهم بأن حياتهم هذه ترضي الرب. أو أنهم يقضون شهوراً وسنوات في حالة التوحد منتظرين الرسالة الإلهية، كي يهرعوا ويبشروا بها البشر.

لا شيء من هذا كله ينطبق على غرنوي. فالرب لا يشغل باله أبداً. وهو ليس تائباً ولا ينتظر وحياً سماوياً. فقط لمتعته الذاتية الخاصة والوحيدة اعتزل العالم كي يكون بقرب نفسه. كان مستغرقاً استغراقاً كلياً في وجوده الذاتي، دون أن يعكر صفوه أي شيء، واجداً في ذلك أقصى متعته. كان يستلقي كجثمانه الذاتي في مقامه الصخري، يكاد لا يتنفس، ويكاد قلبه لا ينبض، حياً بعمق منغمساً في تخيلاته كما لم يسبق لإنسان لعوب في العالم الخارجي أن عاش.

٢٦

ولم يكن مسرح هذه التخيلات الطليقة بطبيعة الحال سوى ملكوته الداخلي الذي دفن داخل حدوده منذ ولادته كل الروائح التي سبق أن صادفها. ولكي يهيئ لنفسه الجو المناسب كان يبدأ باستحضار الروائح الأولى، الأكثر بعداً: كرائحة أنفاس الأب تيرير الحامضة كالخل؛ وكرائحة عرق المرضعة بوسي الأمومية الدافئة الهيستيرية؛ أو رائحة الجثث في مقبرة الأبرياء؛ أو رائحة أمه القاتلة. فرتع في القرف والحقد إلى أن وقف شعر رأسه من الهول المستعذب.

وأحياناً عندما لم تكن هذه المقبلات المروعة لتكفيه كي يسلطن، كان يسمح لنفسه بقفزة روائحية لعند غريمال ليتذوق بأنفه الرائحة العطنة للجلود الخام المغطاة باللحم ورائحة سوائل الدبغ أو يتخيل الأبخرة المتصاعدة من ستمئة ألف باريسي في قيظ الصيف الراسخ فوق المدينة.

وفجأة - هكذا كان مغزى التمرين - كان يندفع حقده المتراكم منفجراً كذروة اللذة الجنسية، مهاجماً كالعاصفة هذه الروائح التي تجرأت

على إهانة أنفه السامي. كان يكر عليها كما البَرَد على حقل ذرة، كما الإعصار كان يفرقها ويسحقها ويغرقها في طوفان هائل من الماء المعقّم المطهّر. هكذا كان عدل غضبه، وبهذه الروعة كان انتقامه. آه! يا لها من لحظة سامية! وغرنوي. هذا الرجل الصغير، كان ينتفض من الإثارة فيتشنج جسده من فرط اللذة ويتكور لينتصب دفعة واحدة بحيث يلامس مفرق شعره سقف النفق، وليتداعى من ثم ببطء مستلقياً، منعتقاً ومشبعاً حتى الثمالة. كان حقاً فعلاً مريحاً، هذا الفعل الماحق، للقضاء على الروائح القذرة كلها، فعلاً مريحاً جداً... هذا المشهد بالذات كان الأقرب إلى نفسه من كل مشاهد مسرح عالمه الداخلي الخاص، لأنه يوفر الشعور بالإرهاق الناتج عن الإنجاز، والذي لا يتحقق إلا عقب الأفعال البطولية العظيمة حقاً. لاشك أن من حقه الآن أن يسترخي لفترة من الزمن وبضمير هادئ. فتمدد بأقصى ما يسمح المكان لجسده أن يتمدد. أما داخلياً، على بسط روحه المطهرة فقد تمدد بكل ارتياح آخذاً مداه الكامل، وغفى حالماً بروائح راقية تداعب أنفه: بنسمة مبهّرة مثلاً قادمة من مروج ربيعية؛ أو بريح خفيفة تهف عبر أوراق شجر الزان الأولى في أيار / مايو، أو بنسمة بحرية مرّة بنكهة اللوز المملح. كان الوقت مشارفاً المغرب عندما نهض - نقول تجاوزاً مشارفاً المغرب، إذ لم يكن هناك طبعاً ثمة مغرب أو ظهر، مساء أو صباح، لا نور ولا ظلمة، لا مروج ربيعية ولا أوراق زان يانعة الخضرة... ليس ثمة في كون غرنوي الداخلي موجودات محسوسة، وإنما عبق الأشياء لا غير. (ولهذا هي طريقة كلام فحسب، أن نصف هذا الكون كمنظر طبيعي، وهي الإمكانية الوحيدة المناسبة لذلك، فلغتنا قاصرة عن وصف العالم المشموم). كان

الوقت إذاً مشارفاً المغرب، والمقصود بذلك هو حالة وفاصل زمني في نفس غرنوي، معروف في المناطق الجنوبية عند الاستيقاظ من استراحة بعد الظهر؛ عندما يأخذ شلل الظهيرة بالزوال تدريجياً، فتعود الحياة المؤجلة إلى الاستمرار. كان الفيظ الحارق الحاقد - عدو الروائح السامية - قد تراجع، وتقهقرت معه شياطينه مهزومة. فبدت الرياض الداخلية سانحة وهشة في هدوء اليقظة الغامض، منتظرة مشيئة سيدها.

نهض غرنوي إذاً ونفض آثار النوم عن أعضائه. غرنوي الجواني العظيم وقف، كالعملاق وقف، ببهائه وعظمته كلها. وكم كان منظره رائعاً، ولكن للأسف، لم يره أحد. وقف وألقى بنظرة من حوله، بفخر وجلال:

طبعاً! فمحيطه كان ملكوته! ملكوت غرنوي الفريد في نوعه! ملكوت خلقه غرنوي الفريد في نوعه، هو المهيمن عليه وهو القادر بمشيئته أن يدمره، أن يعيد خلقه، أن يوسعه إلى ما لا نهاية وأن يحميه بسيف لهيبه من أي دخيل. لا سلطة هنا سوى لعالمه، لإرادة غرنوي العظيم الرائع الفريد. وبعد أن قضى على روائح ماضيه العطنة أرادت مشيئته أن يعبق عالمه. خطا واثقاً في الممرات القفر، باذراً روائح الطيب بمختلف أنواعها، بسخاء هنا، وباقتصاد هناك، في بيارات شاسعة لا حدود لها، وفي أحواض صغيرة حميمة، ناثراً البذور بملء كفه، أو بذرة بذرة، دافناً إياها في أماكن مختارة. وصلت خطوات غرنوي العظيم، البستاني المهووس، إلى أقصى مجاهل عنكبوته، وسرعان ما لم تتبق زاوية في حقوله دون بذرة عبق.

وعندما أحس بالرضا لكون الأرض كلها قد أشبعت ببذور غرنوي

الإلهية، أمر بمطر كحولي أثيري، رخي لا ينقطع ولا يختل توازنه، فبدأت البذور تنتش وتترعرع، وانبثق الخضار اليانع بما يسر الفؤاد. وسرعان ما غمر الزرع البيارات، وفي الحدائق الخفية اغتنت السوق بالنسغ وتفتقت براعم النباتات فاجرة بمكنوناتها.

أمر غرنوي العظيم المطر أن تكف، فكان. ثم أرسل ابتسامة الشمس الناعمة فوق الحقول، فتفجرت روعة الأزهار بملايين مضاعفة، من مطلع الملكوت إلى ختامه، متحولة إلى سجادة ملونة منسوجة من ألوف مؤلفة من أروع الأوراق والأزهار الأريجية. ورأى غرنوي العظيم أن كل شيء بخير، بخير وافر، فنفخ ريح نَفَسه فوق الأرض لتداعب النبت الذي رضخ للغزل، ففغت ألوفه المؤلفة بعبق متنوع، مختلف الأريج بين الحين والحين، ومتوحد من ثم في عبق كوني مستمر، بمجده، بمجد الفريد الأوحد، العظيم غرنوي، المتوج على عرش سحابة عطر ذهبية. من على عرشه تنشق غرنوي نَفَسه المرسل، فملأت رائحة الضحية جوانحه بالرضا. فهبط إلى خلقه موزعاً بركاته الكريمة، فاستقبلته مخلوقاته بصيحات وصرخات الغبطة والابتهاج، مرسلة إليه موجات من العبق الإلهي شكراً وزلفى. خلال ذلك كان الظلام قد حل، وتطايرت الروائح العبقة ممتزجة بزرقة الليل، متنقلة بذلك إلى إيقاعات أشد فانتازية، بحيث احتفل الليل بلعبة ألعاب نارية من العبق لا مثيل لها، من حيث الضخامة والأبهة.

لكن غرنوي العظيم كان قد تعب وأخذ يتثاءب، فقال: "ها قد أنجزت عملاً عظيماً، وأنا راضٍ عنه كل الرضا. لكن كل ما هو منجز تام يشعرني بالملل. لذلك سأنسحب، سامحاً لنفسي في نهاية هذا النهار الزاخر بالعمل، باللجوء إلى مكامن ذاتي بحثاً عن بقية سعادة".

هكذا تكلم غرنوي العظيم، بينما كان الشعب البسيط، شعب الروائح العبقة في الأسفل يرقص ويحتفل مسبحاً بحمده، ثم أبحر بجناحيه المشرعين هابطاً من سحابته الذهبية عبر أرض روحه الليلية إلى بيته في قلبه.

٢٧

يا لها من سعادة بعودة المرء إلى بيته! فالقيام بالمهمة المزدوجة، كمنتقم، وكخالق عوالم، لم يكن أمراً يسيراً. وأن تحتفل بك مخلوقاتك ساعات طوالاً فيما بعد لم يحقق أيضاً الراحة الصافية المنشودة. ولهذا فإن غرنوي العظيم الذي أتعبه فعل الخلق والظهور أمام نسله، تاق إلى السعادة البيتية الحنون.

كان قلبه قصراً أرجوانياً، في صحراء صخرية، متدارياً وراء كثبان ومحاطاً بواحة مستنقعية، خلف سبعة جدران حجرية. وما كان الوصول إليه ممكناً إلا جواً. كان يشتمل على ألف حجرة وألف قبو وألف صالون فاخر، بالإضافة إلى كنبة أرجوانية بسيطة يضطجع عليها غرنوي الذي لم يعد الآن ذاك غرنوي العظيم، وإنما غرنوي فحسب، بل بكل بساطة جان باتيست غرنوي الطيب والمرهق من أعباء اليوم.

أما حجرات القصر فقد كانت مزودة برفوف من الأرض إلى السقف، تضم كافة الروائح التي جمعها غرنوي خلال حياته، ملايين الروائح. وفي أقبية القصر هجعت في البراميل أطيب روائح حياته. وحال نضجها كانت تُصب في زجاجات تُصف من ثم في دهاليز باردة رطبة بطول كيلومترات، مرتبة حسب السنة والمنشأ. وكان هناك منها الكثير، بحيث لا تكفي حياة بكاملها لاحتسائها.

وأخيراً عندما وصل جان باتيست الطيب إلى موطنه، إلى مرقده، في الصالون الأرجواني واستلقى على الكنبة البسيطة بعد أن خلع أخيراً حذاءه، صفق طالباً خدمه الذين لا يمكن للمرء أن يراهم أو يسمعهم أو يحس بهم أو حتى أن يشمهم، أي خدمه المتخيلين، وأمرهم بالتوجه إلى الحجرات كي يحضروا من مكتبة روائحها كتاب هذه أو تلك الرائحة، وبالهبوط من ثم إلى القبو لإحضار المشروبات. هرع الخدم المتخيلون، وفي انتظار عودتهم المقلق المرجع توترت معدة غرنوي، وانتابه إحساس كالمدمن الجالس إلى طاولته، الخائف من أن يرفض النادل لسبب ما إحضار الشراب الذي طلبه. ماذا لو كانت الحجرات والأقبية خاوية فجأة؟ ماذا لو أن الخمرة في البراميل قد فسدت؟ لماذا يتركونه ينتظر؟ لماذا لا يأتون؟ إنه بحاجة للمشروب فوراً، بله هو مضطر للحصول عليه. إنه مدمن عليه، وإن لم يحضروه له فسيموت في مكانه.

ولكن إهدأ يا جان باتيست! إهدأ يا عزيزي! إنهم قادمون، وسيحضرون لك ما تشتهيه. ها هم مسرعون إليك، يحملون على الصواني اللامرئية كتاب الروائح، وفي أيدٍ بقفازات بيضاء لا مرئية يحملون أثمن الزجاجات يضعونها أمامك بروية، ينحنون ويغادرون.

وبعد أن يتركوه لوحده - أخيراً لوحده! - ينقض جان باتيست على الروائح المشتهاة، يفتح الزجاجة الأولى ويترع كأسه منها، يقربه من شفتيه ويشرب. وبجرعة واحدة يكون قد شرب كأس الرائحة المبردة، ليجده رائعاً إلى حد الشعور بالانعتاق ولدرجة أن تنهمر الدموع سعادة من عينيه وهو منهمك بصب الكأس الثانية من فوره: هذه الرائحة الطيبة تعود إلى عام ١٧٥٢، تم التقاطها في الربيع، قبل الشروق، على الجسر

الملكي، وأنفي موجه آنذاك نحو الغرب، من حيث هبت ريح خفيفة تحمل رائحة البحر والغابات ممتزجة برائحة قطران المراكب الراسية في الميناء. كانت رائحة نهاية أول ليلة قضاها دون إذن غريمال هائماً على وجهه. كانت رائحة النهار القادم الطازجة، رائحة الفجر الأولى التي تنشقها وعاشها بحرية. بل كانت البشير بالحرية. بشّرته بحياة أخرى. رائحة ذاك الفجر كانت بالنسبة لغرنوي رائحة أمل، فاحتفظ بها بعناية فائقة، واعتاد أن يحتسيها كل يوم.

بعد أن تجرع الكأس الثانية زال عنه التوتر، وغادرته الشكوك، وكذلك القلق، وهيمنت عليه سكينة رائعة. ضغط ظهره على وسائد الكنبة الطرية، فتح كتاباً وبدأ القراءة في ذكرياته. قرأ عن روائح طفولته، عن روائح المدرسة، عن روائح شوارع وزوايا المدينة، وعن روائح البشر. وتغلغلت في مسام جسده، إحساسات مريحة! فهذه كانت الروائح المكروهة، المقضي عليها، والتي فاحت بفعل الاستحضار. باهتمام متقزز تابع غرنوي قراءته في كتاب الروائح المقرفة. وعندما يغلب التقزز والاشمئزاز إرادته كان يغلق الكتاب ويرميه جانباً ليتناول كتاباً آخر.

خلال ذلك كان يتجرع باستمرار كؤوس أسمى الروائح.. وبعد إنهائه زجاجة رائحة الأمل، نزع سدادة زجاجة تعود إلى عام ١٧٤٤، مليئة برائحة الخشب الدافئة التي تفح بها فسحة منزل مدام غايار. بعدها تجرع زجاجة مترعة برائحة أمسية صيفية، ممتزجة بعطر ما، مثقلة بالأزاهير المقتطفة من أحد جوانب حديقة "سان أنطوان دي بري"، حوالي ١٧٥٣.

أصبح غرنوي الآن متخماً بالروائح الطيبة، فأضحت أطرافه على الوسائد أكثر ثقلاً، وغشى روحه ضباب رائع، لكنه لم يبعد حتى ختام

مأدبته. لم تعد عيناه قادرتين على القراءة، والكتاب قد سقط من بين يديه، ومع ذلك فإنه لم يبغ لهذه الأمسية أن تنتهي، قبل أن يفرغ في جوفه الزجاجة الأخيرة، الأروع: زجاجة عبق فتاة شارع "دي ماريه"...

احتساها كالمتعبد، محاولاً الجلوس على الكنبة، رغم صعوبة ذلك في حالته، فالصالون الأرجواني كان يتأرجح أمامه ويدور حوله لدى أدنى حركة. بوضعية التلميذ، الركبتان ملتصقتان، والقدمان متجاورتان، والذراع اليسرى مسندة إلى الفخذ الأيسر، في هذه الوضعية احتسى غرنوي الصغير أروع روائح أقبية قلبه، الكأس تلو الكأس، وهو يغرق في حزنه. كان يعلم أنه قد شرب الكثير، وكان يعلم أنه غير قادر على تحمل كل هذه الجودة، لكنه الفسحة، متتبعاً مصدر النور، والفتاة جالسة تفلق الخوخ، وعن بعد تأتي أصوات صواريخ الألعاب النارية..

وضع الكأس من يده وبقي لبرهة متصلباً من تأثير العاطفة والخمرة، جالساً دون حراك حتى غابت عن لسانه نكهة الجرعة الأخيرة. حملق أمامه دون هدف. وفجأة أصبح دماغه خاوياً كما الزجاجات. عندما تهاوى على جنبه، على الكنبة الأرجوانية، غارقاً بين لحظة وأخرى في نوم مخدِّر.

في اللحظة نفسها غفا غرنوي البراني على غطاء الحصان الذي يفترشه وكان نومه عميقاً كنوم غرنوي الجواني. فأعمال هرقل البطولية وشططه لم تكن بالنسبة للأول أقل إرهاقاً منها للثاني، فكلاهما في نهاية المطاف الشخص نفسه.

لكنه حالما استيقظ لم يستيقظ في الصالون الأرجواني في القصر الأرجواني، وراء سبعة أسوار حجرية، ولا في بساتين روحه الربيعية

العابقة بالروائح الطيبة، وإنما في جحره الصخري عند نهاية النفق، على أرض صلبة مغلفة بالظلمة. وكاد أن يتقيأ من الجوع والظمأ والبرد، وعاوده إحساس المدمن بعد ليلة سكر، فزحف على أربعته مغادراً النفق.

في الخارج كان هناك وقت نهاري ما، إما بداية الليل أو نهايته. ولكن حتى عند منتصف الليل كان لنور النجوم مفعول في عينيه كوخز الإبر. وبدا له الهواء مغبراً، حاداً، حارقاً في الرئتين، والأرض قاسية بفعل اصطدامه بالنتوءات الصخرية. وحتى أكثر الروائح روعة بدت لأنفه المغترب عن هذا العالم صارمة وقارصة. لقد أصبح غرنوي القرادة، حساساً كسرطان غادر صندوقه العظمي ليتجول في البحر عارياً.

توجه إلى موقع الماء. لعق الرطوبة عن الجدار الحجري طيلة ساعتين، كمن يتعرض للتعذيب في زمن بلا نهاية، في زمن كان العالم الحقيقي فيه يلسع جلده حرقاً. نزع بعض الطحالب عن الصخور، دفعها في جوفه، ثم قرفص وتغوط وهو يأكل - وكان لابد من أن يسرع في كل ما يفعل - وكحيوان صغير غض اللحم وقد تجمعت الجوارح في كبد السماء، هرع إلى كهفه، إلى جحره في نهاية النفق حيث يوجد غطاء الخيل - مفرشه. وهنا أصبح غرنوي أخيراً في أمان.

أسند ظهره إلى تراب الجدار المنهار، وفرد ساقيه وانتظر. كان عليه الآن أن يحافظ على سكون جسمه، وبهدوء تام، كمن يحاول اتقاء اندلاق قطرة من كأس مترع. وبالتدريج تمكن من الإمساك بزمام أنفاسه فهدأت نبضات قلبه، كما تراجعت ببطء موجات عالمه الجواني. وبغتة احتوته الوحدة كسطح مرآة أسود، فأغمض عينيه. ثم انفتحت أمامه بوابة عالمه الداخلي المظلمة، فعبرها. وبذلك بدأ المشهد الثاني من عرض مسرح روح غرنوي.

٢٨

على هذا المنوال استمرت الأمور، من يوم إلى يوم، ومن شهر إلى شهر، طيلة سبع سنوات كاملة. خلال هذا الوقت كان العالم الخارجي مشغولاً بالحرب، ولنقل بحرب عالمية، فالمعارك كانت تدور بين "شليزيا" و"ساكسونيا"، وبين "هانوفر" و"بلجيكا"، وبين "بوهيميا" و"بومرن". نفق جيش الملك من "هيسّن" و"فستفاليا"، وعلى سفوح "باليريا"، ثم في الهند، وعلى ضفاف المسيسيبي وفي كندا، هذا إن لم تكن وحدات الجيش قد ماتت بالتيفوئيد خلال الرحلات البحرية. بلغت كلفة الحرب ـاة مليون إنسان، ومبالغ طائلة من المال على الطرفين المتنازعين، بحيث اضطرا أخيراً لوقفها، رغم ما في القلب من حسرات.

ذات يوم خلال هذه المدة كاد غرنوي أن يتجمد من البرد شتاءً، لكن دون أن ينتبه لذلك. فقد قضى خمسة أيام متتالية في صالونه الأرجواني، وعندما استيقظ في جحر النفق لم يكن قادراً على تحريك أعضائه من شدة البرودة، فأغمض عينيه من فوره كي ينام حتى الموت. لولا التحول المفاجئ في الطقس الذي أدى إلى ذوبان تجمده، لما بقي حياً. وذات مرة ارتفعت نسبة الثلج المتراكم جداً. لم يستطع غرنوي معه أن يشق طريقه إلى النتوءات الصخرية، فغذى نفسه بالوطاويط المتجمدة.

وذات مرة أيضاً سقط أمام الكهف غراب ميت، فأكله. كانت هذه هي الأحداث الوحيدة على صعيد العالم الخارجي التي اختزنها في نفسه خلال سبع سنوات. وما عدا ذلك فقد أمضى الوقت كله في جبله، وفقط في ملكوت روحه الذي خلقه بنفسه. وكان مستعداً للبقاء هناك حتى

مماته (إذ ما كان لينقصه أي شيء) لولا كارثة حلت به، وأدت إلى طرده من الجبل، ولبصقه إلى العالم ثانية.

٢٩

لم تكن الكارثة زلزالاً ولا حريقاً يأكل الأخضر واليابس ولا انهياراً جبلياً، ولا تقوضاً لكهفه - مقامه. لم تكن كارثة خارجية أبداً، بل داخلية، ولهذا جاءت أشد ألماً وتعذيباً، لأنها سدت في وجه غرنوي طريق هروبه المفضل. والكارثة حدثت خلال النوم، لنقل خلال الحلم، ويفضل أن نقول في الحلم في النوم في القلب من فانتازيته.

كان مستلقياً على الكنبة في الصالون الأرجواني، نائماً، ومن حوله الزجاجات الفارغة. كان قد شرب كمية هائلة، وفي الختام زجاجتين من رائحة الفتاة ذات الشعر الأحمر. ربما كان ما شربه أكثر من اللازم، فرغم كون نومه عميقاً كالموت، إلا أنه هذه المرة لم يخل من الأحلام، من أحلام مليئة بخيالات شبحية متداخلة غير واضحة المعالم، لكنه ميز من بينها شذرات رائحة عبرت أمام أنفه في البداية كأشرطة رفيعة، لتتكثف من ثم، ولتتحول أخيراً إلى ما يشبه السحب. بدا الأمر الآن وكأنه واقف وسط مستنقع ينبعث منه الضباب الذي أخذ يتصاعد ببطء أعلى فأعلى، حتى أحاط بغرنوي من جميع الجهات وأغرقه، ولم يعد بين موجات الضباب ثمة فرجة لنسمة هواء نقي. وإذ لم يكن غرنوي راغباً بالاختناق فقد كان عليه أن يستنشق هذا الضباب. والضباب كما قال، كان رائحة. وعرف غرنوي ماهية هذه الرائحة. كان الضباب رائحته هو، رائحة غرنوي، رائحته الخاصة كان الضباب.

والأشد هلعاً في الأمر الآن هو أن غرنوي الذي عرف جيداً أن هذه هي رائحته، لم يتمكن من شمها. كان بوسعه أن يغرق في ذاته، كي لا يشم أي شيء آخر، ولكن دون جدوى.

عندما أدرك ذلك أطلق صرخة مروعة كمن يشوى على النار حياً. فتداعت لصرخته جدران صالونه الأرجواني وتهاوت أسوار القصر. اندفعت الصرخة من أعماق قلبه متجاوزة قبور ومستنقعات وصحارى وأمداء روحه الليلية، انطلقت من فمه كالصاعقة عابرة منعطفات النفق، منطلقة إلى الدنيا، مالئة المنطقة بأصدائها حتى إلى أبعد من "سان فلور"، ولكأن الجبل نفسه هو الذي صرخ. وكان أن أفاق غرنوي على صرخته، فأخذ يضرب بذراعيه من حوله محاولاً طرد الضباب الذي لا يشم والذي أراد خنقه. كان مرعوباً حتى الموت، وكان جسمه كله ينتفض رعباً من الموت. ولو لم تمزق صرخته الضباب، لاختنق في ذاته - ويا لها من ميتة مروعة. وكلما استعاد ذلك في ذاكرته، عاوده الهلع. وبينما جلس مرتجفاً من أخمصه حتى مفرقه محاولاً جمع فوضى أفكاره، كان قد تأكد من شيء واحد على الأقل: لابد من تغيير حياته، حتى ولو كان السبب الوحيد لذلك هو ألا يعاوده هذا الحلم المريع ثانية، لأن نهايته ستكون فيه.

رمى الغطاء على كتفيه وزحف إلى الخارج، إلى حيث كان الوقت قبل الظهيرة، قبل ظهيرة أحد أيام شباط / فبراير. الشمس كانت ساطعة، ومن الأرض تعبق رائحة الصخر الرطب والطحالب والماء. أما الهواء فقد كان يحمل شيئاً من أريج الشقائق. جلس على الأرض عند ثغر الكهف، فأدفأته الشمس وهو يستنشق الهواء المنعش. لكن

القشعريرة لم تزايله، بل كانت تتملكه كلما عاد إلى ذاكرته الضباب الذي نجا منه. إلا أن دفء الشمس الذي يتغلغل عبر مسام ظهره كان يريحه ويهدئ من روعه. ما أجمل أن يكون هذا العالم الخارجي موجوداً، ولو كمهرب فحسب. فما الذي كان سيحدث لو وصل إلى مدخل النفق دون أن يجد العالم أمامه! لا نور ولا رائحة ولا شيء سوى الضباب المقزز المرعب، في الداخل، في الخارج، في كل مكان...

بعد حين خف وقع الصدمة عليه وتراخت قبضة الخوف الممسكة بخناقه، فتصاعد إحساسه بالزمن. ومع الظهيرة كان قد استعاد برودة أعصابه. وضع سبابة ووسطى يسراه تحت أنفه وتنشق عبر ظهريهما. شم هواء الربيع الرطب المبهَّر برائحة الشقائق. لكنه لم يشم من إصبعيه أي شيء. قلب كفه وتشمم باطنها، أحس بدفئها، لكنه لم يشم شيئاً. ضمَّ أكمام قميصه الممزق ودفن أنفه في بطن كوعه. كان عارفاً بأن هذه هي النقطة التي تفوح منها الرائحة الخاصة بكل شيء، لكنه لم يشم شيئاً. جرب تحت إبطيه وتحت كتفيه وأقدامه، وحاول جهده ليقرب أنفه من عضوه، ومع ذلك فإنه لم يشم شيئاً. كانت المفارقة مذهلة: فهو، غرنوي، القادر على التقاط رائحة أي إنسان على مسافة أميال لا يستطيع شم رائحة عضوه الذي لا يبعد عن أنفه أكثر من شبر! ومع ذلك لم يسمح للذعر أن يركبه، بل قال لنفسه مفكراً بهدوء: "ليس الأمر أنه لا رائحة لي، فلكل شيء رائحة. بل الأمر على الأغلب هو أني أنا لا أشم رائحتي الخاصة. ولو تمكنت من عزل رائحتي عني، أو جزء منها على الأقل، وعدت إليها بعد فترة من الغربة عنها، لتمكنت من شمها، أي من شم نفسي".

رمى عنه الغطاء وخلع ملابسه، بالأحرى ما تبقى منها، الخرق والمزق. طيلة سبعة أعوام لم ينزعها من جسمه، ولهذا لابد أن تكون مشبعة برائحته. رماها كلها في كومة عند مدخل الكهف وابتعد. ثم صعد، لأول مرة منذ سبع سنوات إلى القمة. وهناك جلس في البقعة نفسها التي وقف فيها آنذاك عند وصوله. رفع أنفه باتجاه الغرب تاركاً الريح تصفر من حول جسده العاري. كان هدفه أن يهوي جسده كلية، أي أن يملأه بالريح الغربية، بريح البحر والمروج الندية، بحيث تتغلب على رائحة جسمه، فتخلق حيزاً روائحياً بينه، غرنوي، وبين ثيابه، يمكّنه بالتالي من التقاط رائحتها بوضوح. ولكي يخفف ما أمكن من أثر رائحته في أنفه أحنى جذعه إلى الأمام ومد عنقه في وجه الريح طاوياً ساعديه إلى الخلف. بدا منظره كسباح قبل القفز إلى الماء.

ولساعات طويلة حافظ على هذه الوضعية شديدة السخف، اكتسب جلده الملكي البياض خلالها لوناً وردياً بتأثير أشعة الشمس. عن بعد كان يرى كومة الثياب. وعند اقترابه الأمتار الأخيرة منها أغلق أنفه، ولم يفتحه إلا عندما اقترب به منها. جرب طريقة التشمم التي تعلمها عند بالديني، فعب دفعة هواء بسرعة، ليطلقها على مراحل. ولكي يلتقط الرائحة وضع كفيه كقمع مقلوب فوق كومة الثياب، ثبت أنفه عند فتحته الصغرى وأخذ يستنشق، محاولاً كل طريقة لشم رائحة ثيابه. لكن الرائحة المبتغاة لم تكن هناك، ولا بأية صورة من الصور. كانت هناك طبعاً روائح الصخر والرمل والطحالب والراتينج ودم الغراب - بل حتى رائحة اللحم المقدد الذي اشتراه قبل سنوات بالقرب من سوللي كانت واضحة. كانت كومة الثياب بمثابة مذكرات روائحية للسنوات

السبع الماضية. لكن رائحته الخاصة التي كان يجب خلال هذه المدة الزمنية أن تتعشق فيها، لم تكن هناك.

عندها بدأ يشعر ببعض الخوف. كانت الشمس قد غربت. وقف عارياً عند مدخل الكهف الذي عاش في نهايته طيلة سبع سنوات. كان لفح الريح قارساً فبرد غرنوي، لكنه لم يشعر بهذه البرودة بسبب برودة الشعور الآخر، الخوف. لم يكن الخوف نفسه الذي انتابه بسبب الحلم، خوف الاختناق بالذات البشع، الذي كان لابد من تفاديه بأية وسيلة كانت! وها هو قد أفلح بذلك. كان الآن هو الخوف من عدم تيقنه من معرفة نفسه الذي يعارض الخوف الآخر. لكن هذا الخوف هو مما لا فرار له منه، بل هو الذي عليه أن يقبل به على علاته. إذ كان لابد له من أن يعرف - مهما كانت النتيجة - فيما إذا كانت له رائحة أم لا. والآن، وهنا! عاد غرنوي إلى النفق، وبعد بضعة أمتار غلفته الظلمة تماماً، ومع ذلك شق طريقه كما في وضح النهار. لقد مشى هذا الدرب آلاف المرات، وهو يعرف موطئ كل قدم فيه، وكل منعطف، وبحاسة شمه يميز كتلة الصخر النازلة من السقف أو النتوء الصاعد من الأرض. لم يكن أمراً عسيراً أن يجد طريقه، لكن العسير كان نضاله ضد ذكرى الحلم الذي سجنه بين جدرانه الضبابية، هذه الذكرى التي كانت تتصاعد في داخله كموجة طوفان مع كل خطوة يمشيها. لكنه كان شجاعاً فحارب الخوف من المعرفة بخوف الجهل، ونجح لأنه كان عارفاً ألا خيار أمامه. عندما وصل إلى نهاية النفق، إلى حيث المرتفع الترابي سقط عنه الخوفان معاً. أحس بالهدوء، وبرأسه صافياً، وبأنفه حاداً كمشرط. قرفص ثم وضع يديه على عينيه وشم. ففي هذا المكان، في هذا القبو الحجري القصي عن

العالم استلقى طوال سبع سنوات. وإن كان ثمة مكان في العالم يمكن أن يشم فيه رائحته فلابد أن يكون هنا. تنفس ببطء وتفحص بدقة وتمهل قبل أن يصدر حكمه. بقي مقرفصاً ربع ساعة كاملة. إن ذاكرته صافية لا تخدع، وهو يعرف حق المعرفة كيف كانت رائحة هذا المكان قبل سبع سنوات: صخرية ورطبة ندية مالحة، ونقية تدل على أنه لم يطأ هذا المكان إنسان أو حيوان من قبل... لكن الرائحة الآن هي تماماً مثل تلك.

استمر غرنوي جالساً لبرهة أخرى، ساكناً لا يحرك سوى رأسه بهدوء. ثم التفت ومشى، منحني الظهر أولاً، ثم منتصباً حتى غادر النفق.

في الخارج لبس أسماله (حذاؤه كان قد اهترأ منذ سنوات) ووضع الغطاء على كتفيه وغادر في الليلة نفسها "بلومب دو كانتال" باتجاه الجنوب.

٣٠

كان منظره مرعباً، فقد وصل طول شعره حتى ركبتيه، ولحيته الخفيفة حتى سرته. أظافره أصبحت كمخالب الطيور الجارحة، وعند كوعيه وركبتيه حيث قصرت الأسمال عن تغطيتها كان الجلد يتساقط قطعاً قطعاً.

أول من قابلهم من البشر، فلاحون في الحقل قرب مدينة "بييرفور"، فروا من وجهه صارخين. أما في المدينة نفسها فقد كان لمظهره فعل الحدث الخارق، فتراكض الناس بالمئات ليحملقوا فيه. بعضهم ظنه جذّاف سفينة حربية ناجياً من الأسر، وقال البعض الآخر بأنه ليس بشراً سوياً،

بل هو خليط من بشر ودب، نوع من كائنات الغابة. وزعم أحد الذين خاضوا غمار البحر سابقاً أنه يشبه أفراد قبيلة "الشايان" الهندية المتوحشة التي تعيش وراء المحيط العظيم. اقتادوه إلى العمدة، وهناك لدهشة الجميع أبرز شهادته الحرفية ثم فتح فمه وأخبرهم ببضعة كلمات متلكئة - فقد كانت هذه هي أولى الكلمات التي يتلفظ بها منذ سبع سنوات - ولكن واضحة، أن اللصوص قد هاجموه خلال تجواله وزجوه طيلة سبع سنوات في كهف. وهو خلال هذه المدة لم ير نور الشمس ولا أي إنسان، وأن ثمة يد غير مرئية كانت تنزل له الطعام في سلة، وأنه قد تمكن من الخروج بواسطة سلم مد إليه ولكن دون أن يعرف السبب ودون أن يتعرف على سجانيه أو منقذيه. لقد اخترع غرنوي هذه القصة لأنه ظنها أكثر قابلية للتصديق من الحقيقة، وقد كانت فعلاً كذلك، فهجمات قطاع الطرق ضد المسافرين لم تكن نادرة في جبال "أوفيبرج" و"لانفودوك" ومنطقة "السفانا" المحيطة. لم يعترض العمدة على القصة، بل دونها في محضره ثم قدم تقريراً بالموضوع كله إلى المركيز دو لا تيلاد - إسبيناز، أهم شخصية في المدينة وممثلها في برلمان تولوز.

كان المركيز في الأربعين من عمره عندما أدار ظهره لحياة البلاط في فرساي، لينسحب إلى إقطاعيته مكرساً حياته للعلوم. وقد ألف كتاباً هاماً حول الاقتصاد الوطني الحيوي يقترح فيه إلغاء كافة أنواع الضرائب عن ملكية الأرض ومنتوجاتها، ومقابل ذلك فرض ضريبة تصاعدية على الاستهلاك تصيب فقراء الفلاحين فتجبرهم على تنشيط فعاليتهم الزراعية، وشجعه نجاح الكتاب على وضع دراسة حول تربية الأطفال، ذكوراً وإناثاً، بين سن الخامسة والعاشرة، ثم التفت إلى الاقتصاد الزراعي التجريبي محاولاً نقل منويات الثيران إلى أنواع مختلفة من الحشائش بهدف استخراج حليب حيوانباتي عن طريق ما سمّاه بزهرة الضروع. بعد نجاحاته الأولى التي مكنته من استخلاص الجبنة من حليب الحشيش التي وصفتها أكاديمية العلوم في ليون (بأنها ذات طعم ماعزي مميز، رغم أنها أكثر مرارة) اضطر إلى إيقاف تجاربه هائلة الكلفة، أي إلى التوقف عن سكب مئات الدلاء من منويات الثيران لتخصيب الحقول. إلا أن اشتغاله بالقضايا الزراعية البيولوجية أيقظ اهتمامه لا بأنواع التربة فحسب، بل بالأرض، وبكل ما يمت إلى المجال الحيوي بصلة.

فما كاد أن ينتهي من تجاربه العملية على زهرة الضروع حتى انهمك بحماس العالم بتدبيج مقالة ضخمة حول الترابط ما بين حالة القرب من الأرض والطاقة الحيوية. وتتلخص فرضيته في أن الحياة لا يمكن أن تتطور إلا على مسافة محددة من الأرض، خاصة أن الأرض تبث باستمرار غاز التعفن الرمي المسمى "FLUIDUMLETALE" الذي يشل الطاقة الحيوية، ويؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى الوفاة، ولهذا فإن كافة المخلوقات تطمح عبر نموها إلى الابتعاد عن الأرض، أي أنها تنمو متنائية عنها، وليس فيها، ولهذا فإنها تحمل أثمن أعضائها مرتفعة باتجاه السماء: كما السنبلة والزهرة ورأس الإنسان، ولهذا عندما تحني الشيخوخة قامته فلابد أن يسقط ضحية غاز التعفن الرمي، فيتحول بعد الموت بفعل عملية التحلل ليصبح جزءاً منها.

عندما وصل إلى سمع المركيز دو لا تيلاد - إسبيناز أن في مدينة "بييرفور" شخصاً عاش في مغارة، أي محاصراً بعنصر التعفن، طيلة سبع سنوات، اضطرب فرحاً وطلب أن يحضر غرنوي إلى مختبره فوراً

حيث سيجري له فحصاً دقيقاً، فقد وجد في غرنوي أوضح إثبات لنظريته: فالغاز المميت قد أثر على غرنوي ابن الخامسة والعشرين بحيث تظهر دلائل الانهيار واضحة على جسده العجوز. لكن ما أنقذه من الموت المحتم هو - حسب توضيح المركيز تيلاد إسبيناز - أنه خلال فترة أسره قد تغذى بنباتات تنمو بعيداً عن الأرض، كالقمح والفواكه. أما الآن فلا يمكن إعادته إلى حالته الصحية السابقة إلا عن طريق طرد الغاز المميت من جسده طرداً كاملاً، وفقط بواسطة جهاز التهوية الخاص بالهواء الحيوي الذي اخترعه تيلاد - إسبيناز نفسه، وهذا الجهاز موجود في مستودع قصره في "مونبلييه"، وإن كان غرنوي على استعداد لوضع نفسه في خدمة التجربة العلمية فإن المركيز لن يحرره من سموم الغاز الأرضي فحسب، بل إنه سيمحنه فوق ذلك مبلغاً محترماً من المال.

بعد ساعتين من الزمن كانا في العربة معاً، ورغم حالة الطرق الرديئة قطعا مسافة الأربعين وستين ميلاً حتى "مونبلييه" في أقل من يومين. فالمركيز رغم سنه لم يوفر جهداً في سوط الحوذي والخيول معاً، وفي مدّ يد المعونة شخصياً عند تعرض العربة لعطب. وهذا كله طبعاً نتيجة تحمسه الشديد لاختراعه وتوقه البالغ لعرضه في أقرب فرصة ممكنة أمام جمهور من المثقفين. على العكس تماماً كان الأمر بالنسبة لغرنوي الذي لم يسمح له بمغادرة العربة ولا مرة واحدة، بل كان عليه أن يقبع هناك في أسماله، ملتفاً بغطاء مشرب بالطين. أما طعامه خلال الرحلة فلم يكن سوى الخضار الدرنية النيئة. فبهذه الطريقة كان يأمل المركيز بالحفاظ على حالة التسمم بالغاز المميت في وضع مثالي ولأطول مدة ممكنة.

حال الوصول إلى "مونبلييه" أمر المركيز بوضع غرنوي فوراً في قبو القصر، وبتوجيه الدعوات إلى جميع أعضاء كلية الطب واتحاد الحدائقيين والمدرسة الزراعية وجمعية الكيميا - فيزيائيين والمحفل الماسوني وسائر العلماء الآخرين الذين لا يقل عددهم في المدينة عن اثني عشر. بعد أيام قليلة - وبالدقة بعد أسبوع واحد من تخلي غرنوي عن عزلة جبله - وجد نفسه على منصة في القاعة الكبرى لجامعة "مونبلييه" أمام حشد يتجاوز الأربعمئة رأس كحدث الموسم العلمي الخارق.

في كلمته وصفه تيلاد - إسبيناز على أنه البرهان الحي على صحة نظرية غاز التعفن الرمي. وخلال نزعه الأسمال بالتدريج عن جسد غرنوي شرح الأثر المدمر للغاز المذكور على جسده: فهنا يرى المرء الندوب والخراجات الناتجة عن حروق الغاز الكاوية، وهناك على الصدر الورم الهائل ذا اللون الزهري المحمر الناتج عن الغاز أيضاً، والجلد يتساقط في كل مكان، وهناك دلالة واضحة على تشوه الهيكل العظمي بفعل الغاز، تتبدى في قدمه العرجاء وحدبة ظهره. كما أن أجهزته الداخلية كالطحال والكبد والرئة والصفراء وجهاز الهضم قد تعرضت إلى إصابات حادة، والدليل الساطع على ذلك هو تحليل البراز الموجود في وعاء عند قدمي موضوع المحاضرة والمتاح لأي راغب بالتأكد. باختصار بوسع المرء أن يجزم بأن شلل القوى الحيوية بفعل التسمم طيلة سبع سنوات بـ "فلويدوم ليتال تيلاد" قد تفاقم إلى حد يجعل من هذا الماثل أمامكم - والذي بدأت ملامحه الخارجية تشابه حيوان الخلد - كائناً أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. رغم هذا كله يتعهد المحاضر بأن يشفي هذا الكائن شفاء كاملاً خلال ثمانية أيام، وذلك بمعالجته بجهاز التهوية مع نظام حمية

حيـوي خاص، وهو يناشد الحضور التأكد من صحة تشخيصه خلال أسبوع، وسيكون هذا دون ريب البرهان الأكيد على مصداقية نظرية غاز التعفن الرمي.

كان نجاح المحاضرة عظيماً، وصفق جمهور العلماء للمحاضر ثم اصطف ليمر من أمام المنصة التي وقف غرنوي فوقها. كان منظر هيئته الزرية المكثفة بندوبه القديمة وتشوهات قدمه وظهره مريعاً فعلاً، بحيث اعتبره الجميع هالكاً لا محالة، رغم شعوره هو بأنه في كامل صحته وقوته. عاين البعض جسده بالطريقة الطبية المعهودة، وأخذ مقاييس جسمه وتفحص فمه وعينيه، وخاطبه البعض الآخر موجهاً إليه أسئلة عن حياته في كهف الأسر وعن حاله الآني. لكن غرنوي تقيد بالتعليمات التي وجهها إليه المركيز مسبقاً، فلم يجب على هذه الأسئلة إلا بسعلة مكتومة، ملوحاً بيديه بعجز، مشيراً إلى حلقه، دلالة على أن حتى هذا الجهاز قد تآكل بفعل "فلويدوم" ليتال تيلاد".

بعد انتهاء الأمسية ضبَّه تيلاد - إسبيناز ثانية ونقله إلى مستودع قصره، حيث أدخله بوجود نخبة من دكاترة كلية الطب إلى جهاز التهوية الخاص بالهواء الحيوي، وهو أشبه ما يكون بحجرة مصنوعة من ألواح الشربين المضغوطة إلى جانب بعضها البعض، تتم تهويتها بالهواء المضغوط الخالي من السموم عبر فتيل جلدي في أرضيتها، لتمتصه مدخنة عالية بارتفاع السقف. وكان هناك طاقم كامل من الخدم يعمل ليل نهار، على إبقاء المراوح في حالة دوران لا يهدأ. وفي حين كان غرنوي محاطاً على هذه الحال بالتيار المطهر، كان يتناول عبر فتحة مخصصة في الجدار، كل ساعة من الزمن، وجبة من طعام الحمية المحضر

من مواد بعيدة عن الأرض: مثل حساء الحمام، ولحم القبرات المهروس، ولحم الإوز الطائر المطبوخ، ومنقوع فواكه الشجر، والخبز المعجون من نوع خاص من السنابل العالية السوق، ونبيذ هضاب البيرينيه، وحليب الظباء ومخفوق بيض الدجاج الذي يعيش في علية القصر.

خمسة أيام بكاملها استمرت عملية التطهير من السموم الغازية المرتبطة بعلاجات إعادة الحيوية. ثم أمر المركيز بإيقاف المراوح، وبنقل غرنوي إلى غرفة حمام حيث غطس في ماء مطر فاتر لساعات طوال، لينظف من ثم من أخمصه إلى مرفقه بصابون زيت الجوز القادم خصيصاً من مدينة "بوتوسي" في منطقة "الآندن". ثم قصت أظافر يديه وقدميه ونظفت أسنانه بكلس الدولوميت الفاخر، وحلقت ذقنه ثم قُص وسُرح شعره وتم تزيينه بالعطر والبودرة، ثم أمر بجلب خياط وحذاء، فألبس غرنوني قميصاً حريرياً مزيناً بالدانتيلا على طول صدره وبالورود البيضاء على أساور كميه بالإضافة إلى جوارب حريرية وصدارة وسترة وبنطال من المخمل الأزرق، وحذاء من الجلد الأسود تغطي فردته اليمنى تشوه القدم بأناقة. ثم قام المركيز بنفسه ووضع بيده على وجه غرنوي المليء بالندوب طبقة من المكياج الأبيض، ثم دهن شفتيه وخديه بطلاء قرمزي، كما عالج الحاجبين بقلم الفحم مما أكسبهما استدارة نبيلة حقاً، ثم بخ عليه من عطره الخاص المستحضر من البنفسج. رجع بضع خطوات إلى الخلف وفكر طويلاً قبل أن يعبر عن فائق إعجابه.

"مسيو" قال أخيراً، "أنا معجب بنفسي. أنا مذهول بعبقريتي. أنا لم أشك أبداً بصحة نظريتي الغازية، طبعاً لا، لكن ما يهزني من الأعماق هو أن أرى مصداقية العلاج العملي ماثلة أمامي بهذه الروعة.

لقد كنت حيواناً، وأنا جعلتك إنساناً، وأكاد أقول إنه عمل رباني. أرجو أن تعذر تدفق مشاعري! - اقترب من هذه المرآة وانظر إلى نفسك! ولأول مرة في حياتك ستدرك أنك إنسان لا أقصد أنك غير عادي، أو خارق، لكنك على أية حال إنسان معقول. اذهب، مسيو، انظر إلى نفسك في المرآة، وتملى المعجزة التي حققتها بك!".

كانت هذه هي المرة الأولى التي يخاطب فيها أحد غرنوي بلقب "مسيو".

توجه إلى المرآة ونظر. لم يسبق له حتى ذلك الحين أن نظر في مرآة. رأى أمامه سيداً في ثياب زرقاء فاخرة وقميص أبيض وجوارب حريرية، فانكمش على نفسه كما كان يفعل دائماً تجاه السادة من أمثال هذا. لكن السيد الأنيق في المرآة انكمش على نفسه أيضاً، وحالما انتصبت قامة غرنوي، فعل السيد الأنيق الشيء نفسه، ثم جمدا وحدقا ببعضهما بعضاً.

إن أكثر ما أذهل غرنوي هو حقيقته انه بدا طبيعياً تماماً. المركيز كان على حق: لم يكن شكله مميزاً، ولا جميلاً، لكنه لم يكن بشعاً أبداً. كان قصيراً إلى حد ما، وقفته غير مستوية، ووجهه خال من أي انطباع تقريباً، باختصار، بدا كآلاف الناس الآخرين. وإن نزل الآن إلى الشارع فلن يتلفت إليه أحد. وإن قابل نفسه في الطريق، في الحال الذي هو عليه الآن، فإنه لن يلتفت إلى نفسه، إلا إذا شم أن هذا، عدا رائحة البنفسج، لا تفوح منه أية رائحة أخرى، تماماً مثل هذا الماثل أمامه في المرآة، ومثله هو نفسه.

ومع ذلك، قبل عشرة أيام نفر الفلاحون من منظره وفروا بعيداً عنه. لم يكن إحساسه حينئذ مختلفاً عما هو عليه الآن، وعندما يغلق عينيه

الآن فإن إحساسه لا يختلف بأدنى درجة عن إحساسه آنذاك. تنشق الهواء المتصاعد من جسمه وشم العطر الرديء والمخمل وصمغ جلد حذائه الحديث الصنع، شم الحرير والبودرة وطلاء المكياج والعبق الخفيف لصابون "بوتوسي". وأدرك فجأة أنه لا حساء الطيور ولا خزعبلات التهوية هي التي صنعت منه إنساناً عادياً، وإنما فقط قطع الثياب وقصة الشعر ومهرجان ألوان المكياج.

فتح عينيه برمشة، فرأى مسيو في المرآة يرمش له، وعلى طرف شفتيه القرمزيتين شبح ابتسامة، وكأنه يود أن يخبره بأنه، نوعاً ما، معجب به، وغرنوي من طرفه وجد أن مسيو الماثل في المرآة، هذا الكيان اللابس الثياب والمتنكر بالمساحيق كإنسان لا رائحة له، ليس أقل مدعاة للإعجاب، وخامره إحساس عابر بأن هذا الكيان - فيما لو تكامل قناعه - قادر على التأثير في العالم الخارجي بطريقة لم يخطر ببال غرنوي أبداً أن بوسعه هو بالذات أن ينوء به. حيا الكيان بهزة من رأسه ورآه خلال رده التحية ينفخ منخريه خلسة...

٣١

في اليوم التالي، بينما كان المركيز يدربه على الوضعيات واللفتات وخطوات الرقص الضرورية لظهوره القادم أمام المجتمع، تظاهر غرنوي بأنه داخ وتهاوى خائراً، وكمن يكاد أن يختنق، على ديوان قريب. خرج المركيز عن طوره. صرخ طالباً الخدم كي يحضروا المراوح اليدوية وأجهزة التهوية المحمولة. وبينما هرع الخدم لتنفيذ الأوامر ركع إلى جانب غرنوي وأخذ يلوح أمام وجهه بمنديله المخضب بعطر البنفسج وهو يتوسل إليه

ويرجوه أن ينهض، أن لا يزفر الروح الآن، بل أن يؤجل الأمر حتى ما بعد الغد، إن كان ذلك ممكناً، بأية وسيلة كانت، وإلا فإن صمود نظرية فلويدوم ليتال سيتعرض لخطر ماحق.

أما غرنوي فقد كان يهز ذراعيه في وجه المنديل وهو يتلوى ويسعل ويكح، إلى أن جعل نفسه يسقط عن الديوان بطريقة مسرحية جداً، ليلتجئ إلى أقصى زوايا الغرفة. ثم وكأنه يتلفظ بآخر طاقة يمتلكها صاح: "أبعد عني هذا العطر! أبعد عني هذا العطر! إنه يقتلني!" وفقط عندما رمى تيلاد - إسبيناز منديله من النافذة وسترته في الغرفة المجاورة، جعل غرنوي حالة الدوخة تتراجع شيئاً فشيئاً، وليخبره بصوت متهادئ بأن أنفه بحكم مهنته كعطار فائق الحساسية، كان وما زال، وخاصة الآن في مرحلة النقاهة فإن هذه الحساسية تتفاقم تجاه عطور معينة. وكون أريج البنفسج يضنيه إلى هذا الحد، رغم أن البنفسج في حد ذاته زهر محبب، فإن تفسيره الوحيد لذلك هو أن عطر المركيز يحتوي على نسبة عالية من خلاصة جذور البنفسج، والتي نتيجة أصولها التحت أرضية تؤثر بشكل مدمر على شخص مثله مصاب بالفلويدوم ليتال. فبالأمس عند تعرضه للعطر لأول مرة أحس بدوخة، واليوم عندما تنشق رائحة جذور البنفسج للمرة الثانية انتابه إحساس وكأن هناك ما يدفعه بقوة إلى ذلك الجحر الأرضي الخانق المرعب الذي ذوى فيه سبع سنوات بكاملها. لكن طبيعته ثارت ضده، وليس بوسعه أن يقول سوى ذلك، فبعد أن منحه فن وعلم المركيز حياة إنسانية ملؤها الهواء النقي الخالي من السموم، فإنه يفضل الآن الموت على أن يسلم نفسه بيديه لغاز التعفن الرمي. وجسمه كله يتشنج الآن لمجرد التفكير

بعطر الجذور ذاك. لكنه يجزم بأنه سيستعيد حالته الطبيعية إن سمح له المركيز بتحضير عطر خاص بهدف إنهاء تأثير عطر البنفسج كلياً. وهو الفكر بنفحة أثيرية خفيفة جداً تتألف بشكل أساسي من مواد تنمو بعيدة عن الأرض مثل ماء اللوز وزهر البرتقال والأوكالبتوس وزيت الشربين الإبري والصنوبر. وببخة من مثل هذا العطر على ثيابه وببضع قطرات منه على عنقه وخديه سيصبح منيعاً وإلى الأبد ضد تكرار حالة الدوخة المؤسفة، كالتي أصابته الآن...

إن وصفنا السابق للموقف بهذا التسلسل المترابط كان بغرض توضيح الحالة، أما الموقف على حقيقته فقد استغرق نصف ساعة، مثّل خلالها غرنوي بكل حذق السعال والكحة وضيق النفس ودفعات الكلام المتقطعة، بحيث أسرت المركيز بتأثيرها، وقد أقنعته حجج محظيّه المتماسكة والمنسجمة مع نظريته أكثر من عوارض الألم. فقال في نفسه، إنه عطر البنفسج طبعاً! هذا العطر الأرضي المقرف، بل هو نتاج مادة تحت أرضية! ولربما كنت أنا الذي استخدمه منذ سنوات مصاباً، وهو يدنيني من الموت يوماً فيوم دون أن أدري! فالتهاب المفاصل، وتصلب عنقي، وارتخاء عضوي، وتشنج المستقيم، والضغط في الأذنين، وتعفن الأسنان، هذه كلها ناتجة دون ريب عن عفن جذور البنفسج المشبعة بغاز التعفن الرمي. وهذا الرجل الضئيل الغبي، كومة البؤس هذه المتكورة على نفسها في زاوية الغرفة هي التي نبهتني إلى ذلك! رقت مشاعر المركيز وكاد أن ينهضه ويعانقه ضاماً إياه إلى قلبه الذي صفا الآن من الأحكام المسبقة، لكنه خشي من عبق البنفسج المتأصل فيه. صاح منادياً الخدم وأمرهم بالتخلص من كل ما في القصر من عطر البنفسج ثم بتهوية

القصر وبتطهير ثيابه كلها في جهاز التهوية الحيوي، ثم بنقل غرنوي في محفته الخاصة فوراً إلى محل أفضل عطار في المدينة. وهذا هو تماماً ما كان غرنوي يستهدفه في تظاهره بالدوخة.

في "مونبلييه" كان لصناعة الروائح والعطور تقاليد عريقة. ورغم تراجعها نسبياً مؤخراً نتيجة منافسة مدينة "غراس" لها فقد بقي في المدينة العديد من محلات العطارة وصناعة القفازات الجيدة. وصاحب أشهرها، المدعو رونل أبدى استعداده لوضع ورشته مدة ساعة من الزمن في خدمة تلميذ العطار العجيب القادم من باريس، والمحمول إلى المتجر في محفة خاصة. ومبرر هذا الاستعداد طبعاً هو العلاقات التجارية التي تربط رونل بقصر المركيز دو لا تيلاد - إسبيناز، فهو الذي يزوده بالصابون والزيوت والروائح والعطور. أما غرنوي الذي رغب عن شروحات رونل وإرشاداته زاعماً القدرة على التحرك في الورشة دون مساعدة، فقد أغلق على نفسه الباب وبقي هناك ما يقارب الساعة، في حين ذهب رونل مع مدير شؤون قصر المركيز إلى حانة مجاورة لاحتساء بعض النبيذ، وهناك عرف رونل سبب رفض القصر لعطر بنفسجه.

لم تكن ورشة رونل لتشابه ولا في الحد الأدنى من حيث تجهيزها ورشة بالديني آنذاك في باريس. فبعض زيوت الأزهار والماءات والبهارات المتوفرة لديه لا تساعد حتى عطاراً متوسط الموهبة على تحقيق نجاحات ملحوظة. أما غرنوي فقد أدرك مع النفس المتفحص الأول أن المواد المتوفرة كافية لتحقيق غرضه. لم تكن بغيته ابتكار عطر عظيم ولا أن يمزج ماء متميزاً، كما كان يفعل لبالديني، عندما كان يستنبط شيئاً يخرج عن المألوف ويخلب الألباب، ولم يكن هدفه الحقيقي إنتاج

عطر زهر البرتقال البسيط، كما وعد المركيز. وليس على خلاصات دهن النارنج والأوكالبتوس والصنوبر إلا في تموه على حقيقة ما يريد إنتاجه: أي عبق ما هو بشري. وإن كان هذا الآن بديلاً رديئاً، فهو مؤقت، لأن ما لا بد أن يصل إليه فعلاً هو امتلاك رائحة البشر التي لا يملكها. ومن البديهي أنه ليس ثمة رائحة بشرية، هكذا لا على التعيين، تماماً كما أنه ليس ثمة وجه بشري بملامح موحدة. فلكل إنسان رائحته المختلفة، وليس هناك من يعرف هذا أفضل من غرنوي الذي يعرف آلافاً مؤلفة من الروائح الفردية والقادر على التمييز بين هذا وذاك الفرد منذ لحظة ولادته. ومع ذلك كله هناك مادة عطرية رئيسية لعبق البشر، وهي بالمناسبة بسيطة التركيب جداً: مادة التعرق الدهنية ذات النكهة المخضبة بالجبن الحامض. وهي في جملتها مادة رئيسية مقرفة، لكنها تصدر عن الناس جميعهم دون استثناء، ومن ثم تأتي الغمامات الفردية الخاصة، بهالاتها الدقيقة التمايز.

لكن هذه الهالة البالغة التعقيد، هذه الشيفرة المميزة لما هو خاص شخصي، لا يدركها معظم الناس الذين لا يعرفون أصلاً أنهم يملكونها، ويفعلون فوق هذا كل ما بوسعهم لمواراتها، تحت الثياب وتحت الروائح الاصطناعية العصرية. إنهم لا يعرفون سوى المادة الرئيسية، ذلك البخار البشري البدائي، لأنهم لا يعيشون إلا فيه، وفيه فقط يشعرون بالزمن، ولا يعترفون بأحد كفرد من بني جنسهم إلا إن نضح جسمه بهذا البخار.

كان العطر الذي ابتكره غرنوي اليوم غريباً، لا مثيل له على وجه البسيطة حتى الآن. لم يكن يعبق كعطر، بل كإنسان ذي عبق خاص. إن شمه الإنسان في غرفة مظلمة توقع وجود إنسان آخر في المكان نفسه.

وإن استخدمه بشر له رائحة البشر لبدا لنا كائنين من البشر، والأسوأ من ذلك، ككائن وحشي مزدوج، ككيان لا يستطيع المرء تحديد ملامحه لأنها متداخلة مشوشة، كصورة قاع بحيرة على سطح متموج.

لكي يقلد غرنوي هذا العبق البشري – على علات العملية وحذقه في تمويهها على الآخرين – جمع من ورشة رونل أكثر الأشياء لفتاً للنظر.

وراء عتبة الباب المؤدي إلى الفناء وجد غرنوي كومة صغيرة وطازجة إلى حد ما من غائط القطط. أخذ منها نصف ملعقة، مزجها مع بضع قطرات من الخل ورشة ملح وسكبها في زجاجة المزج. وتحت طاولة الشغل وجد قطعة جبن بحجم نصف ظفر الإبهام، سقطت لاشك من إحدى وجبات رونل. كانت قديمة متفسخة وتفوح منها رائحة واخزة حادة. ثم حل عن غطاء علبة سردين وجدها في زاوية الورشة كتلة صغيرة تفوح منها رائحة السمك الزنخ، فخلطها مع بيضة فاسدة وشيء من الخروع والأمونياك وجوز الطيب ومسحوق القرون وشحم الخنزير المصفى. أضاف إلى ذلك كله كمية كبيرة نسبياً من الزباد ثم خلط هذه المواد المريعة بالكحول، تركها منقوعة لبرهة ثم صفاها عبر الفلتر في زجاجة ثانية. كانت رائحة المزيج قاتلة، كمرحاض متآكل. وإن خلط المرء بخارها مع نفحة هواء نقي بضربة مروحة لفاحت رائحة يوم صيفي قائظ في شارع "أوفير" في باريس عند زاوية "لانجري" حيث تتجمع الروائح المنبعثة من قاعة السوق والمقبرة والأبنية المكتظة بالناس.

وفوق هذه القاعدة المروعة الأشبه برائحة الجيف منها برائحة الإنسان سكب غرنوي طبقة من الزيوت المنعشة: كالنعناع والخزامى والتربنتين والليمون الحلو والأوكالبتوس. ولكي يحد من تأثيرها الحاد أضاف إليها

طبقة خفيفة من زيت الجيرانيوم والورد والبرتقال والياسمين، فموه المحتوى الأساسي بصورة لطيفة. وبعد أن مدد السائل ثانية ببعض الكحول والخل لم يتبق من المادة الأساسية أي أثر مقرف، فلقد ضاعت رائحة العطن المستترة بين المواد المنعشة المضافة لدرجة أن ذابت فيها. تحمل المقرف بعبق الورد فأصبح تقريباً، مثيراً، وغريباً، ولم يعد هناك للعفن أي أثر يلتقطه الأنف، لا شيء على الإطلاق. بل فاح من العطر على العكس عبق قوي مفعم بالحياة.

صب غرنوي العطر في قارورتين صغيرتين، غطاهما بسدادتين وخبأهما معه. ثم غسل الزجاجات والهاون والقمع والملاعق بالماء بعناية، وفركها بزيت اللوز المر، كي يمحو أي أثر للروائح، ثم تناول زجاجة مزج جديدة، ركب فيها عطراً مختلفاً، نسخة قريبة من الأول، تحتوي أيضاً على العناصر المنعشة والأخرى المستخرجة من الزهور، لكنها لا تتضمن أية ذرة من مطبخ الساحرات، بل مواد تقليدية تماماً كالمسك والعنبر ونسبة ضئيلة من الزباد وزيت خشب الأرز. كانت رائحته مختلفة كلياً عن العطر الأول: أخف، أعف، أقل نوعاً، إذ كانت تنقصه تلك العناصر التي تقارب رائحة البشر، ولكن إن استخدمه إنسان عادي وزاوجه برائحته الخاصة فسيصبح أثره مطابقاً تماماً لذلك الذي ابتكره غرنوي لنفسه فقط.

وبعد أن صب العطر الثاني أيضاً في قوارير، خلع ثيابه كلها ورش عليها من العطر الأول، ثم وضع منه بضع قطرات تحت إبطه وبين أصابع قدميه وعلى عضوه وصدره وعنقه وأذنيه وشعره، ثم ارتدى ثيابه وغادر الورشة.

٣٢

عندما وصل إلى الشارع أصابه الخوف فجأة، لعلمه أن للمرة الأولى في حياته ينضح برائحة بشرية. وفي الوقت نفسه انتابه إحساس بأن رائحته كريهة، مقرفة. وما كان بوسعه تصور أن الآخرين لا يجدون رائحته كريهة مثله. لم يجرؤ على الذهاب مباشرة إلى الحانة حيث ينتظره رونل ومدير شؤون قصر المركيز. بل وجد أنه من الأسلم أن يجرب هالته الجديدة في محيط مجهول.

انسل عبر أضيق الحارات وأكثرها عتمة باتجاه النهر، حيث توجد محلات وورشات دباغة الجلود والأقمشة ذات الروائح النتنة. وحال مروره بإنسان ما، أو بمجموعة أطفال تلعب عند مدخل أحد البيوت، أو بعجائز تجلس هناك، كان يتعمد التمهل في مشيته حاملاً حوله رائحته في شكل غمامة كبيرة.

منذ صغره اعتاد غرنوي على أن الناس الذين يمرون بجانبه لا يأبهون به على الإطلاق، لا نتيجة احتقار له - كما اعتقد ذات يوم - بل لمجرد أنهم لم يلحظوا وجوده أبداً. فمحيطه كان خاوياً، دون تموجات يمكنه أن يدفع بها إلى الجو العام، لنقل بتعبير آخر أنه لم يمتلك ظلاً ليرميه في وجوه الآخرين من البشر. فقط عندما كان يصطدم بشخص ما نتيجة الزحام أو فجأة عند منعطف ما، كان الآخر يلحظه، ولكن كلمح البصر. كان هذا الآخر يتراجع غالباً منزعجاً، ليحدق به، بغرنوي لثوان قليلة، كمن يرى كائناً، ما كان يجب أن يكون، لكنه موجود فعلاً، وبشكل ما غير موجود في الوقت نفسه، وليبتعد من ثم، ناسياً إياه، في اللحظة نفسها..

أما الآن في أزقة "مونبلييه" فقد أحس غرنوي بأن له ثمة تأثيراً على الآخرين. وكلما أحس بذلك وراَه كان يغمره شعور طاغ بالفخر والاعتزاز، عندما مر بامرأة منحنية فوق حافة بئر لاحظ كيف رفعت رأسها للحظة لترى من القادم، ولتعود من ثم مطمئنة إلى دلوها. والرجل الواقف بظهره له التفت إليه وتابعه لبرهة بنظرة ملؤها الفضول. أما الأطفال الذين كان يمر بهم فقد كانوا يتراجعون، لا خوفاً منه، وإنما ليفسحوا له الطريق، وحتى عندما كانوا يأتون مندفعين من أحد مداخل البيوت فيصطدمون به، لم يغشاهم الفزع، بل تجاوزوه ببداهة وعفوية، لكأنهم قد شعروا مسبقاً بقدوم شخص ما.

عبر الكثير من مثل هذه اللقاءات أصبح بمقدور غرنوي تقدير فعالية طريقة تأثير هالته الجديدة بدقة أكبر، فأضحى أكثر ثقة بنفسه، وبالتالي أشد جسارة. أصبح أكثر سرعة في مواجهته للناس وأخذ يقترب منهم عند مروره بهم، ويمد ذراعه قليلاً ليلامس ذراع عابر سبيل وكأن الأمر محض مصادفة. وذات مرة أراد تجاوز أحدهم، فاصطدم به وكاد أن يوقعه، وبدا الأمر سهواً، فتوقف واعتذر منه، أما الرجل الذي كان يحتمل أن يكون رد فعله بالأمس على ظهور غرنوي المفاجئ أشبه ما يكون بالصاعقة، فقد اعتبر الأمر الآن وكأن شيئاً لم يكن، فقبل الاعتذار وابتسم باقتضاب وهو يربت على كتف غرنوي.

غادر الأزقة إلى الساحة ووقف عند كاتدرائية "سان - بيير". كانت النواقيس تقرع. وكان هناك حشد من الناس على جانبي البوابة، فالقران الذي تم عقده قبل برهة في الداخل قد انتهى والناس راغبون برؤية العروس. الزحام على أشده، أراد أن يقف هناك حيث يكون الآخرون

ملتصقين بجلده وحيث يكون هو تحت أنوفهم لينضح عبقه الخاص. وفي وسط الزحام باعد ما بين ذراعيه ثم ساقيه وفك ياقة قميصه كي يتدفق العبق دون أي عائق.. لم يكن لسعادته حدود عندما لاحظ أن الآخرين لم ينتبهوا إلى شيء، لا شيء لفت انتباههم. وأكثر ما أسعده هو أن كل هؤلاء الرجال والنساء والأطفال المنضغطين من حوله قد قبلوا خديعته وهم يشممون مزيج براز القطط والجبن والخل الكريه، كرائحة واحد من بني جلدتهم، مقتنعين ببيضة الديك، غرنوي، المنتصب بينهم كواحد منهم.

أحس بحركة طفل عند ركبتيه.. كانت طفلة مشلولة الحركة في زحام الكبار. رفعها غرنوي بعناية متصنعة وحملها على ساعده كي ترى ما يجري بشكل أفضل. أما الأم فإنها لم تصبر على ذلك فحسب بل شكرته على تصرفه بينما كانت الطفلة تصيح فرحاً.

بقي غرنوي ما يناهز ربع ساعة واقفاً في حضن الحشد، ضاغطاً إلى صدره المرائي طفلة غريبة. وخلال عبور موكب العرس موافقاً بقرع النواقيس واحتفال الحشد به وبمطر القطع النقدية التي انهمرت فوقه، تفجر في داخل غرنوي احتفال آخر، احتفال أسود، شعور شرير بالنصر جعله يرتجف كما في نوبة شبق، وبذل جهداً كبيراً كيلا يقذفه كالسم في وجه الحشد: "تعيش العروس! تحيا العروس! يحيا الزوجان الرائعان!".

بعد أن ابتعد موكب العرس وانفض الحشد، سلم الطفلة إلى أمها ودخل الكنيسة كي يستريح من هيجانه ويريح ساقيه. كان الهواء في الداخل مفعماً بالبخور الذي كان ينبعث دخانه البارد في مويجات من وعائين إلى جانبي المحراب ليتحول من ثم إلى غلاف خانق فوق العبق

الألطف المنبعث من الناس الجالسين في الكنيسة. جلس غرنوي على مقعد تحت شرفة الكورال.

وفجأة غمره شعور عظيم بالرضا، لا كتلك النشوة السكرى التي كانت تنتابه خلال احتفالاته الصاخبة في حضن الجبل، بل حالة شديدة البرودة من الصحو الذي يمليه الوعي على سلطته. الآن أدرك غرنوي مدى ما هو قادر عليه. لقد استطاع بالاستعانة ببعض المواد السخيفة وبفضل عبقريته الخاصة أن يجسد عبق البشر، ومنذ المحاولة الأولى، بحيث تمكن حتى من خداع طفلة. وأدرك الآن أنه قادر على أكثر من ذلك. وعرف أن باستطاعته تحسين هذا العبق، بل إن بمقدوره أن يبتكر عبقاً، لا بشرياً فحسب، بل بما يتجاوز ذلك، عبقاً ملائكياً، هو من الجودة بحيث لا يوصف حسنه، ومن قوة الحياة بحيث لا تقدّر طاقته. ومن يشمه سيؤخذ ويسحر، وسيحب مبدعه غرنوي من كل قلبه.

وطالما هم تحت تأثير عبقه، فعليهم أن يحبوه، لا أن يقبلوا به كواحد منهم فحسب. عليهم أن يحبوه حتى الجنون، حتى التضحية بالذات، وأن يرتجفوا من النشوة وأن يبكوا من الفرح دون أن يعرفوا السبب، وعليهم أن يركعوا أمامه كما يركعون أمام بخور الرب المقدس البارد، بمجرد شمهم رائحته، رائحة غرنوي الذي يبغي أن يكون رب الروائح كلها، الكلي القدرة، كما رأى نفسه في تخيلاته، ولكن في العالم الحقيقي الآن، وفوق أناس حقيقيين.

وكان يعرف حق المعرفة أن ذلك بمقدوره. إن بوسع البشر أن يغمضوا عيونهم أمام ما هو عظيم، أو مروّع أو جميل، وأن يغلقوا آذانهم أمام الألحان والكلام المعسول، ولكن ليس بوسعهم الهروب من العبق، لأنه شقيق

الشهيق. معه يدخل إلى ذواتهم، ولا يستطيعون صده إن رغبوا بالبقاء على قيد الحياة! إنه يدخل إلى أعماقهم، إلى القلب مباشرة حيث يتم الفصل الحاسم بين الميل إليه أو احتقاره، بين القرف منه أو الرغبة فيه، بين حبه أو كرهه. وذلك الذي يهيمن على الروائح، ليسيطر على قلوب البشر.

جلس غرنوي على المقعد في كاتدرائية "سان - بيير" شاعراً بالفرح ومبتسماً. لم يكن في مزاج روائحي عندما قرر السيطرة على البشر. لم تلتمع عيناه كالمجنون ولم تعل وجهه ابتسامة مهووس. إنه لم يفقد عقله الذي كان على العكس في أكثر حالاته صفاء وصحواً، لدرجة أن سأل نفسه: لماذا يرغب أصلاً بالسيطرة عليهم؟ وأجاب نفسه: لأنه شرير حتى النخاع: ابتسم خلال ذلك وغمره الرضا، وبدا في منتهى البراءة، كإنسان سعيد.

بقي لبرهة جالساً كما هو، في هدوء تعبدي، مستنشقاً الهواء المترع بالبخور. ثم عادت الابتسامة الساخرة إلى وجهه: ما أبأس رائحة هذا الرب! وما أردأ صناعة هذا العبق الذي يسمح بأن يفوح منه! فما كان يحترق في الوعائين لم يكن حتى بخوراً أصيلاً، بل بديلاً رديئاً من خشب الزيزفون وغبار القرفة والبارود. رائحة الرب كانت نتنة. والرب نفسه كان مسكيناً صغيراً نتناً. فإما أن يكون قد خدع أو أن يكون هو نفسه مخادعاً، مثل غرنوي - ولكن بصورة أسوأ بكثير من غرنوي!

٣٣

طار المركيز دو لا تيلاد - إسبيناز إعجاباً بالعطر الجديد. ووجد - على حد قوله - أنه من المذهل أن يكون لشيء ثانوي، كالعطر مثلاً، مثل هذا التأثير الراسخ على الوضع العام للفرد، سواء جاء العطر من

مواد قريبة من الأرض أم بعيدة عنها لا فرق، وخاصة عليه هو، مكتشف الفلويدوم ليتال، فكيف بالنسبة لغرنوي الذي كان قبل ساعات قليلة مستلقياً هنا، شاحباً، في حالة تقارب الإغماء، وإذا به الآن نشيطاً مفعماً بالحيوية، كأي إنسان آخر في عمره من أصحاء الجسم، لدرجة يكاد المرء معها أن يقول بأنه قد اكتسب شخصية بشكل ما، رغم جميع التحفظات على منبته وتربيته المحدودة. لكن تيلاد - إسبيناز رغم هذا كله لن ينوه إلى شيء من هذا القبيل في فصل علم الحمية الحيوية الذي ستتضمنه دراسته حول نظرية الفلويدوم ليتال التي ستنشر قريباً. أما أول ما أراد عمله الآن فهو أن يضمخ نفسه بالعطر الجديد.

ناوله غرنوي قارورتي عطر الزهور التقليدي، فرشَّ المركيز على نفسه منه، مبدياً إعجابه الكبير به. وعبّر عن ذلك بقوله إنه يشعر كمن نبت له الآن جناحان مزهران بعد الارتخاء المريع الذي كان يعاني منه عبر السنوات الطويلة التي استخدم خلالها عطر البنفسج، وإن لم يكن مخطئاً فإنه يشعر بتراجع الآلام المفرطة في ركبتيه والطنين في أذنيه، وهو على الإجمال يشعر بنفسه منتعشاً ومعافى كأنه قد استعاد سنوات من شبابه. توجه إلى غرنوي وعانقه قائلاً: "يا أخي الفلويدومي" ثم أضاف إنه لا يقصد بهذا اللقب جانبه الاجتماعي، أبداً، وإنما الجانب الروحي بالمفهوم الكوني للفلويدوم ليتال الذي حسبه، وحسبه فقط يتساوى الناس جميعهم، ثم قال وهو ينفصل عن غرنوي بود ودون أدنى شعور بالقرف بأنه يعتزم في القريب العاجل تأسيس محفل دولي لا طبقي هدفه القضاء على الفلوديوم ليتال قضاءً مبرماً وإحلال الفلوديوم فيتال محله، وهو يَعِد منذ الآن بأن غرنوي سيكون أول أتباعه. وبعد أن دوّن له أحد خدمه

وصفة عطر الزهور على ورقة، وضع الورقة في جيبه ومنح غرنوي خمسين قطعة نقدية ذهبية.

بعد مضي أسبوع على المحاضرة الأولى عاد المركيز دو لا تيلاد - إسبيناز إلى قاعة الجامعة ليجد عرض محظيّه على الملأ. كان الزحام هائلاً. مونبلييه بأسرها أتت، لا علماؤها فقط، بل وبالتحديد نخبة المجتمع، ومنها عدد غير قليل من السيدات اللواتي أتين بغية رؤية رجل الكهف الأسطوري. ورغم أن أعداء المركيز - وهم بشكل رئيسي ممثلو "جمعية أصدقاء حديقة الجامعة الزراعية" وأعضاء "جمعية تشجيع الإنتاج الزراعي" - قد جندوا كل أتباعهم، نجح الحفل بصورة مذهلة. ولكي ينعش المركيز ذاكرة الجمهور حول وضع غرنوي قبل أسبوع، قدم له مجموعة من الرسوم تمثل رجل الكهف، موضحة بشاعته وحالة انهياره الكامل. ثم سمح بإدخال غرنوي الجديد ببذته المخملية الزرقاء الجديدة الجميلة، بقميصه الحريري، ممكيجاً، مبودراً وممسرحاً - فكانت طريقة مشيه، منتصباً وبخطوات رشيقة مبتدئة بحركة أنيقة عند الورك، واعتلاؤه المنصة دون أدنى مساعدة، مبتسماً ومحيياً، تارة بهذا وتارة بذاك الاتجاه، هذا كله كان كافياً لإسكات كافة المتشككين والنقاد، ولإخماد معارضة أصدقاء "جمعية حديقة الجامعة الزراعية" شاعرين بهزيمتهم الساحقة. كان التغير المرئي الآن جلياً جداً، يقارب المعجزة: فالذي كان قبل أسبوع من الزمن حيواناً متآكلاً متهالكاً، أصبح الآن إنساناً متحضراً بكل معنى الكلمة. والجو الذي ساد القاعة كاد أن يكون تعبدياً، لدرجة أن انعدم حتى الهمس عندما نهض المركيز تيلاد - إسبيناز لإلقاء محاضرته. عاود المركيز عرض تطويره لنظريته المعلنة

حول الفلويدوم ليتال، ثم شرح بأية وسائل تقنية وأخرى متعلقة بنظام الحمية تمكن من طرد الغازات الحيوية محلها. ثم طالب الحضور في الختام، الأصدقاء منهم والأعداء، أمام هذا البرهان الساطع، أن يتخلوا عن مواقفهم الرافضة لنظريته الجديدة، وأن يتعاونوا معه، مع المركيز تيلاد - إسبيناز، من أجل مكافحة الغازات الشريرة، والانفتاح مقابل ذلك تجاه الغازات الحيوية. ومع قوله هذا، بسط ذراعيه ورفع عينيه نحو السماء متضرعاً. تبعه في ذلك العديد من رجالات العلم. أما النساء فقد انهمرت دموعهن.

كان غرنوي واقفاً على المنصة دون أن يصغي. بل كان يراقب بمنتهى الرضا تأثير فلويدوم آخر، أكثر حقيقية بما لا يقاس: فلويدومه هو، الذي كان قد عطر نفسه به بكمية تتناسب مع فضاء القاعة، بحيث تلألأت هالته حالما صعد إلى المنصة. لقد رآها - لقد رأى فعلاً، بعينيه،هالته وهي تسطع على الصفوف الأولى من المشاهدين، ثم على الصفوف التالية، لتصل من ثم إلى آخرها. وكل من مسته الهالة كان تغيره واضحاً - ولكم طرب قلب غرنوي لذلك. فتحت هيمنة رائحته الخاصة، ولكن دون إدراك ذلك، بدّل الناس تعابير وجوههم وسلوكهم ومشاعرهم، بشكل جلي. ومن كان في البداية يحملق فيه بدهشة جامدة اكتست نظراته الآن بشيء من الرقة، ومن كان مستنداً إلى ظهر كرسيه في حالة متصلبة، بجبين معقود متفحص، راخياً طرفي فمه بما يوحي بالأهمية، ذاب الآن تصلبه ودنا بجسمه إلى الأمام وظهرت على وجهه مسحة طفولية، وحتى أولئك الأكثر خوفاً ورعباً وحساسية، أولئك الذين قابلوا منظره السابق بارتياع، والحالي بتشكك واضح، تدفقت منهم الآن مشاعر الود، بل التعاطف عندما وصلت رائحة غرنوي أنوفهم.

عند اختتام المحاضرة نهض الجمهور كله مصفقاً بصخب احتفالي، مختلط بصيحات علماء أهم جامعات جنوب فرنسا: "يعيش الفلويدوم الحيوي! يعيش تيلاد - إسبيناز! تعيش نظرية الفلويدوم! ولتسقط علوم الطب الرجعية المحافظة!" وكانت هذه أهم لحظة في حياة المركيز دو لا تيلد - إسبيناز.

أما غرنوي الذي هبط من المنصة واختلط بالجمهور المحتفل، فقد كان متأكداً من أن هذه الصيحات الاحتفالية تخصه هو وحده، جان - باتيست غرنوي، رغم أنه ليس ثمة في الحشد كله من أدرك شيئاً من ذلك.

٣٤

بقي غرنوي بضع أسابيع أخرى في "مونبلييه"، فقد حظي بشهرة كبيرة جعلته الضيف الأكثر أهمية في جميع السهرات، حيث كان يُسأل عن حياته في الكهف وعن معالجة المركيز له. وكان عليه مراراً وتكراراً أن يعيد سرد قصته عن مختطفيه وعن السلة وعن السلم. لكنه لم يترك الفرصة تمر دون أن يضيف إلى الحكاية المزيد من التفاصيل ويزوّقها. وفي الوقت نفسه كانت هذه فرصته للتدرب على الكلام الذي كان مشكلة حياته طيلة الوقت، لكن ما اكتسبه فعلاً هو التدرب على الكذب والتعامل معه.

واقتنع أن بمقدوره أن يهذر بما يشاء، وأن الحشد سيصدقه، وقد صدقه فعلاً بمجرد تنشقه النفس الأول من رائحته الاصطناعية، دون أي تساؤل من بعد. كما اكتسب، للمرة الأولى في حياته، أسلوباً في

التعامل الاجتماعي مع الناس، تبدى حتى جسدياً، فبدا وكأنه قد نما فعلاً، وكأن حدبته قد اختفت ثم وكأنه قد أصبح قادراً على المشي منتصب القامة تماماً. ولم يعد عند مواجهته بالأسئلة ينكمش على نفسه كالسابق، بل يبقى منتصباً ومحدقاً في عيني سائله. إلا أن هذه الفترة الزمنية لم تكن كافية لتجعل منه رجلاً منفتحاً على العالم أو أسد صالونات أو متحدثاً اجتماعياً بارعاً. ولكن من الواضح أن لخمته وانكماشه قد تراجعا لتحل مكانهما وضعية فُسرت على أنها تواضع طبيعي، أو على أنها على أية حال تعبير عن خجل خفيف متأصل، ترك لدى الكثير من السادة والسيدات انطباعاً ودياً متعاطفاً - ففي الأوساط الراقية كان الناس مغرمين بما هو طبيعي وبنوع من الفتنة الخشنة.

وصباح أحد أيام مطلع آذار / مارس، حالما فتحت بوابات المدينة، لمَّ غرنوي حاجياته وغادر، مرتدياً سترة بنية اللون لا تلفت النظر، كان قد اقتناها بالأمس من سوق الألبسة المستعملة، بالإضافة إلى قبعة بالية تغطي نصف وجهه. لم يعرفه أحد، بل لم يره أو يلاحظه أحد، فقد تعمد أن يستغني اليوم عن عطره. وحوالي الظهيرة عندما أعطى المركيز أوامره بالتفتيش عنه أقسم الحراس بكل ما يؤمنون به بأنهم قد رأوا كل من غادر المدينة، إلا رجل الكهف الشهير الذي كان لابد أن يلفت أنظارهم. ونتيجة لذلك نشر المركيز في كل مكان خبر أن غرنوي قد غادر "موبلييه" بموافقته ليقضي بعض شؤونه العائلية في باريس. لكنه بينه وبين نفسه استشاط غضباً، فقد كان في نيته أن يقوم برفقة غرنوي بجولة في كافحة أنحاء المملكة كي يكسب أتباعاً لنظرية الفلويدوم.

بعد فترة من الزمن هدأ المركيز، فقد انتشرت شهرته دون الجولة ودون جهد شخصي في كل مكان. فنشرت مقالات مطولة حول الـ "فلويدوم ليتال تيلاد" في "جورنال دي شافان" وحتى في "كوريير دو لوروب". ومن أقاصي المملكة توافد عليه مرضى الليتال كي يشفيهم. في صيف ١٧٦٤ أسس المركيز المحفل الأول لـ"فلويدوم الحيوي" بمئة وعشرين عضواً في "موبلييه" وفرعين في "مرسيليا" و"ليون". ثم جازف وقرر الانتقال إلى باريس كي يهيمن من هناك ولمصلحة نظريته على العالم المتحضر بأسره. لكنه قبل ذلك، وبهدف دعم حملته الدعائية أراد أن يجترح معجزة فلويدومية تغطي على شفائه لرجل الكهف وعلى كافة تجاربه الأخرى. وفي مطلع كانون الأول / ديسمبر جعل مجموعة من الأتباع الشجعان يرافقونه في حملة استكشافية إلى قمة "كانيغو" التي تقع مثل باريس على خط الطول نفسه، وهي أعلى قمة في جبال "البيرينيه". وكان هدف الرجل المشرف على أعتاب الشيخوخة أن يحمله أتباعه إلى ارتفاع (٢٨٠٠) متراً كي يعرض نفسه هناك طيلة أسابيع ثلاثة لأنقى هواء حيوي، ولكي - على حد قوله - يهبط عشية عيد الميلاد بالتحديد كشاب في العشرين مفعماً بالقوة والحيوية.

بعد "فرنه" بقليل، وهي آخر مكان مأهول بالسكان على سفح الجبل المرعب تخلى الأتباع عن المهمة. أما المركيز فما كان ثمة ما يثنيه عن عزمه. فنفض عنه ثيابه في البرد الجليدي وهو يصيح مبتهجاً وبدأ وحده بتسلق القمة. وكان آخر ما رأوه منه شبحه وهو يختفي في العاصفة الثلجية رافعاً ذراعيه باتجاه السماء ومغنياً بصخب.

عشية عيد الميلاد انتظر الأتباع عودة المركيز دو لا تيلاد-

إسبيناز، ولكن دون جدوى، لأنه لم يأت لا عجوزاً ولا شاباً. وفي مطلع صيف العام التالي عندما انطلق أشجع الشجعان للبحث عنه ووصلوا إلى القمة المغطاة بالثلوج لم يجدوا له أثراً. لا قطعة ثياب ولا جزءاً منه ولا حتى نثرة من عظامه.

ومع ذلك فإن نظريته لم يطلها أي تأثير، بل العكس هو الذي حدث، إذ سرعان ما انتشرت خرافة أن المركيز قد توحد على قمة الجبل مع الفلويدوم الحيوي، فحلَّ كل منهما في الآخر ليصبحا تجسيداً مستمراً لا مرئياً للشباب الخالد على ذروة "البيرينيه"، وكل من يصعد إليه سيلتقيه هناك ليمنَّ عليه بعام كامل خال من الأمراض ومن عملية الهرم. حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر بقيت نظرية تيلاد الفلويدومية تدرس بحماس في العديد من كليات الطب، وتستخدم كعلاج من قبل الكثير من الجمعيات الغيبية. وحتى يومنا هذا مازالت هناك على جانبي سلسلة جبال "البيرينيه"، وتحديداً في "بيربينان" و"فيفويراس" محافل تيلادية سرية يلتقي أتباعها مرة في السنة بهدف تسلق قمة "كانيغو".

وهناك يوقدون ناراً هائلة زاعمين أنهم إنما يفعلون هذا احتفاء بتحول الشمس الفصلي نحو الدفء وتكريماً للقديس جون، لكن غرضهم الحقيقي هو تمجيد معلمهم تيلاد - إسبيناز وفلويدومه، ناشدين الخلود.

الجزء الثالث

٣٥

في حين احتاج غرنوي إلى سبع سنوات لقطع تلك المرحلة من رحلته عبر فرنسا، فقد قطع المرحلة الثانية في أقل من سبعة أيام. ما عاد يتجنب الشوارع المأهولة والمدن، ولم يأخذ الطرق الفرعية، فهو يمتلك الآن الرائحة والمال والثقة بالنفس، كما كان متلهفاً للوصول إلى هدفه.

في مساء اليوم الذي غادر فيه "مونبلييه" وصل إلى "لوغرو - دو روا"، وهي مدينة ساحلية صغيرة تقع جنوب غربي "إغو - مورت"، حيث ركب سفينة شحن شراعية إلى "مرسيليا". وعند وصوله "مرسيليا" لم يغادر المرفأ، بل بحث مباشرة عن سفينة تقله على طول الشاطئ باتجاه الشرق. بعد يومين وصل "طولون"، وبعد ثلاثة أيام أخرى وصل إلى "كان"، وقطع بقية الطريق على قدميه آخذاً طريقاً داخلياً يوصل إلى الشمال عبر الهضاب.

وبعد ساعتين كان على قمة مرتفع مستدير الشكل وقد انبسطت أمامه على مسافة أميال أرض زراعية واسعة كحوض تحده من كافة الجوانب هضاب خفيفة الانحدار ومنحدرات جبلية قاسية، وتشكل صحنه من سهول حديثة الزرع وحدائق وكروم زيتون، وقد هيمن على الحوض طقس خاص به وحده، فريد وحميم. كان البحر شديد القرب بحيث يمكن للمرء أن يراه من ذرى الهضاب؛ ورغم ذلك لم يكن هنا ما يمت إلى

الطقس البحري بصلة، لا الملوحة الرملية ولا المدى الواسع، وإنما عزلة هادئة، وكأنما الإنسان بعيد عن الساحل بما يعادل رحلة أيام عديدة. ورغم وجود الجبال الشامخة باتجاه الشمال، وهي مازالت مغطاة بالثلوج التي ستبقى لمدة طويلة قادمة فإن المرء لا يشعر هنا بالخشونة أو الجدب، ولا حتى بالريح الباردة. هنا كان الربيع أكثر تقدماً منه في "مونبلييه"، وثمة ضباب خفيف يغشى الحقول كغطاء زجاجي. كانت أشجار المشمش واللوز مزهرة والهواء الدافئ يحمل معه أريج النرجس.

على الطرف الآخر من الحوض، على بعد ميلين ربما، كانت هناك، بل يفضل أن نقول التصقت هناك على سفح الجبل مدينة لا تترك من هذه المسافة انطباعاً مؤثراً. لم يكن هناك أسقفية ضخمة يشمخ بناؤها فوق أسطحة المنازل؛ فعدا عن برج الكنيسة الصغير المتواضع لم يكن في المدينة أي بناء أو حصن يلفت النظر. ولم يبد على سور المدينة أنه قد بني بهدف دفاعي، خاصة وأن البيوت هنا وهناك قد اندلعت متجاوزة حدود المدينة، وخاصة باتجاه السهول، مما أكسب الضواحي منظراً مستهلكاً نوعاً ما. بدا المكان وكأنه قد تعرض مرات متتالية للاحتلال والتحرير. ولكأنه قد ملّ من مجابهة أي دخلاء جدد، لا عن ضعف، ولكن بسبب الخمول، أو نتيجة شعور ضمني بالقوة. بدا المكان زاهداً بالأبهة. فهو يسيطر على الحوض الأرج الهائل المنبسط تحته، وفي هذا ما يكفيه.

هذا المكان الوديع والواثق من نفسه في الوقت ذاته كان مدينة "غراس"، مركز إنتاج وتجارة مواد العطارة والعطور، من مختلف أنواع الصابون والزيوت، دون منازع منذ عدة عقود. ولطالما نطق جوزيبه

بالديني اسمها بحماس حالم، قائلاً إنها روما العطور، والأرض الموجودة للمشتغلين بالعطور، ومن لم يكتسب خبرته هنا، فلا يحق له أن يحمل لقب عطار.

كانت عينا غرنوي موجهة نحو مدينة "غراس" بنظرات شديدة اليقظة. لم يكن يبحث عن أرض العطارين الموجودة، ولم يخفق قلبه لرؤية هذا العش المعلق على المنحدر. لقد أتى إلى هذا المكان لأنه كان يعلم أن ثمة طرائق في استخدام الروائح، يفضل تعلمها هنا عن أي مكان آخر. وهذه الطرائق بالذات هي ما أراد أن يعرفه ويمتلكه نظراً لحاجته لها لأغراضه الخاصة. أخرج من جيبه قارورة عطره وسكب منها على نفسه باقتصاد وهو يتابع طريقه. وبعد ساعة ونصف، عند الظهيرة تقريباً وصل غرنوي إلى "غراس".

تناول وجبة في مطعم يقع في الطرف الأعلى من المدينة، في ساحة "أو إير". كان هناك جدول يخترق الساحة بطولها، يتجمع حوله عمال الدباغة لغسل جلودهم ونشرها من ثم في أرض الساحة. كانت الرائحة واخزة لدرجة أن معظم زبائن المطعم قد فقدوا رغبتهم في الطعام إلا هو. فقد كان معتاداً على هذه الرائحة لدرجة أنها كانت توحي له بنوع من الأمن. وفي المدن جميعها كان أول ما يبحث عنه هو مناطق الدباغين. وحالما يجده كان ينتابه شعور كالخارج من أجواء العطن، مستكشفاً مناطق المكان الأخرى، ولكن ليس كغريب عنه.

قضى بعد الظهر كله متجولاً في أنحاء المدينة التي وجدها في منتهى القذارة رغم وفرة الماء، أو ربما بسبب المياه المتدفقة من ينابيع عديدة، والمنحدرة في جداول ومسارب غير منظمة، تملأ الحواري والأزقة

بالوحل والطين. وفي بعض مناطق المدينة كانت المنازل مكتظة إلى جانب بعضها بحيث لم يتبق لممرات المشي والأدراج سوى عرض ذراع، فكان على المشاة أن يشقوا طريقهم بالمناكب عبر الأوحال. وحتى في الساحات وبعض الطرق العريضة نوعاً ما، لم يكن تجنب تصادم العربات المتقابلة في الاتجاهين أمراً يسيراً.

ومع ذلك، رغم القذارة كلها، رغم الوحل وضيق الطرقات كانت المدينة تغلي بالعمل الحرفي. فقط خلال جولته الأولى اكتشف غرنوي سبع مطابخ للصابون ودزينة من متاجر العطور وصناعة القفازات إلى جانب عدد غير قليل من محلات التقطير وتحضير الدهون والتوابل بالإضافة أخيراً إلى سبعة متاجر لتداول الروائح بالجملة.

لكن أصحاب هذه المحال جميعاً كانوا تجاراً، تحتوي مستودعاتهم على كميات تجارية من البضائع الروائحية، ولم تكن بيوتهم في الغالب لتدل على ذلك. كانت واجهات المحلات المطلة على الشوارع تبدو بورجوازية متواضعة، لكن المهم هو ما كانت تحتويه المستودعات والأقبية التابعة لها من براميل الزيوت وأكوام صابون الخزامى ودمجانات ماء الورد والنبيذ والكحول والجلود ذات العبق والأكياس والصناديق والعلب المتخمة بكافة أنواع البهارات... - لقد شمها غرنوي في أدق تفاصيلها رغم الجدران السميكة -. وكانت هذه البضائع تعادل ثروات لا يملكها حتى الأمراء. وعند التدقيق، شميّاً، فيما يقع وراء هذه القاعات والغرف المطلة على الشوارع اكتشف غرنوي على الطرف الآخر منها روائح معمارية مذهلة بفخامتها. فالأقسام السكنية من البناء كانت معمرة على شكل حدوة حصان مفتوحة باتجاه الجنوب حول حدائق صغيرة رائعة مزدانة بأشجار النخيل والدفلى وبأحواض الزهور المحيطة بالبحرات ذات النوافير التي يتدفق منها الماء: في الطوابق العلوية توجد غرف النوم التي تغمرها أشعة الشمس لتضيء جدرانها المغطاة بالحرير. وفي الطوابق السفلى توجد الصالونات التي رصفت أرضيتها بالخشب الفاخر الغريب إلى جانب غرف الطعام التي كانت تمتد أحياناً كشرفة على الحديقة حيث كان السادة كما حكى له بالديني يتناولون طعامهم فعلاً بملاعق وشوك وسكاكين ذهبية من صحون بورسلانية. والسادة الذين كانوا يعيشون خلف هذه الواجهات المتواضعة كانت تفوح منهم رائحة الذهب والنفوذ، رائحة ثراء هائل وأكيد. وهذه الرائحة هنا كانت أقوى من أي مكان آخر عبره غرنوي خلال رحلته على طريقه إلى "غراس".

أمام واحدة من مثل هذه الواجهات التمويهية وقف غرنوي لفترة طويلة. كان موقع المنزل في بداية "شارع دروات"، وهو شارع رئيسي يخترق المدينة بطولها من الغرب إلى الشرق. منظر المنزل لم يوح بما يلفت النظر، ربما كانت بوابته أعرض وأفخم من بوابات المنازل المجاورة، لكن منظرها على أية حال لم يكن فاقعاً. أمام المدخل كانت هناك عربة محملة بالبراميل التي كان العمال يدحرجونها على منزلق خشبي، في حين وقفت عربة أخرى بانتظار دورها. ثمة رجل يحمل أوراقاً في يده دخل إلى مكتب المتجر وخرج بعد حين بصحبة رجل آخر ثم دخلا المنزل عبر البوابة. أما غرنوي فقد وقف على الطرف المقابل من الشارع مراقباً ما يجري أمامه، من اهتمام، ومع ذلك فقد بقي، إذ ثمة ما كان يسمره في مكانه.

أغمض عينيه مركزاً على الروائح المتدفقة نحوه من البناء المقابل. كانت هناك روائح البراميل، خل ونبيذ، ثم مئات الروائح الثقيلة المنبعثة

من المستودعات، ثم روائح الثروة المترشحة عبر الجدران كعرق ذهبي فاخر، وأخيراً روائح الحديقة الواقعة لاشك في الطرف الآخر من المنزل. لم يكن من اليسير التقاط الروائح اللطيفة المنبعثة من الحديقة، لأنها كانت تتسرب كأشرطة رفيعة من فوق سطح المنزل هابطة نحو الطريق. ميّز غرنوي زهور المانوليا والياقوتية والغار والوردية الخلنجية... - ولكن يبدو أن في الحديقة شيئاً آخر له عبق أخاذ وفاخر لم يعرف أنفه مثله في حياته - أو لربما مرة واحدة لا غير - وكان لابد له من أن يقترب من هذا العبق.

فخطر بباله أن يعبر البوابة ببساطة إلى داخل البناء، لكن كثرة العمال المنهمكين بتفريغ ومراقبة العربات في البراميل كانت ستلفت النظر إلى وجوده. فقرر أن يهبط الشارع بحثاً عن منعطف فرعي يوازي جدران المنزل من الخلف. بعد أمتار قليلة وصل إلى بوابة المدينة عند بداية "شارع دروات". عبرها وتابع طريقه يساراً بلصق السور. بعد برهة التقط روائح الحديقة، ضعيفة في البداية ومختلطة بهواء الحقول، ثم بدأت تقوى وتقوى إلى أن أدرك أخيراً أنه قد بلغ أقرب نقطة إليها. كانت الحديقة ملاصقة لسور المدينة، كانت بجانبه تماماً، ولو تراجع إلى الوراء قليلاً لرأى ذرى أغصان البرتقال السامقة فوق السور.

أغمض عينيه ثانية. فانهمرت عليه روائح الحديقة واضحة ومستمرة كأشرطة قوس القزح الملونة. ومن بينها كانت تلك الثمينة التي تهمه أكثر من غيرها. فغمرته حرارة شديدة نتيجة السعادة، وبرودة قاسية بسبب الفزع. اندفع الدم إلى رأسه كطفل ضبط متلبساً، ثم انسحب إلى منتصف جسمه. تكرر الأمر ثانية دون أن يتمكن غرنوي من أن يفعل

أي شيء حيال ذلك. فهجوم هذه الرائحة عليه كان مفاجئاً جداً. وللحظة، مدة شهيق واحد، للأبد، بدا له وكأن الزمن قد تضاعف أو اختفى نهائياً، إذ لم يعد يدري إن كان الآن هو الآن، وهنا هو هنا، وبالأحرى فيما إذا كان الآن هو حينذاك، وهنا هو هناك، أي في شارع "دي ماريه" في باريس، في أيلول / سبتمبر ١٧٥٣: فالعبق الآتي من الحديقة مع النسيم كان عبق الفتاة ذات الشعر الأحمر، التي قتلها آنذاك. وأن يجد هذا العبق في هذا العالم ثانية جعل دموع الفرح تترقرق من عينيه - وكون الأمر مستحيلاً جعله يفزع حتى الموت.

داخ غرنوي وتمايل قليلاً، مما اضطره للاستناد إلى السور وللهبوط ببطء مقرفصاً. تكور في هذه الوضعية متمالكاً نفسه وبدأ يتنشق العبق بأنفاس أقصر وأقل خطراً. فتأكد له أن عبق ما وراء السور يشابه إلى حد كبير عبق الفتاة ذات الشعر الأحمر، لكنه لا يماثله تماماً. كما تأكد من أنه يفوح هنا أيضاً من فتاة ذات شعر أحمر، دون أدنى شك في تصوره الشمي رأى غرنوي هذه الفتاة ماثلة أمامه كما في لوحة: لم تكن تجلس هادئة، بل كانت تتقافز هنا وهناك، وعندما يحمى جسدها تفتر حركتها لتبرده؛ لاشك أنها تلعب لعبة تعتمد على الانتقال من الحركة إلى السكون بسرعة - ومع شخص آخر ذي رائحة غير ذات أهمية مطلقاً. بياض وجهها وعنقها وثدييها... هذا يعني - توقف نفس غرنوي للحظة، ثم تنشق بقوة أكبر محاولاً طرد رائحة فتاة شارع "دي ماريه" من ذاكرته الروائحية - ... هذا يعني أن ثديي الفتاة لم ينبتا بعد، وبكل ما في الكلمة من معنى! حتى أن بداية الثديين لم تظهر بعد. بل إن لهما حلمتين تفعان فائق النعومة ضعيف الأريج، مزدانتان بنمش

الشمس، وبدأتا بالكاد، ربما منذ أيام قليلة، وربما منذ ساعات فقط، ... لا بل في هذه اللحظة بالذات بالاستدارة والتكور كقبتين ضئيلتين. بكلمة واحدة: الفتاة مازالت طفلة. ولكن، يا لها من طفلة!

وقف غرنوي والعرق ينضح من جبينه. كان يعرف أن رائحة الأطفال ليست مميزة بشكل خاص، تماماً كالبراعم الخضراء قبل تفتحها إلى زهور. أما هذه، هذه التي مازالت بالكاد برعماً وراء السور، وقد أخذت الآن بنضح أولى شذرات عبقها، دون أن يلحظها أحد سوى غرنوي، فقد كان لعبقها منذ الآن ما يوقف شعر الرأس. وعندما تتفتح بكامل بهائها فستغدق من ذاتها عطراً، لم يعرفه العالم من قبل. إن عبقها الآن أفضل من عبق تلك الفتاة من "شارع دي ماريه"، هكذا فكر غرنوي؛ ليس بنفس الزخم، ولا بنفس الحجم، لكنه أرق، أغنى، وفي الوقت نفسه أكثر طبيعية. وخلال سنة أو اثنتين سيكتسب هذا العبق قوة لن يتمكن أي إنسان من التملص منها، لا رجلاً ولا امرأة. وسيكون الناس خاضعين، دون أي سلاح، وعاجزين أمام سحر هذه الفتاة، دون أن يدركوا السبب ولأنهم أغبياء لا يستخدمون أنوفهم إلا لالتقاط النفس، ظانين أن بمقدورهم إدراك كل شيء بعيونهم فحسب، فيسيقولون إن السبب هو ما تمتلكه هذه الفتاة من جمال ورشاقة ولطف. ونتيجة ضيق أفقهم سيمتدحون تناسق ملامحها ورشاقة تكوينها وكمال صدرها. وسيقولون إن عينيها كالزبرجد، وأسنانها كاللؤلؤ وأطرافها كالعاج، وإلى ما هنالك من المشابهات السخيفة. وسيتوجونها ملكة للياسمين، وسيتدافع أهفت الرسامين لتصويرها، وصورتها ستذهل المبحلقين، وسيقول الناس إنها أجمل نساء فرنسا. أما الشبان فسيقضون لياليهم باكين فوق آلات المانادولين قابعين تحت نافذتها... وسيتزاحم المسنون المكرشون على ركبهم أمام والدها متوسلين خطبتها... والنساء من كافة الأعمار سيتنهد ن لدى رؤيتها وسيحلمن بأن يكن بمثل إغرائها، ولو ليوم واحد. لكنهم جميعاً لن يعرفوا أن السبب الحقيقي لخضوعهم لها، ليس مرآها ولا كمال جمالها الظاهري وإنما فقط عبقها الرائع الذي لا يجارى! هو وحده، غرنوي، من دون الناس جميعاً سيعرف. وهو يعرف ذلك منذ الآن.

آه! كم بوده أن يمتلك هذا العبق! ولكن ليس بتلك الطريقة الفظة التي لا جدوى منها كما جرى مع عبق فتاة "شارع دي ماريه" آنذاك. فعبق تلك سكر به لنفسه وحده، وبذلك أنهاه. أما عبق هذه الفتاة الموجودة خلف السور فإنه يريد امتلاكه حقاً، أن ينزعه عنها، كمن يسلخ الجلد، ليلبسه بنفسه. ولم يكن يعرف بعد، كيف يمكن لهذا أن يحدث، ولكن مازال أمامه سنتان كي يتعلم. ولن يكون الأمر على أية حال أصعب من استخلاص عبق زهرة نادرة.

نهض غرنوي، كالمتعبد، وانسحب من مكانه كمن يغادر قدساً أو [illegible]ئمة مطمئنة، انسحب متوارياً بهدوء كيلا يراه أو يسمعه أحد، وكيلا ينتبه أحد إلى الكنز الثمين الذي عثر عليه. وهكذا تابع هروبه على طول السور حتى الطرف الآخر من المدينة حيث ضاع عطر الفتاة أخيراً بصورة نهائية، وحيث استطاع الدخول ثانية عبر بوابة "دي فينيان". توقف في ظل البيوت، حيث منحه عطن بخار الأزقة إحساساً بالأمان ساعده على لجم الاندفاعة العاطفية التي سقط أسيرها.

وبعد ربع ساعة من الزمن كان قد تمالك نفسه كلياً. وكان أول ما فكر به هو ضرورة ألا يقترب أبداً من تلك الحديقة خلف السور. إذ لم

يكن لذلك أية ضرورة، خاصة وأن الاستشارة الناتجة عن ذلك لا حدود لها. والزهرة هناك، ستنضج دون أي تدخل من طرفه، وهو على أية حال عارف بكيفية نضجها. ولا يجوز أن يسحره ويأخذه عبقها قبل الأوان، بل عليه أن ينغمس في العمل. عليه أن يوسع معلوماته وخبراته، وأن يستكمل قدراته الحرفية، كي يكون جاهزاً في موعد الحصاد. مازال أمامه سنتان.

٣٦

على مسافة قريبة من بوابة "دي فينيان" اكتشف ورشة صغيرة لصناعة العطور وطلب العمل. وتبين له أن صاحب الورشة المعلم العطار أونوريه أرنولفي قد توفي الشتاء الماضي، وأن أرملته ذات الثلاثين ربيعاً والشعر الأسود تدير العمل وحدها بمعونة متدرب شاب.

بعد أن طالت مدام آرنولفي في عرضها للأيام العصيبة ولوضعها الاقتصادي المتأزم أوضحت له أنها لا تستطيع في الواقع إعالة متدرب آخر، إلا أنها في الوقت نفسه بحاجة ماسة له نظراً للعمل الكثير القادم؛ وأنها في الوقت ذاته لا يمكن أن تؤوي في بيتها متدرباً ثانياً، لكنها تمتلك في كرم زيتونها، خلف دير الفرنسيسكان، على مسافة عشر دقائق من هنا كوخاً صغيراً يمكن لشاب متواضع الطلبات أن يأوي إليه ليلاً؛ وأنها بالإضافة إلى ذلك وكمعلمة شريفة تعرف مسؤوليتها عن صحة مستخدميها وترعاها، لكنها من الناحية الأخرى لا تقدر على توفير وجبتين ساخنتين يومياً - بكلمة واحدة: مدام آرنولفي كانت ذات ثراء واضح وحس تجاري سليم - وهذا بطبيعة الأمر هو ما شمه غرنوي

من أول لحظة. وبما أن غرنوي لم يكن مهتماً شخصياً بالمال فقد صرح لها بقبوله بفرنكين كأجر أسبوعي وكذلك ببقية الشروط الشحيحة، وهكذا سرعان ما اتفقا. نادت المدام على متدربها الأول الذي كان رجلاً ضخماً يدعى دروو. وتوضح لغرنوي من اللحظة الأولى أن دروو يشاطر المدام سريرها، وأن هذه لا تتخذ قراراً حاسماً في بعض شؤونها إلا بمشاورته. وقف دروو أمام غرنوي مباعداً ما بين ساقيه، ناشراً حوله غمامة من رائحة المني، فبدا غرنوي بالقياس إلى هذا الفحل ضئيلاً بصورة مضحكة. تفحصه دروو بعينين ثابتتين محاولاً بهذه الطريقة اكتشاف نواياه الخفية أو عذولاً محتملاً. وأخيراً غمز بعينه باستخفاف، وبهزة من رأسه أعطى موافقته.

وبهذا كانت كافة الأمور قد سويت. بعد مصافحة الأيدي حصل غرنوي على عشاء بارد وغطاء للنوم ومفتاح الكوخ الذي كان عبارة عن خشة خشبية بلا نوافذ تفوح منها بلطف رائحة روث غنم قديم وحشيش مجفف، وهنا حسب الإمكان رتب غرنوي وضع إقامته. وفي نهار اليوم التالي بدأ عمله عند مدام آرنولفي.

كان هذا في موسم النرجس. مدام آرنولفي كانت تستنبت هذه الزهور في قطعة أرض تملكها في الحوض الكبير أسفل المدينة، أو كانت تشتريها من الفلاحين بعد أن تساومهم على كل قرش. كانت الزهور تورد عند الفجر إلى الورشة في سلال، لتفرغ هناك في آلاف الأكوام الضخمة الخفيفة العبقة. خلال ذلك كان دروو يذيب في قدر هائل شحم البقر والخنازير إلى سائل كريمي. وبينما كان على غرنوي أن يحركه باستمرار كان دروو يرمي فيه الزهور الطازجة رزمة فرزمة. كعيون

مفزوعة حتى الموت كانت تتكوم الزهور لبرهة على سطح السائل، ولتشحب من ثم حالما يدفعها ملْوَق غرنوي نحو الأسفل لتغرق في الدهن الساخن. وفي اللحظة نفسها تقريباً تكون قد تراخت وذوت، وكأن الموت قد فاجأها بسرعة، فلم يعد أمامها خيار آخر سوى أن تزفر تنهيدتها العطرة الأخيرة في المحيط الذي أغرقها. كانت سعادة غرنوي لا توصف عندما أدرك أن ازدياد عبق الدهن يتناسب طرداً مع كمية الزهور التي يغرقها فيه، وأن العبق الصادر عن القدر ليس عبق الزهور الميتة، بل عبق الدهن الذي امتلكه.

خلال ذلك أصبح السائل شديد السماكة وكان عليهما أن يصباه عبر مصافٍ كبيرة كي يحرراه من الجثث الممتصة، ليصبح جاهزاً لاستقبال المزيد من الزهور الطازجة، وليتابعا من ثم عملية النقع والتحريك والتصفية طيلة النهار دون استراحة وحتى المساء حين تكون أكوام الزهور كلها قد عبرت قدر الدهن؛ فالتجارة لا تحتمل البطء والتهاون. ولكي لا يذهب أي شيء هدراً، كانت بقايا القدر تغلى بالماء لتتحول من ثم إلى عصّارة مغزلية تعالجها حتى القطرة الأخيرة، والناتج على أية حال، زيت ذو عبق لطيف. أما جل العبق، أو روح بحر الزهور فقد بقي في القدر محفوظاً في الدهن ذي اللون الرمادي الضارب إلى البياض والذي بدأ يتجمد ببطء.

عملية النقع هذه كما كانت تسمى، كانت تتابع في اليوم التالي، فيسخَّن القدر ويذاب الدهن، كي يغذى بالزهور الجديدة؛ وهكذا لعدة أيام من الفجر حتى المساء. كان العمل مجهداً. ساعدا غرنوي أصبحا كالرصاص، وتحرشف جلد يديه، ومساءً عندما كان يعود إلى كوخه متمايلاً من التعب كان يحمل معه آلام ظهره. ودروو الأقوى منه بثلاث

مرات لم يأخذ مكانه ولا حتى مرة واحدة في تحريك سائل القدر، بل اكتفى برمي الزهور الخفيفة كالريش في القدر، وبالانتباه إلى نار الموقد، وبالذهاب أحياناً، بسبب الحر، لاحتساء كأس في الحانة المجاورة. لكن غرنوي لم يبد أي تذمر، بل تابع دون احتجاج تحريك الزهور في الدهن من الصباح حتى المساء، ودون أن يحس خلال ذلك بالجهد والعناء، فقد كان طيلة الوقت مأخوذاً بالعملية التي تجري تحت ناظريه وتحت أنفه: موات الزهور السريع وامتصاص الدهن لعبقها.

بعد فترة من الزمن كان دروو يقرر أن الدهن قد أشبع، وأنه لم يعد قادراً على امتصاص المزيد من العبق. عندئذ كانا يطفئان النار ويرشحان السائل الشديد السماكة للمرة الأخيرة، ثم يصبانه في أوعية حجرية حيث يتجمد للتو متحولاً إلى مرهم رائع العبق.

و كانت هذه هي ساعة مدام آرنولفي، كي تفحص المنتوج الثمين وتلصق ملاحظاتها على الأوعية، ولكي تدون النتائج في دفترها بمنتهى الدقة، حسب الكمية والنوع. وبعد أن تقوم بنفسها شخصياً بإغلاق الأوعية وختمها ثم بنقلها إلى أعماق قبوها البارد، كانت ترتدي ثوبها الأسود وتضع على رأسها وشاح الأرامل لتقوم بجولتها على التجار ومتاجر العطور في المدينة. فتصف وضعها كامرأة وحيدة بكلمات مؤثرة، فيعرضون عليها أسعارهم، فتُجري مقارنة بين مختلف العروض، لتتنهد من ثم، فتبيع أو تحجم. فالمراهم المعطرة والمخزنة في أمكنة باردة كانت تدوم طويلاً. وإن كانت الأسعار الآن غير مناسبة، فإنها، من يدري، قد ترتفع في الشتاء، أو في الربيع القادم. وفي الوقت نفسه كان عليها أن تفكر في احتمال التعاون مع منتجين صغار آخرين لإرسال شحنة من

المراهم إلى جنوا، بدلاً من بيع أكياس الفلفل الآن؛ أو في المشاركة في القافلة المتوجهة إلى معرض الخريف في "بوكير" - لاشك أنها أعمال تجارية خطرة، إلا أن مردودها في حال النجاح سيكون مربحاً جداً. هذه الاحتمالات المختلفة كانت تزنها مدام آرنولفي بحساب دقيق، وغالباً ما كانت تربط فيما بينها، فتبيع جزءاً من كنوزها، محتفظة بالجزء الثاني، لتتاجر بالجزء الثالث على حسابها الخاص. أما عندما يتوضح لها عبر جولتها أن سوق المراهم متخم بالبضاعة، ولن يتحول في القريب العاجل لصالحها، فقد كانت تهرع إلى بيتها، وغطاؤها يرفرف خلفها، لتأمر دروو بمعالجة المنتوج كله بحيث يتحول إلى روح النرجس النقي.

في مثل هذه الحال كانت تستعاد أوعية المراهم من القبو، كي توضع مختومة على نار هادئة بكل حذر، وليمزج السائل من ثم بأصفى أنواع الكحول، وهو يحرك باستمرار عبر جهاز خاص يشرف غرنوي على خدمته، حتى يغسل المزيج ويتماسك كلياً. وعند إعادته إلى القبو سرعان ما يبرد فينفصل الكحول عن دهن المرهم، ويصبح من الممكن سكبه في زجاجة، فيكون عندها قد أصبح عطراً، بشكل ما، لكنه شديد الكثافة، في حين فقد المرهم المتبقي جل عبقه. وهكذا يكون عبق الزهور قد مر ثانية عبر عملية أخرى. لكن هذا لا يعني أن العملية قد انتهت. فبعد فلترة السائل الجديد عبر أقمشة دقيقة المسام لا تسمح بمرور حتى أدق الكتل الدهنية، يصب دروو الكحول المعطر في أنابيق صغيرة ليقطره من ثم على نار هادئة. وبعدما يتطاير الكحول يتبقى في الإنبيق كمية ضئيلة من سائل شاحب اللون، يعرفه غرنوي، ولكن لا بهذه النوعية ولا بهذا الصفاء، ولا كما عرفه عنه بالديني أو ربما رونل: إنه زيت

الزهور الصافي، عبقها النقي، مكثفاً بمئات آلاف المرات إلى قطرة روح. ورائحة هذه الخلاصة لم تكن محببة، بل على العكس حادة قارصة، وبالتالي مؤلمة. لكن قطرة منها، محلولة في ليتر من الكحول، كانت كافية لبث الحياة فيها، ولاستعادة عبق حقل كامل مزروع بهذه النباتات.

كان مردود هذا العام ضئيلاً إلى حد مفزع. فما تبقى في زجاجة التقطير ما كاد يملأ ثلاث قوارير صغيرة، أي إن عبق مئات آلاف الزهور قد تكثف في لا أكثر من قوارير ثلاث صغيرة، لكنها تعادل ثروة بحالها هنا في غراس؛ فكم ستكون قيمتها في حال نقلها إلى باريس أو ليون، إلى غرنوبل أو مرسيليا أو جنوا!! عند رؤية مدام آرنولفي لهذه الزجاجات اكتسبت نظراتها طراوة جميلة، وغازلتها بعينيها؛ وعندما أخذتها وغطت فوهاتها بسدادات زجاجية مجلوخة بعناية وترف توقف صدرها عن التنفس خشية أن تتبخر نفحة من المضمون الثمين، وكيلا تضيع ولو ذرة منه، حتى بعد وضع السدادات، ختمت المدام القوارير الثلاث بالشمع المذاب، مضيفة إلى عنق كل قارورة مثانة سميكة، كي تطمئن إلى سلامة حرزها. ثم وضعت القوارير في صندوق مبطن بالقطن ونقلته إلى القبو وأغلقت الباب وراءها ثم أنزلت المزاليج وأحكمت الأقفال.

٣٧

في نيسان / أبريل نقعوا زهور الهرجة والبرتقال، وفي أيار / مايو جبلاً من الزهور، أغرق عبقه المدينة لشهر كامل في ضباب حلو لا مرئي. وغرنوي كان يشتغل كحصان، منفذاً باستعداد وتواضع العبد كل ما كان

دروو يأمره به من أعمال ثانوية. ولكن في حين كان يبدو كغبي يحرك ويمزج ويغسل، أو ينظف الورشة ويجلب الحطب للموقد، لم يفت ملاحظته أي شيء من عمل المتجر، وخاصة تحولات العبق. فبدقة أشد مما كان بوسع دروو أن يقدم خلال حياته كلها، في حدود استخدامه لأنفه، تابع غرنوي وسهر على عملية تحول الروائح، منذ لحظة معالجة أوراق الزهور، عبر الدهن، والكحول، وحتى القوارير الصغيرة الثمينة. وقبل أن ينتبه دروو بفترة طويلة كان غرنوي قد شم فيما إذا كانت درجة حرارة الدهن قد تجاوزت الحد المطلوب، ومتى انتهت قدرة الزهور على نفح العبق، ومتى وصل السائل إلى درجة الإشباع؛ كان يشم كل ما يجري داخل أجهزة المزج، ويحدد متى يجب إيقاف عملية التقطير. وكثيراً ما كان يلفت انتباه دروو إلى ذلك، لا بصيغة الأمر طبعاً، بل بأسلوبه الخنوع المعهود عنه. فيقول بصورة عابرة إنه يشعر وكأن حرارة الدهن الآن قد ازدادت، أو إنه من الممكن البدء بعملية الترشيح، أو إنه يحس على نحو ما بأن الكحول الموجود في الإنبيق قد تبخر... ودروو الذي لم يكن في منتهى الذكاء، ولا في منتهى الغباء انتبه مع مرور الوقت إلى أن أفضل قراراته كانت تلك التي يتخذها عندما يقول غرنوي على طريقته "إنه يشعر" أو "إنه يحس على نحو ما". وبما أن غرنوي لم يتطاول أو يظهر أنه الأكثر معرفة، ولا في أية مناسبة، وخاصة في حضور مدام آرنولفي، التي لم يبد تجاهها أي شك في مكانة دروو، وكونه الشخصي الأول في المتجر، فإن دروو لم يجد أية غضاضة في اتباع نصائح غرنوي، بل حتى، بمرور الوقت، بترك القرارات له.

وبمرور الوقت أيضاً كثرت الحالات التي أضحى غرنوي فيها مضطراً

إلى جانب عملية تحريك السائل، إلى قذف الزهور فيه وإلى الإشراف على النار وعلى عملية الترشيح، في حين يدلف دروو إلى الحانة المجاورة ليتجرع كأساً من النبيذ، أو ليصعد إلى مخدع المدام كي يؤدي واجبه، عالماً أن بوسعه الاعتماد على غرنوي. وغرنوي بدوره، رغم قيامه بعدة أعمال إضافية في الوقت نفسه، كان مستمتعاً ببقائه لوحده. وكان فرحه كفرح اللص بغنيمته عندما تأكد له أن المرهم الذي حضره وأن خلاصة العطر التي توصل إليها أنقى وأرفع بمراحل من كل ما أنتجه مع دروو.

في نهاية تموز / يوليو كان موسم الياسمين، وفي آب / أغسطس موسم ملكة الليل. عطر هاتين الزهرتين كان خالصاً وحساساً في الوقت نفسه بحيث كان يتوجب اقتطاف الزهرات قبيل الفجر ومعالجتها من ثم بطريقة شديدة الخصوصية. فالحرارة تخفف من عبقها، ونقعها المفاجئ في دهن التنقية قد ينهي كل خواصها. وهاتان الزهرتان الأنبل من بين الزهور لا تسمحان باستخلاص روحها بنفس بساطة التعامل مع الزهور الأخرى. ولهذا كان لابد من تجهيز مكان تعطير خاص حيث كانت تفرش الزهور على صوانٍ مطلية بالدهن البارد أو تغلف بأقمشة مغمسة بالزيت وتترك لتنفث أنفاسها ببطء. وبعد ثلاثة أو أربعة أيام تكون الزهور قد بثت خواص عبقها في الدهن أو الزيت المحيط بها. عندها يلتقطها المرء بمنتهى الحذر، ليستبدلها بزهور جديدة طازجة، وهكذا لعشرة أو عشرين مرة حتى يصل الدهن إلى حد الإشباع، ولحد إمكانية عصر الأقمشة كي يسيل منها الزيت العبق، حينذاك يكون أيلول / سبتمبر قد هل. والناتج عن هذه العملية من حيث الكم أقل بشكل ملحوظ عن منتوج عملية النقع. أما من حيث النوع فإن مرهم الياسمين أو "المسك الرومي المعتق"

قد فاق من حيث الأصالة ودرجة النقاء أي منتوج عطري آخر. وفي حالة عطر الياسمين تحديداً بدا وكأن حلاوة العبق ذي النكهة الحسية قد انعكست في سطوح الصواني الدهنية، كما في مرآة صقيلة. وقد ميّز أنف غرنوي، بطبيعة الحال، اختلاف رائحة الزهرة الطازجة عن عبقها المستخلص. فرائحة الدهن، مهما كان صفاؤه ودرجة نقائه كانت تشكل حجاباً يغطي ويموه الأصل. قد تؤدي رائحة الدهن هذه إلى تخفيف قوة العطر وتلطيف حدته الظاهرة، وقد تجعله أقرب إلى ذوق العامة... لكن عملية استخراج العطر بالطريقة الباردة، في أية حال كانت، هي الأكثر نجاعة وفعالية في استخلاص الروائح الرهيفة. وليس ثمة أفضل منها. ولكن إن كانت حتى هذه الطريقة غير مجدية في إقناع أنف غرنوي الكامل، فقد كان متأكداً تماماً من أنها تكفي لنسخ عالم كامل من آلاف الأنوف المثلمة.

بعد مرور فترة من الزمن تفوق غرنوي على معلمه دروو في عملية تحضير العطور بالطريقة الباردة، كما سبق أن فاقه في عملية النقع. وقد أفهمه ذلك بطريقته الخنوع غير المباشرة والمعتادة. وبمنتهى الرضا تخلى له دروو عن واجبات النزول إلى السوق ليشتري أنواع الدهن ولينقيها ويصفيها ويحدد طريقة مزجها - ولطالما استصعب دروو القيام بهذه المهمة وخاف منها؛ فأي شطحة في رائحة الدهن تشي بعكره أو عطنه أو حتى بأصله، سواء أكان مستخرجاً من البقر أو من الخنازير، ستفسد أثمن المراهم. لقد سمح له بتحديد المسافة بين الصواني في قاعة التعطير، وبتحديد زمن تغذية السائل بالزهور الطازجة وبالبت بدرجة إشباع السائل، كما ترك له من ثم، كما بالديني في زمنه، أمر اتخاذ

القرارات في كافة الأمور الحرفية المستندة إلى قواعد مكتسبة، والتي كان غرنوي يتخذها اعتماداً على أنفه فحسب - دون أن يكون لدروو أي علم بذلك.

كان دروو يقول عن غرنوي: "إن له يداً مباركة" و"إنه يتمتع بحس وحيد تجاه الأشياء". وكان يفكر أحياناً "بأنه ببساطة أكثر موهبة مني بما لا يقاس، إنه عطار يفوقني بمئة مرة". وفي الوقت نفسه كان يعتبره في منتهى الغباء لأنه لم يستثمر موهبته هذه، ولا بأية طريقة، في حين أن دروو بقدراته الأشد تواضعاً على وشك أن يصبح معلماً. وكان غرنوي يؤكد له رأيه هذا بإظهاره أن مثابرته على العمل محض غباء، وأنه لا يمتلك أي طموح، ولا يعرف شيئاً عن موهبته الأصيلة، بل هو إنما ينفذ تعليمات دروو الأكثر منه علماً والذي لولاه لكان غرنوي صفراً. وبهذه الطريقة تمكنا من العيش مع بعضهما.

ثم جاء الخريف وتلاه الشتاء، فأصبحت الحركة في الورشة أخف من السابق. روائح الزهور مخزنة في القبو أسيرة القدور والقوارير، وإن لم تطلب المدام غسل مرهم آخر، أو تقطير كيس من البهارات المجففة، فليس ثمة الكثير ليقوم به. ولما كان موسم الزيتون مستمراً فقد كان تصلهم أسبوعياً سلتان مليئتان، فيستخرجان منه الزيت النقي ويحولان البقية إلى معصرة الزيت. وكان هناك العنب الذي قطّر غرنوي جزءاً منه ثم كرره مستخرجاً منه الكحول.

ازداد غياب دروو عن الورشة، فقد كان يقوم بواجبه في سرير المدام، وإن ظهر تتقدمه رائحة العرق والمني، فلكي يغيب بعد برهة وجيزة في الحانة المجاورة. وفي الوقت نفسه قل هبوط المدام إلى الورشة، إذ كانت

منهمكة بشؤون ثروتها وبإعادة خياطة ثيابها استعداداً للأيام القادمة بعد عام الحداد. وغالباً ما كانت تنقضي عدة أيام لا يرى غرنوي خلالها سوى الخادمة التي كانت تقدم له الحساء ظهراً والخبز والزيتون مساء. أما هو فنادراً ما كان يخرج. أحياناً كان يشارك في الحياة النقابية، بحضوره الاجتماعات الدورية للحرفيين أو في مواكبهم الاحتفالية، ولكن بالقدر الذي يضمن له حضوره أو غيابه لن يلفت إليه الأنظار. لم يكن لديه أصدقاء ولا معارف مقربون، لكنه كان يبذل جهده كيلا يعتبره الآخرون متعجرفاً أو غريب الأطوار، ولهذا كان يتصرف بشكل ولّد لدى الحرفيين الآخرين الانطباع بأن صحبته مملة لا نفع منها. كان معلماً في فن الإملال وفي إظهار نفسه كغبي مسكين، ولكن دون أن يبالغ إلى الحد الذي قد يصبح معه موضع هزء وتندر من قبل الحرفيين. ولقد نجح تماماً في جعل نفسه غير ملفت للانتباه، فتركوه لحاله، وهذا هو ما كان يبتغيه.

٣٨

كان يقضي وقته في المشغل، زاعماً أمام دروو أنه يريد اكتشاف وصفة لماء الكولونيا. أما في واقع الأمر فقد كان يجري التجارب على روائح من نوع آخر تماماً. فعطره الذي مزجه في مونبلييه انتهى رغم اقتصاده في استخدامه وحرصه الشديد عليه. فابتكر عطراً جديداً. لكنه في هذه المرة لم يكتف بتقليد رائحة البشر الأساسية كيفما اتفق ومن مواد ممزوجة مع بعضها بسرعة، بل طمح إلى تحقيق رائحة شخصية، أو عدة روائح شخصية.

في البداية صنع روائح لا تلفت النظر، كرداء رمادي للاستخدام اليومي، جزء منها هي تلك التي تحمل نكهة الجبن الحامض المميزة للبشر؛ لكنها لا تفوح هذه المرة إلى العالم الخارجي إلا كما عبر طبقة سميكة من الأردية القطنية والصوفية كالتي يلبسها العجائز فوق جلودهم العجفاء. فبمثل هذه الرائحة يمكنه التحرك بين الناس بيسر. فهي من القوة بحيث يمكنها إثبات وجود شخص ما شمّياً، وهي من الضعف بحيث لا تزعج أحداً. وغرنوي باستخدامه لها لم يعد في واقع الأمر - روائحياً - موجوداً، ومع ذلك فإن وجوده مبرر بأبسط الأشكال تواضعاً وباستمرار. إنها حالة ما بين البينين التي تلائمه سواء في بيت آرنولفي أو خلال جولاته القليلة في المدينة.

ولكن تبين فيما بعد أن هذه الرائحة المتواضعة معيقة في حالات معينة. فعندما كان يأمره دروو بالذهاب لشراء بعض الأغراض، أو عندما كان يدخل أحد المتاجر ليشتري لنفسه كمية من الزباد أو بعض حبات المسك كان يحدث نتيجة تمويهه المتقن أن لا يروه أبداً وبالتالي ألا يخدموه، أو أن يروه ويخدموه بصورة مغلوطة، أو أن يعودوا لنسيانه خلال خدمتهم له. ولمناسبات من هذا القبيل مزج لنفسه عطراً أشد عبقاً تفوح منه رائحة العرق بعض الشيء مستعجل لقضاء أمور ضرورية. كما نجح إلى حد بعيد في لفت الأنظار إليه نوعاً ما عندما قلّد رائحة مني دروو، وذلك بأن غمس قطعة قماش قطنية مدهنة في خليط من بيض الإوز الطازج ودقيق القمح المخمر.

والعطر الآخر الذي في جعبته كان عطر الاستعطاف الذي ثبتت فعاليته عند متوسطات السن والعجائز من النساء. كانت تفوح منه

رائحة حليب قليل الدسم وخشب طري نظيف. وعندما كان غرنوي يستخدمه - حتى وهو غير حليق، متجهم الوجه ومرتدياً معطفه - كان يبدو كصبي شاحب مسكين في سترة ضيقة مهترئة، وبحاجة لمن يمد له يد العون. وعندما كانت تبلغ رائحته أنوف بائعات السوق كن يقدمن له اللوز والإجاص المجفف، إذ كان يبدو لهن جائعاً وعاجزاً. وعند زوجة اللحام، المرأة الشديدة الصرامة في تعاملها مع الناس، سُمح له بأن ينبش بقايا اللحم والعظام النتنة كي يأخذ منها ما يريده، مجاناً، فعطر براءته قد حرك إحساسها الأمومي. ومن البقايا هذه كان يستخرج، بمعالجتها بالكحول، عناصر الرائحة التي كان يستخدمها عندما كان يبغي تجنب الآخرين. كانت هذه الرائحة توفر من حوله شعوراً بقرف خفيف، برائحة تشابه تلك الفائحة من فم مهمل، حال الاستيقاظ. وقد كان لهذه الرائحة درجة من الفعالية بحيث أن حتى دروو قليل التأفف قد اضطر لمغادرة المكان دون أن يدري طبعاً أي سبب لذلك، ولا حتى سبب تقززه، وكان يكفي أن يصب غرنوي بضع قطرات من هذا العطر المنفر على عتبة كوخه كي يضمن عدم اقتراب أي متطفل محتمل منه.

تحت غطاء هذه الروائح المتنوعة التي كانت تناسب كافة الضرورات، كالثياب، والتي كان يبدلها بغرض إخفاء جوهره عن العالم المحيط، كرس غرنوي وقته الفعلي وطموحه بهدف الوصول إلى ذلك الهدف الكبير: تصيده السري للروائح. ونظراً لوجود ثمرة هامة بمطال أنفه يحتاج قطافها إلى أكثر من عام من الانتظار فقد توجه لا باندفاع كبير فحسب وإنما بتخطيط منظم نحو شحذ أسلحته وتطوير تقنياته واستكمال أدواته وطرائقه. فبدأ من تلك النقطة التي انتهى بها عند

بالديني: باستخراج روائح ما لا حياة فيه، كالحجارة والمعادن والزجاج والملح والماء والهواء...

إن ما فشل ذات يوم بصورة مخزنة بطريقة التقطير الفجة، نجح الآن بفضل طاقة الدهون القوية على الامتصاص. أعجب غرنوي بقبضة باب نحاسية تنضح منها رائحة عفن بارد، فغطاها لبضعة أيام بدهن بقري. ويا للعجب! إذ عندما أنزل عنها الدهن كانت تفوح منه فعلاً وبصورة واضحة رائحة القبضة. حتى وإن كانت الرائحة ضعيفة جداً. وحتى بعد غسل الدهن بالكحول بقيت الرائحة، ناعمة وبعيدة بلا حدود ومظللة ببخار الكحول، وليس بوسع أحد في العالم أن يشمها سوى غرنوي بأنفه المرهف، ورغم ذلك فهي موجودة. هذا يعني من حيث المبدأ أنها في متناول اليد. ولو توفر له عشرة آلاف قبضة، وطلاها بالدهن لألف يوم لتمكن من استخلاص قطرة ضئيلة كخلاصة نقية من عبق القبضة المعدنية. وستكون هذه القطرة بحيث توهم - دون أدنى شك - أنف أي كان بالأصل.

وبالأسلوب نفسه نجح في استخلاص عبق غبار حجر حواري وجده في حقل الزيتون أمام كوخه إذ استخرج منه بعد نقعه كتلة صغيرة من مرهم الحجر أسعدته إلى حد لا يوصف رائحته اللامتناهية في خفتها. ثم بدأ بجمع هذه الرائحة إلى روائح مختلف الأشياء المتواجدة في محيط كوخه إلى أن أنتج مركباً روائحياً كنموذج منمنم لكرم الزيتون حفظه في قارورة صغيرة كان يحملها معه حيثما ذهب، بحيث يستطيع إحياء عبق الكرم متى شاء.

كان ما أبدعه روائع فنية عبنية، ألعاباً عبثية فائقة الجمال، ولكن بطبيعة الحال لن يقدر قيمتها أو يهتم بها أحد سواه، أما هو فقد كان

شديد الإعجاب بهذا الإتقان العبثي. ولحظات الفرح البريء التي كان يشعر بها الآن، في اندفاعه اللاهي لخلق لوحات فنية فواحة لمناظر الطبيعة الحية والصامتة ولمختلف الأشياء لم يعرف مثيلاً لها فيما مضى من حياته ولن يمر بمثلها فيما تبقى منها. إذ سرعان ما انتقل عبثه إلى الأحياء.

بدأ باصطياد الذباب الشتوي واليرقات والجرذان والقطط الصغيرة ليغرقها في الدهن الساخن. وفي الليل كان يتسلل إلى الإسطبلات كي يجلل البقر والماعز والخنازير الصغيرة لبضع ساعات بأقمشة مطلية بالدهن أو مغمسة بالزيت. أو كان يتسلل إلى حظيرة الغنم ليقص قطعة من فروة خروف وليغسل صوفها العبق من ثم بالكحول. في البداية لم تكن النتائج مرضية تماماً. فعلى خلاف الجمادات كالقبضة والحجر لم تسمح له الحيوانات بالحصول على شيء من روائحها إلا بشق الأنفس. فالخنازير كانت تحك أجسامها بأعمدة الحظائر لتنزع منها الأقمشة. والخراف عند اقترابه منها بالسكين ليلاً كانت تثغو بأصوات مرتفعة. أما البقرات فقد كانت تتحرك بعنف حتى تسقط الأقمشة عن ضروعها. وبعض الجعلان التي اصطادها كانت تنفث لدى معالجته لها عصارات ذات روائح مقرفة، والجرذان كانت تتغوط من الخوف في مراهمه ذات الحساسية الشمية العالية. أما تلك الحيوانات التي كان ينقعها في السائل الدهني فإنها لم تكن لتتخلى عن عبقها بصمت أو بتنهيدة خرساء كالزهور، بل كانت تقاوم بيأس ضد الموت، فلم تسمح له بأن يغرقها بسهولة، بل كانت تناضل بكل أطرافها، ناضحة في وجه الموت كميات كبيرة نسبياً من العرق كانت تزيد من نسبة الحموضة في السائل

الدهني فتفسده. ولم يكن هذا طبعاً مناسباً للعمل بصورة معقولة. إذاً كان لابد من قتل هذه الأجسام الحية، وبصورة فجائية، بحيث لا يتبقى لديها وقت كي تخاف وتقاوم. كان لابد له من قتلها.

أولى محاولاته كانت مع كلب صغير. هناك بالقرب من المسلخ استدرجه إليه، أمام أمه، بقطعة لحم حتى وصل إلى الورشة. في حين كان الحيوان المستثار ينقض بفرح على قطعة اللحم التي أمسكها غرنوي بيسراه، نزلت هراوة الحطب بيمنى غرنوي بسرعة وفجاجة على مؤخرة رأسه. فاجأ الموت الكلب بسرعة مذهلة بحيث بقي تعبير الفرح على فكيه وفي عينيه حتى بعد ما وضعه غرنوي في غرفة التعطير على المنصب بين صواني الدهن، حيث سينضح الآن رائحة الكلاب النقية دون أن يعكرها عرق الرعب. ومع ذلك كان على غرنوي أن يكون يقظاً! فالجثث، كما الزهور المقطوفة تذوي وتفسد بسرعة. فكان عليه أن يحرس ضحيته طيلة اثنتي عشرة ساعة حتى ظهور العلامات الأولى لتحلل جسم الكلب، التي لم تكن في واقع الأمر منفِّرة، وإنما محرفة للرائحة المبتغاة من الجثة. عندها كان يقطع غرنوي العملية، فيتخلص من الجثة ثم يصب الدهن ذا الرائحة الشحيحة في قدر يمكنه من غسله بعناية فائقة. ثم يقطر الكحول حتى لا يتبقى فيه سوى ما يعادل غطاء إصبع يصبه في أنبوب زجاجي. كانت تفوح من العطر بوضوح رائحة وبر الكلب الحادة نوعاً ما والتي تحمل معها رطوبة الدهن الطازج. وعندما جعل غرنوي الكلبة العجوز الأم في المسلخ تتشمم منه أخذت تنبح بفرح وتهز بذنبها لاصقة خياشيمها بالأنبوب لا تريد أن تبتعد عنه. لكن غرنوي أغلقه بإحكام ودسه في عبه، واستمر يحمله معه كذكرى ليوم النصر ذاك الذي نجح فيه لأول مرة في سرقة روح العبق من كائن حي.

ثم وبتمهل وبحذر شديد اتجه غرنوي نحو البشر. بدأ صيده على مسافة مأمونة، وبشبكة واسعة الفتحات. فاهتمامه لم يكن مركزاً على حجم الطريدة بقدر ما كان منصباً على تجريب مبدأ أسلوبه في الصيد.

موّه نفسه برائحة عدم لفت النظر الخفية واندس مساء في الحانة المجاورة بين الضيوف ليدس تحت الكراسي وفي الزوايا الخفية قطع قماش صغيرة مغمسة بالزيت أو بالدهن. وبعد مضي أيام قليلة كان يعود ليجمعها ويتفحصها. إلى جانب مختلف روائح المطبخ والتبغ والنبيذ كان يفوح منها فعلاً شيء من عبق البشر. لكنه كان غائماً وضبابياً، يشي برائحة عامة أكثر مما يحمل من سمات شخصية. في الكاتدرائية كان نصيب غرنوي أكبر في الحصول على رائحة عامة مشابهة، ولكن بصورة أنقى وأشد وضوحاً. ففي الرابع والعشرين من كانون الأول / ديسمبر وزع قطع قماشه الاختبارية تحت المقاعد. ولم يعد لجمعها إلا في السادس والعشرين أي بعد مرور لا أقل من خمسة قداسات من جلوس مؤخرات المصلين على المقاعد: كانت النتيجة خليطاً مرعشاً، غير متلائم من عرق المؤخرات ودم الحيض وطيات الركب الرطبة والأيدي المتشنجة ممتزجاً بزفير آلاف الخناجر المشاركة في الترتيل وبدخان البخور والمر المقبض. كان الخليط مرعشاً لكون الكتلة الروائحية ضبابية غير محددة المعالم ومقرفة لحد التقيؤ، لكنها بشرية دون أدنى شك.

في مشفى الرحمة ظفر غرنوي بأول رائحة فردية. إذ تمكن من الحصول على شراشف سرير كانت معدة للحرق لكون المريض - صانع أكياس - الذي استخدمها طيلة شهرين كان مصاباً بالسل. كان الشرشف مشبعاً بخواص جسم صانع الأكياس كدهن الامتصاص الذي

يستخدمه غرنوي، وبالتالي فهو جاهز فوراً لعملية الغسل. كانت النتيجة شبحية: فتحت أنف غرنوي، شميّاً، انبعث صانع الأكياس حياً من المحلول الكحولي. رغم عفن روائحه الناتجة عن مرضه، ورغم خصوصية وغرابة طريقة الإحياء تهادى الرجل الصغير ذو الثلاثين عاماً أمامه واضح المعالم، أشقر، أفطس الأنف، قصير الأضلاع، بقدمين مسطحتين لهما رائحة الجبن، بقضيب متورم، بطبع صفراوي وبرائحة فم خفيفة. لم تكن قيمة هذا الرجل من حيث رائحته تستحق أن يحتفظ غرنوي بها كما كان الحال مع ذلك الكلب الصغير، ومع ذلك سمح لها طيلة ليلة بكاملها أن تملأ كوخه، وهو يعاود تشممها، سعيداً وراضياً حتى الصميم بإحساس الهيمنة على هالة رائحة شخص آخر. وفي اليوم التالي تخلص منها.

خلال أيام هذا الشتاء قام غرنوي بتجربة أخرى. فقد أقنع شحاذة عجوز تجوب أنحاء المدينة، ولقاء فرنك واحد، بأن تستلقي عارية ليوم كامل مضمدة في أقمشة مغمسة بمختلف أنواع الزيوت والدهون. وتبين له نتيجة لهذه التجارب أن تركيب الدهن الأمثل لالتقاط العبق البشري هو أن يكون مؤلفاً من دهن كلاوي الخراف ودهن البقر والخنازير الشديد النقاء. بنسبة اثنين إلى خمسة إلى ثلاثة مع إضافة كمية محدودة من زيت العصرة الأولى.

عند هذه النقطة أوقف غرنوي تجاربه وتخلى عن معالجة أي كائن حي بغية امتلاكه عطرياً. فقد كانت هذه العملية محاطة دائماً بالكثير من المخاطر، دون أن تزوده بمعارف جديدة، خاصة وأنه قد تأكد من إتقانه لأسلوب وأدوات عمله بغرض اغتصاب عبق إنسان ما، ولذا لم تعد ثمة حاجة كي يبرهن لنفسه على ذلك ثانية.

وعبق البشر في حد ذاته كان بالنسبة إليه سيان. فقد كان بوسعه تقليده ببدائل مختلفة وبنجاح. أما ما كان يشتهيه فهو عبق بشر بعينهم: أولئك القلة النادرين الذين يلهمون الحب. هؤلاء كانوا ضحاياه.

٣٩

في كانون الثاني / يناير عقدت الأرملة آرنولفي قرانها على مساعدها الأول دومينيك دروو، الذي ترفع بذلك إلى رتبة معلم عطار. وبهذه المناسبة أقيمت مأدبة باذخة للمعلمين، وأخرى متواضعة للمتدربين. ثم اشترت المدام لسريرها فرشة جديدة، لتشارك فيها دروو الآن بصفة شرعية، كما أخرجت من خزانتها أثوابها الملونة. وما عدا هذا فقد بقي كل شيء على ما كان عليه؛ إذ احتفظت المدام بلقبها السابق آرنولفي وبثروتها كاملة وبالإدارة المالية للمتجر وبمفاتيح القبو؛ في حين كان دروو يلبي واجبه الجنسي يومياً، لينعش نفسه بعد ذلك بالنبيذ. أما غرنوي، المساعد الأول والوحيد الآن فقد استمر رغم ذلك بإنجاز كل العمل المتراكم، لقاء الأجر نفسه والطعام الشحيح نفسه وظروف السكن الرديئة نفسها.

بدأ العام الجديد بطوفان من السنا الأصفر، والياقوتية، والبنفسج، والنرجس ذي الأريج المخدر. وذات أحد من آذار / مارس - بعد مضي عام تقريباً على قدوم غرنوي إلى غراس - بدأ غرنوي بتتبع أخبار ما يجري في الحديقة، وراء السور، في الطرف الآخر من المدينة. كان هذه المرة مستعداً لاستقبال العبق، عارفاً ما ينتظره... ومع ذلك، فإنه عندما شمه، حال اقترابه من البوابة الجديدة، في منتصف الطريق إلى تلك

البقعة على السور، خفق قلبه بشدة وشعر بالدم في شرايينه يفور من فرط السعادة: إنها مازالت هناك، تلك النبتة التي لا مثيل لها، صمدت في وجه الشتاء دون أن تتأذى، يملؤها النسغ، وهي تنمو وتفرع أغصاناً رائعة! وعبقها، كما توقع، أصبح أشد، دون أن يفقد شيئاً من بهائه. فما كان قبل عام واحد يفوح كقطرات متناثرة رقيقة، توحَّد الآن في تيار عبق محسوس يتلألأ بآلاف الألوان، محافظاً على كل لون منها بانسياب لا ينقطع. وكم كانت سعادته عظيمة عندما تأكد من أن هذا التيار يغتذي من نبع لا ينضب أبداً. سنة واحدة فقط، سنة واحدة لا غير، اثنى عشر شهراً فحسب، وبعدها سيفيض النبع وسيكون بوسعه هو أن يأتي كي يلجم الطوفان ويأسر دفق عبقها الهائج.

مشى على طول السور حتى تلك البقعة المحددة التي تقع الحديقة وراءها. كان واضحاً أن الفتاة ليست في الحديقة، وإنما داخل المنزل، في غرفة ما خلف نوافذ مغلقة، ومع ذلك كان عبقها يهب كنسمة ناعمة مستمرة. سكنت حركة غرنوي. لم يكن مسحوراً أو مأخوذاً كما في المرة الأولى، بل كان ممتلئاً بسعادة العاشق الذي يسترق السمع إلى معبودته أو يراقبها عن بعد، وهو واثق من أنه بعد عام واحد سيأخذها إليه. ويا للعجب، فغرنوي، القرادة المتوحدة، الوحش الذي لم يعرف الحب في حياته، ولم يستطع مطلقاً أن يجعل أحداً يحبه، وقف في ذاك اليوم من آذار / مارس عند سور مدينة غراس وأحب، وكان سعيداً بحبه بلا حدود.

لكنه طبعاً لم يحب إنساناً، لم يحب تلك الفتاة الموجودة في المنزل هناك وراء السور. لقد أحب العبق وحده ولا شيء سواه. وهذا العبق

تحديداً لأنه سيصبح عبقه، فبعد عام واحد سيأخذه إليه، وقد أقسم على ذلك بحياته. بعد هذا القسم الفريد أو التعهد والوعد بالولاء لذاته ولعبقه المستقبلي غادر غرنوي المكان خفيف القلب وعاد إلى المدينة عبر بوابة "دو كور".

عندما استلقى في كوخه بعد أن هبط الليل، استعاد ذاك العبق من الذاكرة – إذ لم يكن قادراً على مقاومة الغواية – فغاص فيه، وأخذا يتبادلان الغزل بحميمية حلمية وكأنه قد امتلك هذا العبق، عبقه، عبقه الخاص، فعلاً: فأحبه على نفسه وأحب نفسه عبره طيلة مدة زاخرة بالنشوة اللذيذة، وأراد لهذا الشعور النرجسي أن يرافقه إلى نومه. لكنه لم يكد يغمض عينيه، ولم يكد ينهي الزفرة الأخيرة قبل الانتقال إلى ملكوت النوم، حتى غادره العبق، فجأة دون مقدمات، وبدلاً منه انتشرت في المكان رائحة حظيرة الماعز الباردة الحادة.

انتفض غرنوي في مكانه، وفكر: "ماذا لو أن هذا العبق الذي سأمتلكه... ماذا لو انتهى؟ الحال الآن ليس كما في الذاكرة، حيث الروائح كلها أبدية. العبق الحقيقي يستهلكه العالم. إنه زائل. وعندما ينتهي لن يكون ثمة وجود للنبع الذي غرفته منه. وسأكون عارياً كالسابق، وسأضطر لاستخدام البدائل المساعدة. لا، الأمر سيكون أسوأ من السابق! فحتى ذلك الحين سأكون قد عرفت وامتلكت عبقي الخاص الرائع، ولن أتمكن بعدها من نسيانه، فأنا لا أنسى أية رائحة أبداً. وهذا سأضطر لاجتراره طيلة عمري من ذاكرتي، كما اجتررته للحظة الآن، هذا العبق الذي سأمتلكه... إذن لأي شيء سأحتاجه؟".

هذه الفكرة أزعجت غرنوي حتى الصميم، فقد هلع من أن العبق

الذي لم يمتلكه بعد، سيضيع منه حتماً بعد امتلاكه له. كم سيبقى؟ بضعة أيام؟ بضعة أسابيع؟ وإن اقتصد في استخدامه فهل يدوم شهراً؟ وبعد ذلك؟ ورأى نفسه وهو يستهلك القطرات الأخيرة منه، ثم وهو يغسل القارورة بالكحول، كي لا تضيع أية ذرة منه، ثم رأى وشم كيف أخذ عبقه المحبوب بالتلاشي دون عودة. سيكون الأمر كالموت البطيء، كنوع من الاختناق المعكوس، كتبخر الذات في العالم الممقوت ببطء مؤلم.

اقشعر بدنه. وداهمته فكرة أن يتخلى عن خططه وأن يخرج الآن في الليل ويغادر المكان. أن يعبر الجبال المغطاة بالثلوج، وأن يقطع دون توقف مئات الأميال إلى "الأوفرج"، إلى حيث سيزحف إلى كهفه القديم، لينام هناك حتى الموت. لكنه لم يفعلها. بقي جالساً، دون أن يستسلم للفكرة رغم قوتها. لم يستسلم لأن رغبته بالهروب والاختباء في كهف ما كانت رغبة قديمة يعرفها حق المعرفة. لكن ما لا يعرفه هو امتلاك عبق بشري رائع كعبق هذه الفتاة وراء السور. حتى وإن عرف أن امتلاك هذا العبق مع فقدانه الحتمي سيكون ثمنه غالياً ومروعاً، فإن الامتلاك والفقدان – كما بدا له – كان أمراً مثيراً للرغبة، أكثر من رفضهما معاً بهذه الصورة المقتضبة. لقد رفض الكثير خلال حياته، لكن لم يسبق له أن امتلك وفقد.

زالت الشكوك بعد حين، ومعها القشعريرة أيضاً. وأحس بالدم الحار يدب الحياة في جسده، وبإرادة أن ينفذ ما سبق أن قرره قد عادت لتمتلك وعيه، وبصورة أشد من ذي قبل، فهي لم تعد نابعة من رغبة مجردة فحسب، بل نتيجة لقرار موزون. عندما وجه غرنوي القرادة بخيار

أن يجف في ذاته أو أن يسقط على الأرض، اختار الوضع الثاني، عارفاً تماماً أن هذه السقطة ستكون الأخيرة. عاد فاستلقى على مضجعه فرحاً بالقش من تحته وبالغطاء من فوقه، متخيلاً نفسه بطلاً عظيماً.

ولكن ما كان لغرنوي أن يكون هذه نفسه لو اكتفى بهذا الشعور البطولي القدري لفترة طويلة. فإرادته في تأكيد الذات كانت صلبة لا تلين، بالإضافة إلى أنه كان يمتلك طبيعة ماكرة وعقلاً في منتهى البراعة. حسناً - لقد قرر أن يمتلك عبق تلك الفتاة القاطنة وراء السور. وإن نفد منه بعد أسابيع قليلة، فمات نتيجة الخسارة، فلا بأس في ذلك. لكن الأفضل هو ألا يموت، وأن يمتلك العبق رغم ذلك، أو على الأقل أن يؤجل نفاده أطول فترة ممكنة، وبأي شكل كان. لابد من جعل هذا العبق أكثر قابلية للحفظ ولابد من السيطرة على صفة الزوال فيه دون سلبه شخصيته - إنها مشكلة عطرية.

ثمة أنواع من العبق تبقى فواحة عشرات السنين. فخزانة مشربة بالمسك مثلاً، أو قطعة جلد مغمسة بزيت القرفة، أو كتلة عنبر، أو صندوق صغير من خشب الأرز، هذه الأشياء تحتفظ بروائحها مدى الحياة. وهناك أخرى - كزيت الليمون الحلو وزهر النارنج والنرجس وروح المسك الرومي وروائح زهور أخرى كثيرة تفقد خاصية عبقها بعد ساعات قليلة إن تركها الإنسان عرضة للهواء لوحدها دون أن يربطها. وطريقة صانع العطور لمواجهة هذا الوضع الكارثي هي بربط الروائح السريعة الزوال إلى روائح أكثر رسوخاً بحيث يقيد الطرفين معاً ويحد بذلك من توقهما إلى الحرية. والفن في هذه العملية هو أن ترخى القيود قليلاً بحيث تبدو الرائحة المربوطة وكأنها محتفظة بحريتها، وأن يوثق قيد

الرائحتين معاً كيلا تتمكن الأولى من الهروب. وذات مرة نجح غرنوي نجاحاً متقناً في إنجاز مثل هذه العملية الفنية بزيت المسك الرومي، إذ قيد عبقه السريع الزوال بكميات ضئيلة من الزباد والفانيليا وراتينج اللابدانوم والسرو، فتمكن بذلك من إظهار خاصيته الحقيقية. ألا يمكن أن يحدث ما يشبه ذلك مع عبق الفتاة؟ وما الداعي لأن يستخدم هذا العبق الأثمن والأرق من بين الروائح كلها بصيغته النقية فيذهب هدراً؟ يا للغباء! سيكون عملاً أخرق للغاية! هل يترك الإنسان الألماس دون صقل؟ هل يلبس الإنسان الذهب ككتلة حول عنقه؟ وهل كان غرنوي لص مواد عبقية بدائياً مثل دروو ومثل سائر الخلاطين والمقطرين وعاصري الزهور؟ أم أنه بالأحرى أعظم عطار في العالم؟

ضرب على جبينه منزعجاً لأنه لم يخطر بباله قبل الآن أنه لا يجوز لهذا العبق الفريد أن يستخدم في شكله الخام. عليه أن يعالجه كأثمن حجر كريم. عليه أن يصنع تاجاً من العبق، وفي أجلّ مكان فيه سيتلألأ عبقه، مضموماً إلى أنواع العبق الأخرى ومهيمناً عليها في الوقت نفسه. سيصنع عطراً وفق قواعد الفن كلها، وعبق الفتاة وراء السور سيكون واسطة العقد.

كمواد إضافية لجعل العطر أشد تأثيراً ولاستكمال كافة جوانبه، وكرائحة بارزة ومادة مثبتة لن يكون المسك والزباد، ولا زيت الورد أو النارنج هي المواد المناسبة، هذا مؤكد. فلعطر كهذا، لعطر بشري، لابد من توفير مواد من نوع آخر.

٤٠

في أيار / مـايو من العـام نفسه، في حقل ورود يقع في منتصف الطريق بين غراس ومنطقة "أوبو" الصغيرة الواقعة إلى الشرق وجدت جثة عارية لفتاة في الخامسة عشرة من عمرها. كانت مقتولة بضربة هراوة على مؤخرة رأسها. والفلاح الذي اكتشفها أرعبه ما وجد واضطرب لدرجة كاد معها أن يثير الشبهات حول نفسه، فبصوت مرتجف أخبر ضابط الشرطة أنه لم ير في حياته أجمل مما رأى، في حين كان يريد في واقع الأمر أن يقول إنه لم ير في حياته شيئاً أكثر هولاً مما رأى.

والفتاة كانت فعلاً ذات جمال رفيع، تنتمي إلى ذلك النوع الناعس من النساء الذي يشابه العسل الأسود، طرياً وحلواً ودبقاً للغاية. وبمقدور امرأة من هذا النوع بحركة لزجة، بتلويحة شعر، وبنظرة واحدة من عينيها كضربة سوط بطيئة أن تسيطر على المكان كله، وأن تبقى في الوقت نفسه هادئة في مركز الإعصار، وكأنها لا تدرك قوة جاذبيتها التي تشد إليها أشواق ونفوس الرجال والنساء على حد سواء ودون مقاومة. كانت الفتاة يافعة في مطلع صباها، ولم تكن فتنة النوع قد أينعت فيها بعد. فأطرافها الثقيلة مازالت المسطح المحاط بشعر كثيف أسود كان يتميز بملامح بالغة الرقة وبمواضع بالغة السحرية. أما الشعر نفسه فلم يكن موجوداً. لقد قصه القاتل وأخذه معه، كما أخذ ثيابها.

توجهت الشكوك إلى الغجر. فالغجر لا يتورعون عن شيء. والمعروف عنهم أنهم يصنعون البسط من الثياب العتيقة ويحشون الوسائد بشعر بشري ويصنعون دمى صغيرة من جلود وأسنان المشنوقين. ولا يمكن أن يكون مقترف مثل هذه الجريمة المبتذلة سوى الغجر. لكن

الغجر في ذلك الوقت لم يكونوا موجودين هناك، ولا في أي بقعة حول المنطقة، وآخر مرة عبروا فيها هذه المنطقة كانت في كانون الأول / ديسمبر.

ومع غياب الغجر توجه الشك إلى العمال الإيطاليين الجوالين. لكن الإيطاليين أيضاً لم يكونوا موجودين. أو أن مجيئهم لم يحن بعد، وهم لن يأتوا قبل موسم حصاد الياسمين في حزيران / يونيو، وبناء على ذلك لا يمكن أن يكون القاتل منهم. وأخيراً توجه الشك إلى صانعي الباروكات، وبدأ التفتيش عندهم عن شعر الفتاة المقتولة. ولكن دون جدوى. ثم جاء دور اليهود، ومن بعدهم، رهبان الدير البنديكتي الشهوانيين - رغم كونهم جميعهم قد تجاوزوا السبعين -، ثم القساوسة، ثم الماسونيين، ثم مجانين مشفى الرحمة، ثم عمال الفحم، ثم الشحاذين، وفي نهاية المطاف جاء دور النبلاء المتهتكين، وخاصة المركيز دي كابريس الذي سبق أن تزوج ثلاث مرات، والذي، حسبما يشاع عنه، كان يقيم في قبيته قداسات عربيدية، يشرب خلالها دماء العذارى كي يقوي قدرته الجنسية، وبطبيعة الحال لم يثبت أي شيء بالدليل القاطع. إذ ليس ثمة من رأى الجريمة، وشعر وثياب القتيلة اختفت دون أثر. بعد أسابيع أوقف ضابط الشرطة تحرياته.

في منتصف حزيران / يونيو جاء الإيطاليون، والكثير منهم مع عائلاتهم للعمل في قطاف الياسمين. ورغم أن الفلاحين قد استخدموهم، لكنهم بسبب الجريمة الراسخة في الذاكرة، منعوا زوجاتهم وبناتهم من الاختلاط بهم، فالحذر مطلوب. رغم أن العمال الجوالين ليسوا مسؤولين في واقع الأمر عن الجريمة، إلا أنهم من حيث المبدأ يمكن أن يكونوا مسؤولين عنها، ولهذا يفضل أن يحترس المرء منهم.

بعد البدء بحصاد الياسمين بفترة قصيرة حدثت جريمتان أخريان. وفي هذه المرة أيضاً كانت الضحيتان في غاية الجمال، ومن ذلك النوع الناعس من النساء ذي الشعر الأسود. وثانية كانت الفتاتان عاريتين، مقصوصتي الشعر، ملقيتين في حقل الورد، بجرح في مؤخرة رأس كل منهما ناتج عن ضربة هراوة. ولم يترك القاتل وراءه أي أثر. انتشر الخبر كالنار في الهشيم. وكان المهاجرون على وشك التعرض لأعمال عدائية لولا أن عُرف أن الضحيتين إيطاليتان، وأنهما ابنتا عامل مياوم من جنوا.

حل الذعر على المنطقة بأسرها. ولم يعد يعرف الناس ضد من يوجهون غضبهم العاجز. كان هناك قلة من الناس مازالت تشك بالمجانين أو بالمركيز الغامض. لكن الآخرين لم يكونوا مستعدين لتصديق ذلك. فالمجانين كانوا دائماً تحت الحراسة ليلاً ونهاراً، والمركيز سافر إلى باريس منذ مدة طويلة. وهكذا تكاتف الناس مع بعضهم بعضاً. ففتح الفلاحون أبواب شوناتهم للمهاجرين الذين كانوا حتى ذلك الحين ينامون في العراء. ونظم سكان المدينة دوريات ليلية لكل حي من الأحياء. أما ضابط الشرطة فقد شدد الحراسة عند بوابات المدينة.

إلا أن هذه الإجراءات كلها لم تجدِ نفعاً. بعد أيام قليلة من الجريمة المزدوجة وجدت جثة فتاة أخرى مقتولة ومعاملة بالطريقة السابقة نفسها. كانت الجثة هذه المرة لفتاة من سردينيا تعمل غسالة في قصر الأسقف، وقد وجدت بالقرب من البحرة الكبيرة عند نبع "دو لا فو"، أي عند بوابة المدينة مباشرة. ورغم أن مستشاري المدينة، تحت ضغط غضب المواطنين المستشارين قد اتخذوا إجراءات وقائية أخرى، فشددوا الرقابة على

بوابات المدينة وضاعفوا عدد الحرس الليلي ومنعوا النساء كافة من مغادرة بيوتهن بعد حلول الظلام، لم يمض أسبوع خلال هذا الصيف دون اكتشاف جثة فتاة أخرى.

ودائماً كانت الضحايا في ذلك السن الذي تبدأ فيه الفتاة بالتحول إلى امرأة. ودائماً أيضاً من ذلك النوع الفائق الجمال والبالغ التأثير، ذي الشعر الأسود، علماً بأن القاتل بعد فترة لم يعد يتأبى حتى على ذلك النوع من فتيات المدينة، الناعمات البيضاوات والممتلئات قليلاً، بل طالت رغبته السمراوات وذوات الشعر الأشقر الداكن - إن لم تكن شديدات النحول. كان يتصيدهن في كل مكان، لا في المنطقة المحيطة "بغراس" فحسب، بل في وسط المدينة، وحتى داخل المنازل. فقد وجدت ابنة نجار مقتولة في مخدعها في الطابق الخامس دون أن يسمع السكان أي صوت، ودون أن ينبح أي كلب من الكلاب التي كانت تلتقط رائحة الغرباء فتنبح عادة في وجوههم، بدا القاتل كشبح، بلا جسد، لا يمكن الإمساك به.

اشتد غضب الناس وأخذوا يشتمون السلطة. وأصغر إشاعة كانت تؤدي إلى تجمهر الناس الذين كادوا ذات يوم أن يذبحوا بائعاً متجولاً يبيع مسحوق الحب وغير ذلك من الخزعبلات، فقد قيل إن بضاعته تحتوي على شعر فتيات مسحوق. وجرت محاولات لحرق قصر المركيز دي كابريس ومشفى الرحمة. وتاجر القماش ألكسندر مينار أطلق النار على خادمه العائد إلى المنزل ليلاً فقتله، لظنه أنه قاتل الفتيات. والمقتدر من السكان مالياً أرسل بناته اليافعات إلى أقرباء بعيدين أو إلى مدارس داخلية في "نيس" و"إكس" أو "مرسيليا". وبضغط من

مجلس المدينة جُرد ضابط الشرطة من منصبه. أما خلفه فقد جمع جثث الجميلات المقصوصات الشعر وعرضها على لجنة طبية لتفحص حالتها العذرية. فتبين أن الفتيات لم يمسسن.

الغريب في الأمر أن هذه المعرفة قد زادت الرعب بدل أن تخففه. فكلٌ كان يعتقد بينه وبين نفسه أن الفتيات قد اغتصبن، وهذا يعني أن دافع القاتل كان على الأقل معروفاً. أما الآن فلم يعد يعرف أحد شيئاً؛ الجميع أصبح في حيرة تامة. فانكب المؤمنون منهم على الصلاد عساها على الأقل تحمي بيوتهم من المصيبة الشيطانية.

مجلس المدينة هو لجنة مؤلفة من ثلاثين عضواً من أكثر مواطنيها ثراء ونفوذاً وأرستقراطية. معظمهم من المتنورين المعادين للكنيسة الذين لم يأبهوا بالأسقف حتى الآن. ولو كان بمقدورهم أن يحولوا الأديرة والكنائس الكبيرة إلى مستودعات ومعامل لحولوها. أما الآن، نتيجة الأزمة فقد اجتمع أشدهم اعتزازاً بنفسه ونفوذاً وقرروا أن يتوجهوا إلى قداسة الأسقف بكتاب توسل، يرجونه فيه أن يلعن ويحرم من الغفران علناً الوحش قاتل الفتيات الذي لم تستطع السلطة الدنيوية أن تطاله. وذلك تماماً كما فعل سلفه المبجل عام ١٧٠٨ حيال الجراد المرعب الذي هدد البلد. وفعلاً في نهاية أيلول / سبتمبر تم الإعلان خطياً وشفهياً عن لعن وحرمان قاتل فتيات مدينة "غراس" الذي أزهق حتى الآن أرواح لا أقل من أربع وعشرين فتاة من أجمل العذارى ومن مختلف فئات الشعب، وقد تم ذلك من جميع منابر المدينة، ومن بينها منبر "نوتردام دو بري"، بصورة احتفالية وبلسان الأسقف شخصياً.

كان نجاح العملية مذهلاً. فبين ليلة وضحاها توقفت الجرائم. ومضى

تشرين الأول / أكتوبر، وتشرين الثاني / نوفمبر دون جثث. في مطلع كانون الأول / ديسمبر وصلت أخبار من "غرنوبل" تفيد بوجود قاتل فتيات يخنق ضحاياه ويمزق أثوابها عن أجسادها إلى قطع صغيرة وينتزع شعر رؤوسها حزمة حزمة. ورغم أن هذه المجازر الفظة لا تتماشى مع جرائم "غراس" المقترفة بنظافة، فقد اقتنع العالم كله أن الفاعل في الحالتين هو الشخص نفسه. كما صلّب سكان غراس ثلاث مرات متنفسين الصعداء لكون الوحش غادرهم ليرتكب فظائعه في "غرنوبل" الواقعة على مسافة سبعة أيام من السفر. ونظموا موكباً يحمل الأعلام تكريماً للأسقف، ثم أقاموا في الرابع والعشرين من كانون الأول / ديسمبر قداس شكر كبير. في أول كانون الثاني / يناير ١٧٦٦ تم تخفيف الاحتياطات الأمنية، كما رفع منع التجول الليلي بالنسبة للنساء. وبسرعة لا تصدق عادت الحياة العامة والخاصة إلى مجراها الطبيعي. زال الخوف نهائياً ولم يعد هناك من يتحدث عن الرعب الذي سيطر قبل شهور قليلة على المدينة وضواحيها. حتى العائلات المصابة لم تعد تطرق الموضوع. وكأن لعنة الأسقف لم تبعد القاتل فحسب، بل كل ذكرى مرتبطة به، فسُرّ الناس لذلك.

أما من كانت لديه ابنة تقارب ذلك العمر الرائع، فما كان ليتركها دون رقابة دائمة. كان يركبه الرعب مع حلول الظلام، وعندما يجدها صباحاً معافاة مشرقة كانت تغمره السعادة، دون أن يبغي طبعاً الاعتراف لنفسه بالسبب.

٤١

ولكن ثمة رجلاً واحداً في "غراس" لم يطمئن لحالة السلم. كان اسمه أنطوان ريتشي وكان يشغل منصب المستشار الثاني ويسكن في منزل فخم عند بداية "شارع دورات".

ريتشي كان أرملاً، ولديه ابنة اسمها لور. ورغم أنه لم يكمل الأربعين من عمره بعد، ورغم حيويته الجلية فقد كان يفكر بتأجيل مشروع زواجه الجديد لفترة من الزمن. وما كان يريده هو أن يزوج ابنته أولاً، لا لأول خاطب يقرع بابه، وإنما لرجل ذي حسب ونسب. ومع البارون دي بويون الذي يمتلك ابناً وقطعة أرض بالقرب من "فانس"، إلى جانب سمعة طيبة ووضع مالي بائس، كان ريتشي قد توصل إلى اتفاق حول الزواج المستقبلي بين ابنته وابنه. وحالما تصبح لور في بيت زوجها سيوجه مجسّاته بحثاً عن الزوجة، باتجاه العائلات الراقية، مثل دريه أو موبير أو فونميشيل؛ لا لأنه كان مغروراً وعليه الوصول إلى زوجة نبيلة بأي ثمن، بل لأنه كان يبغي تكوين أسرة، وأن يوجه نسله نحو الطريق المؤدي إلى أعلى المراتب الاجتماعية والنفوذ السياسي. ولهذا فإنه بحاجة لابنين على الأقل، أحدهما يتولى أعماله، في حين يصل الثاني إلى الطبقة الأرستقراطية مروراً بسلك المحاماة وبرلمان مدينة "أيكس". ونظراً لمنبته الاجتماعي ما كان له أن يضمن نجاح هذه الطموحات إلا إذا وثّق علاقته وعلاقة عائلته بأمتن الروابط مع الأرستقراطية الريفية.

وما كان يبرر له التفكير بمثل هذه الخطط المجنحة هو ثراؤه الخرافي. فأنطوان ريتشي كان دون منازع أغنى مواطن في المنطقة بأسرها. فعزبه كانت منتشرة لا في "غراس" فقط، حيث يزرع البرتقال والزيتون والقمح

والقنب، بل هناك تلك التي كان يضمّنها للمزارعين بالقرب من "أيكس" وباتجاه "أنتيب". وكان يمتلك بيوتاً في "أيكس" وفي الريف، وأسهماً في السفن المبحرة إلى الهند، ومتجراً دائماً في جنوا، إلى جانب أكبر مخزن تجاري في فرنسا لمواد العطر والتوابل والزيوت والجلود.

لكن أثمن ما كان يمتلكه ريتشي هو ابنته. كانت وحيدته، وقد أتمت السادسة عشرة من عمرها. شعرها داكن الحمرة وعيناها خضراوان. وقد بلغ وجهها حداً من الروعة بحيث أن الزوار من مختلف الأعمار، رجالاً ونساء،لا يكادون يرونها حتى يتسمرون غير قادرين على رفع أنظارهم عنه، كانوا يلعقونه بعيونهم كمن يلعق البوظة بلسانه وقد علا وجهه انطباع الانهماك الغبي المألوف. وحتى ريتشي نفسه عندما كان ينظر إلى ابنته، كان يضبط نفسه متلبساً بنسيان العالم وتجارته لفترة غير محدودة، لربع ساعة، وربما لنصف ساعة حتى - الأمر الذي لم يحدث له حتى في نومه - مستغرقاً في مراقبة الفتاة كلياً دون أن يعرف فيما بعد تفسيراً لما فعله. ومؤخراً - وقد شعر بالانزعاج لذلك - عندما كان يرافقها مساءً إلى سرير نومها لتنام، وأحياناً صباحاً، عندما كان يذهب إليها ليوقظها، فيجدها نائمة وكأن يد الرب قد منّت عليها بالراحة، وقد برزت من غلالة قميص نومها أشكال ردفيها وثدييها، كما تصاعد نفسها هادئاً ودافئاً من المربع المتشكل من ثديها وانحناءة إبطها وثنية كوعها وامتداد ساعدها الأملس حيث وضعت وجهها... عندها كان ينتابه انقباض مؤلم في معدته، ويشعر بحنجرته تضيق عليه، فيبتلع ريقه، كان الله في عونه! فكان يلعن نفسه لأنه والد هذه المرأة، وليس غريباً، أي رجل كان، فتستلقي أمامه كما الآن، ويتمكن الرجل دون

تردد وبكل شهوته من أن يستلقي إلى جانبها وفوقها وفيها. وكان ريتشي يتصبب عرقاً وترتجف أطرافه وهو يحاول خنق هذه الرغبة المرعبة في نفسه، منحنياً فوقها ليوقظها بقبلة أبوية خجولة.

في العام الماضي، وقت الجرائم، لم يكن ريتشي قد تعرض بعد لمثل هذه الغوايات المحرجة. والسحر الذي كان يشعر به تجاه ابنته آنذاك - هكذا بدا له الأمر على الأقل - كان سحر الطفولة. ولهذا السبب لم يشعر بخوف جدي من أن تقع لور ضحية ذاك القاتل الذي لم يهاجم، كما هو معروف، لا الأطفال ولا النساء، وإنما الفتيات العذراوات البالغات فقط. لكنه مع ذلك شدد الحراسة على منزله، وزود نوافذ الطابق العلوي بقضبان حديدية جديدة وأمر خادمة لور بأن تشاطرها مخدعها. ولكن عز عليه أن يبعدها عنه، كما فعل أبناء طبقته ببناتهم، بل بعائلاتهم كلها أحياناً. وقد وجد هذا السلوك مهيناً لا يليق به كعضو في المجلس وكمستشار ثان يجب أن يكون قدوة لمواطنيه في الهدوء والشجاعة والصلابة. بالإضافة إلى أنه لم يكن يسمح لأحد بأن يملي عليه قراراته، فكيف والحال متعلق بحشد من المذعورين أو بمجرد مجرم حقير لا هوية له. وهكذا كان طيلة فترة الرعب أحد قلة من المدينة ممن تحصنوا ضد حمى الرعب وحافظوا على صفاء أذهانهن. لكن الغريب في الأمر هو أن هذا قد تغير الآن. ففي حين كان الناس في الخارج يحتفلون متناسين بسرعة تلك الفترة سيئة الذكر، وكأنهم قد شنقوا القاتل وانتهى الأمر، عاد الخوف إلى قلب أنطوان ريتشي كسم خبيث. انقضت فترة طويلة دون أن يعترف لنفسه أن الخوف هو الذي دفعه إلى تأجيل سفرات ضرورية، إلى عدم الرغبة بمغادرة المنزل، وإلى اختصار وقت الزيارات

والاجتماعات كي يتمكن من العودة إلى البيت بسرعة. كان يقدم الأعذار لنفسه متذرعاً بوعكة ألمت به وبالإجهاد، ثم اعترف لنفسه بأن قلقه طبيعي تماماً، كقلق أي أب آخر على ابنته التي بلغت سن الشباب... أو لم تصل أخبار جمالها الباهر إلى الخارج؟ أما كانت الأعناق تشرئب عندما كان يذهب معها في أيام الآحاد إلى الكنيسة؟ ألم يتقدم إليه بعض السادة في المجلس، باسمهم شخصياً، أو بالنيابة عن أبنائهم..؟

٤٢

ولكن ذات يوم من آذار / مارس، بينما كان ريتشي جالساً في الصالون رأى لور خارجة إلى الحديقة. كانت مرتدية ثوباً أزرق اللون، وقد انهمر فوقه شعرها الأحمر متلألئاً تحت أشعة الشمس. لم يسبق له أن رآها في مثل هذا الجمال. اختفت وراء صنف من الشجيرات وانقضى من الزمن ما يعادل ربما نبضتي قلب أكثر مما توقع قبل أن تظهر ثانية - فارتعب حتى الموت، فقد فكر طيلة نبضتي قلب بأنه قد فقدها إلى الأبد.

في الليلة ذاتها استيقظ من نومه بسبب حلم مروع، لم يتمكن من تذكر مضمونه، ولكن كان له علاقة بلور، فهرع إلى مخدعها متأكداً من أنه سيجدها ميتة، مقتولة مغتصبة ومقصوصة الشعر. لكنه وجدها سليمة.

عاد إلى مخدعه غارقاً في عرقة وهو ينتفض من الغضب، لا، ليس من الغضب، وإنما من الخوف. الآن فقط اعترف لنفسه بأن الخوف المحض قد امتلكه، وباعترافه هذا هدأ واستعاد صفاء ذهنه. الحقيقة هي أنه منذ البداية لم يؤمن بتأثير لعنة الأسقف، ولا بأن القاتل يتجول الآن في "غرنوبل"، ولا حتى بأنه قد غادر "غراس". لا، فهو مازال يعيش هنا،

بين سكان "غراس"، وذات يوم سيعود ليقتل من جديد. في آب / أغسطس، وأيلول / سبتمبر رأى ريتشي بعض الفتيات القتيلات. أزعجه المنظر وسحره في الوقت نفسه، وكان لابد أن يقر لنفسه بذلك، فجميعهن كن جميلات، ولكل واحدة منهن جمالها الخاص المنتخب. لم يسبق أن خطر بباله أبداً أن في "غراس" مثل هذا الجمال غير المعروف. لقد جعله القاتل يفتح عينيه. لاشك أن القاتل يمتلك ذوقاً رفيعاً، وأسلوباً. فكون الجرائم كلها قد اقترفت بالطريقة الفعالة نفسها، إضافة إلى انتقاء الضحايا، ليدل على نية تخطط بصورة اقتصادية تقريباً. لم يعرف ريتشي في الواقع حقيقة ما يبغيه القاتل من ضحاياه، فأفضل ما تملكه: الجمال وفتنة الصبا، ما كان بوسعه أن يسلبهما منها.. أم أنه قد فعلها؟ على أية حال، رغم لا معقولية الأمر، بدا له أن روح القاتل ليست هدامة، بل هي شغوفة بالجمع، وبعناية. فلو تصور المرء - هكذا فكر ريتشي - كل هذه الضحايا، لا كذوات فردية، وإنما كجزء من مبدأ أعلى، وفكر بطريقة مثالية بذوبان صفاتها الفردية في كل موحد، فإن الصورة الناتجة عن مجموعة أحجار الموزاييك هذه ستكون حتماً صورة الجمال، والسحر الصادر عنها لن يكون ذا طابع بشري، بل إلهي. (ها نحن نرى أن ريتشي كان إنساناً متنوراً في تفكيره، لا يتراجع عن نتائج هذا التفكير حتى وإن كانت ضد الدين. ورغم أن مقولاته لم تكن روائحية وإنما بصرية، فقد اقترب جداً من الحقيقة).

لنفترض - تابع ريتشي تفكيره - أن القاتل هو جامع عينات من الجمال ويعمل الآن على تشكيل صورة الكمال، ولو حتى في خيال دماغه المريض، ولنذهب بالافتراض أبعد من ذلك ونقول بأنه يمتلك ذوقاً رفيعاً وأسلوباً في منتهى الكمال، كما بدا الأمر في الواقع، حينئذ لا

يمكن للمرء أن يصدق بأنه سيستغني عن أثمن حجر بناء في الدنيا كلها لاستكمال صورته، أي عن جمال لور، فكل عمله الإجرامي حتى الآن لا قيمة له دونه. جمال لور هو الحجر النهائي في لوحته.

عندما توصل ريتشي إلى هذه النتيجة المرعبة كان جالساً على سريره برداء النوم مستغرباً مدى الارتياح الذي غمره، فقد غادرته القشعريرة والرجفة. فالخوف غير المحدد الذي كان يعذبه طيلة أسابيع اختفى منسجماً أمام الوعي بخطر محسوس: فمن الواضح أن لور كانت مركز تفكير وهدف القاتل منذ البداية، ولم تكن جرائم القتل الأخرى كلها سوى تحضير لتتويج جريمة القتل الأخيرة. أما الغرض المادي الكامن وراء هذه الجرائم، أو فيما إذا كان لها مثل هذا الغرض إطلاقاً، فقد بقي أمراً غامضاً. إلا أن الجوهري في الموضوع، أي أسلوب القاتل ودوافعه المثالي قد توضحا لريتشي بجلاء. وكلما استغرق في التفكير في الموضوع، كلما ازداد إعجابه بهما وكذلك احترامه للقاتل، احترام كان ينعكس عليه طبعاً كما من مرآة صقيلة، فريتشي على أية حال، وبعقله التحليلي الذكي، كان هو الذي قد كشف خطط العدو.

ولو كان ريتشي نفسه قاتلاً، وقد استحوذت عليه هذه الأفكار الطاغية، لما فعل غير ما فعل ذلك حتى الآن، ولكان قد قام بكل شيء بهدف تتويج عمله الجنوني، بارتكاب الجريمة الرائعة والفريدة، بقتل لور.

هذه الفكرة الأخيرة أعجبته بصورة خاصة، فأن يكون قادراً على وضع نفسه مكان قاتل ابنته القادم، هذه الفكرة جعلته يتفوق على القاتل بمراحل. والقاتل بدوره، رغم كل ذكائه ليس قادراً بالتأكيد على وضع نفسه مكان ريتشي - وليكن فقط، لأنه لا يمكن أن يخطر بباله أن

ريتشي قد سبقه ووضع نفسه مكانه. وفي واقع الأمر لا يختلف الأمر هنا عما هو في الحياة التجارية - الشغل هو الشغل، لا خلاف حول ذلك. فعندما يكشف المرء نوايا منافسه سيتمكن من التغلب عليه ولن يسمح له بأن يخدعه، خاصة إن كان هذا المرء يحمل اسم انطوان ريتشي ذي الخبرة المتنوعة والطبيعة المحاربة، وأكبر تجارة بالمواد العطرية من فرنسا وثروته ومنصب القنصل الثاني أمور لم تهبط عليه من السماء، بل حققها بالقتال والعناد والخبث، بأن أدرك الأخطار القادمة قبل وقوعها، وبأن خمّن بدهاء خطط منافسيه، وبأن أبعد معارضيه عن طريقه دون رحمة. وأهدافه المستقبلية، نفوذ ونبل محتد نسله سيحققها بالطرق نفسها، وبها أيضاً سيقطع الطريق على خطط ذاك القاتل، منافسه في ملكية لور - وليكن ذلك فقط لأن لور هي أيضاً الحجر الأخير في بناء مخططات ريتشي الخاصة. لاشك في أنه يحبها، لكنه في الوقت نفسه بحاجة إليها. وما يحتاجه لتحقيق طموحاته الكبرى، لن يسمح لأحد أن يسلبه إياه، بل سيتكالب عليه بأسنانه ومخالبه.

لقد تحسنت حالته الآن. فبعد أن نجح في تحويل أفكاره الليلية المتعلقة بالصراع مع الشيطان إلى مستوى معركة تجارية أحس بشجاعة منعشة تغمره، بل بنوع من الغرور. فتلاشى آخر بقايا الخوف، واختفى الشعور بالقنوط والقلق المقبض الذي كان يعذبه ولكأنه عجوز خرف، كما انقشع ضباب التكهنات المظلمة الذي غشاه منذ أسابيع ولم يجد منه مخرجاً. إنه الآن على أرض مألوفة، وشعر بنفسه مستعداً لمواجهة أي تحد.

٤٣

بارتياح، وبنوع من المتعة، قفز عن سريره، شد حبل الجرس وأمر خادمه الذي دخل متمايلاً من النعاس بأن يحزم الملابس والزاد لأنه ينوي مع الفجر السفر بصحبة ابنته إلى "غرنوبل". ثم ارتدى ثيابه وأيقظ بقية الخدم من أسرتهم.

في منتصف الليل استيقظ المنزل في شارع دروات ودبت فيه حياة نشطة. أشعلت النار في المطبخ، وهرعت الخادمات عبر الممرات بينما كان الخدم يصعدون ويهبطون بين الطابقين، وفي الأقبية سمعت أصوات مفاتيح مدير المستودع، وفي البهو أوقدت المشاعل. كان بعض السواس يخرجون الخيول، وآخرون يجرون البغال من الاسطبلات، ثم وضعت الألجمة وركبت السروج، بدأ الركض للتحميل - بحيث كاد يعتقد المرء أن جحافل النمساويين والسردينيين تتقدم حارقة الأخضر واليابس وناهية في طريقها كل شيء، كما حدث عام ١٧٤٦، وأن سيد الدار المفزوع يجهز نفسه بسرعة للفرار. لكن الأمر لم يكن كذلك أبداً فقد جلس سيد الدار إلى طاولة متجره بكل ترفع وكأنه أحد مارشالات فرنسا، وهو يشرب الحليب مع القهوة ويصدر تعليماته إلى أهل الدار المندفعين إلى متجره باستمرار لا يفتر. إلى جانب ذلك كتب مجموعة من الرسائل إلى المحافظ والمستشار الأول، إلى موثق عقوده وإلى محاميه، إلى مدير مصرفه في مرسيليا وإلى البارون دي بويون وإلى عدد من التجار الذين يتعامل معهم.

في حوالي السادسة صباحاً كان قد أنهى كتابة الرسائل واتخذ كافة الإجراءات الضرورية لمخططاته. تناول من الدرج مسدسي سفر صغيرين

وربط حزام نقوده حول خصره ثم أقفل الطاولة. بعد ذلك توجه إلى مخدع ابنته ليوقظها.

في الثامنة تحركت القافلة الصغيرة يتقدمها ريتشي. كان متعة للنظر بردائه الخمري الموشى بالذهب، وبمعطفه الأسود وقبعته السوداء ذات الريش الأنيقة. كانت ابنته تتبعه بثياب أكثر تواضعاً، لكن جمالها الباهر جعلها محط أنظار الناس في الطريق وفي النوافذ، بحيث تصاعدت من الحشد صيحات الإعجاب المتحمس بينما رفع الرجال قبعاتهم احتراماً - ظاهرياً للمستشار الثاني ,وفي حقيقة الأمر لها، للمرأة الملكية. بعدها مرت خادمتها دون أن يلحظها أحد تقريباً، ثم خادم ريتشي مع حصانين محملين - كان استخدام العربة محظوراً نظراً لرداءة الطرق باتجاه "غرنوبل" - وتشكلت نهاية الموكب من دزينة البغال المحملة بمختلف البضائع، تحت حراسة سائسين. عند بوابة "دور كور" قدم الحرس السلاح، ولم يتنكبوه إلا بعد مرور آخر البغال. تبع الأطفال القافلة لفترة لا بأس بها وهم يلوحون لآخر البغال المحملة وهي تبتعد ببطء في المنعطف الصاعد باتجاه الجبل.

ترك موكب انطوان ريتشي وابنته انطباعاً عميقاً وفريداً من نوعه عند الناس. بدا لهم الأمر وكأنهم قد شاهدوا موكب قربان من غابر الأزمان، وسرعان ما انتشر خبر سفر ريتشي إلى "غرنوبل"، إلى تلك المدينة التي سكنها مؤخراً ذلك الوحش قاتل الفتيات. لم يدر الناس تفسيراً للأمر. هل ما يفعله ريتشي إهمال لا يغتفر، أم أنه شجاعة تستحق الإعجاب؟ أتراه يتحدى الآلهة، أم يسترضيها؟ لقد أوجست قلوبهم - وإن دون سبب جلي - خيفة أن يكونوا قد رأوا هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر للمرة الأخيرة، وشعروا بأن لور ريتشي ضائعة لا محالة.

وقد ثبتت صحة هذا الحرس، رغم أن مقدماته كانت مغلوطة تماماً، فريتشي لم يتجه أبداً نحو "غرنوبل"، وهذا الموكب الفخم لم يكن أكثر من خديعة. فبعد ميل ونصف من "غراس"، بالقرب من قرية "سان فالييه"، أمر ريتشي بالتوقف. سلم خادمه أوراق التوكيل والنقل وأمره بقيادة قافلة البغال وحده مع السواس نحو "غرنوبل".

أما هو فقد توجه مع ابنته وخادمتها نحو "كابريس" حيث استراح قليلاً فترة الظهر ثم تابع طريقه عبر جبال "تانّرون" باتجاه الجنوب. كان الطريق شاقاً جداً، لكنه سمح لهم بالالتفاف حول "غراس" وحوضها غرباً، وبالوصول حتى المساء إلى الساحل دون أن يتعرف أحد عليهم. وفي اليوم التالي - هكذا كانت خطة ريتشي - كان يريد أن يبحر إلى جزر "لُرين"، حيث يقوم على أصغرها حصن "دير سان أونورا" الذي مازالت تديره حفنة من الرهبان المسنين، والمتيني البنية في الوقت نفسه. كان ريتشي يعرفهم حق المعرفة، إذ كان منذ سنوات يشتري كل نتاج الدير من ليكور الأوكاليبتوس، والصنوبر وزيت السرو ليوزعه من ثم على تجار آخرين. وهناك في "دير سان أونورا"، في المكان الأكثر أمناً ومناعة، إلى جانب معتقل "شاتو ديف" وسجن الدولة في جزيرة "سان مارغريت" أراد ريتشي أن يؤوي ابنته كإجراء أولي. أما هو فسيعود من فوره إلى البر متابعاً طريقه إلى "فانس" ليصلها في مساء اليوم نفسه، متجنباً "غراس" هذه المرة شرقاً عن طريق "أنتيب" و"كاغن". وكان قد طلب من موثق عقوده مسبقاً أن يلاقيه في "فانس" من أجل تسجيل الاتفاق مع البارون دي بويون حول زواج لور وألفونس. أراد أن يقدم للبارون عرضاً لن يكون بوسعه رفضه: أن يدفع عنه ديونه البالغة أربعين

ألف ليرة، وأن تكون دوطة ابنته موازية للمبلغ السابق، بالإضافة إلى أراض مختلفة ومعصرة زيت بالقرب من "ماغا نوسك"، وراتباً سنوياً للعروسين الشابين مقداره ثلاثة آلاف ليرة. وشرط ريتشي الوحيد هو أن يتم الزواج خلال عشرة أيام، وأن يسكن الزوجان بعده في "فانس".

كان ريتشي يعرف أن ثمن إسراعه هذا بربط عائلته بعائلة بويون قد ارتفع أكثر مما يستحق بكثير. ولو أطال انتظاره لحصل على مبتغاه بسعر أبخس. إذ أن البارون كان سيتوسل إليه راجياً السماح له برفع المستوى الاجتماعي لابنة التاجر البرجوازي الكبير عن طريق ابنه، فبمضي الوقت سيزداد صيت جمال لور انتشاراً، ومعه ثروة ريتشي، وكذلك أيضاً بؤس الوضع المالي لآل بويون. ولكن لندع الأمر الآن! فليس البارون هو عدوه في هذه الصفقة، وإنما القاتل المجهول الذي لابد من إفساد الصفقة عليه. فالمرأة المتزوجة التي فضت عذريتها وحبلت ربما أيضاً، لن تلائم بعد مجموعته المحظورة على غير العذراوات. آخر حجر موزاييك سيفقد لونه، وبالنسبة للقاتل ستفقد لور قيمتها، وبذلك سيتداعى صرحه. وعليه أن يشعر بهذه الهزيمة! أراد ريتشي أن يقيم حفلة العرس في "غراس"، علانية وبمنتهى الأبهة والفخامة. وحتى وإن كان لا يعرف عدوه ولن يتعرف عليه مطلقاً، فستكون متعة لاشك، أن يعلم بوجوده في الحفل وهو يرى بأم عينيه كيف يسلب منه أثمن ما يشتهيه.

كانت الخطة محبوكة بدقة ومهارة. وللمرة الثانية علينا أن نبدي إعجابنا بفطنة وإحساس ريتشي الذي اقترب من الحقيقة. فزواج لور من ابن البارون دي بويون سيشكل في الواقع هزيمة تقصم ظهر قاتل فتيات

"غراس". إلا أن الخطة لم تتحقق بعد. وريتشي لم يدخل ابنته بعد منزل الزوجية المنقذ. كما أنه لم يوصلها بعد إلى "دير سان أنورا" الحصين. ومازالوا ثلاثتهم يشقون طريقهم عبر جبال "تانرون" القاحلة الجرداء. كانت الممرات من الرداءة أحياناً بحيث كانوا يضطرون للترجل عن خيولهم، فلا يتقدمون إلا ببطء شديد. مع المساء كانوا يأملون بالوصول إلى البحر، عند "نابول" الواقعة غرب "كان".

٤٤

في الوقت الذي غادرت فيه لور ريتشي "غراس" مع أبيها كان غرنوي في الطرف الآخر من المدينة ينقع النرجس الأسلي في ورشة رنولفي. كان وحده، وكان مزاجه حسناً. ففترة إقامته في "غراس" شارفت على نهايتها، وأضحى يوم النصر قريباً. هناك في كوخه في صندوق صغير مبطن. كان يوجد أربع وعشرون قارورة صغيرة تحتوي على شذا أربع وعشرين عذراء على شكل قطرات، هي أثمن الخلاصات التي استخرجها غرنوي في العام الماضي بمرث أجساد الضحايا بالدهن المكرر والمصفى، وقطعة قماش من أفخر أنواع القطن ودورقاً مليئاً بأنقى أنواع الكحول. كان قد درس المنطقة بجميع تفاصيلها. وفي السماء كان الهلال في أوله.

كان يعرف أنه لا جدوى من اقتحام بيت "شارع دروات" المحصن. لهذا السبب أراد أن يتسلل إلى الداخل قبل إغلاق البوابات مع حلول الظلام، وأن يختفي في إحدى الزوايا محتمياً بانعدام رائحته التي تموه طاقية الإخفاء أمام أنوف البشر والحيوانات. وبعد أن ينام الجميع سيدع

بوصلة أنفه تقوده عبر الظلام إلى مخدع كنزه في الطابق الثاني. وهناك في المكان نفسه سيعالجه بالقماش المشرب بالدهن، ولن يأخذ معه كالعادة سوى الشعر والثياب التي يمكن أن تغسل مباشرة بالكحول، والأسهل أن يقوم بهذه العملية في الورشة. كما قدر أنه سيكون بحاجة إلى ليلة أخرى من أجل المعالجة النهائية للدهن، ولتقطيره من ثم إلى خلاصة. وإن جرت الأمور على ما يرام - ولم يكن هناك سبب يدعوه للشك بأن الأمور ستجري على غير ما يرام - فسيكون بحوزته بعد غد جميع الخلاصات اللازمة لصنع أفضل عطر في العالم، وسيغادر "غراس" كأطيب البشر رائحة.

عند الظهيرة، انتهى من نقع النرجس الأسلي. فأطفأ النار ووضع الغطاء فوق قدر الدهن وخرج من الورشة لينعش نفسه. كانت الريح آتية من الغرب.

من النفس الأول لاحظ أن هناك خطأ ما. لم يكن الجو على ما يرام. ففي رداء روائح المدينة المنسوج من آلاف الخيوط، كان الخيط الذهبي ناقصاً. خلال الأسابيع الماضية كان خيط العبق هذا قد أصبح من القوة بحيث كان باستطاعة غرنوي أن يشمه وهو في كوخه في الطرف الآخر من المدينة، وبوضوح. أما الآن فإنه غير موجود، لقد اختفى، ورغم كل محاولاته الشمية المكثفة لم يستطع غرنوي أن يلتقط أثره. ذعر غرنوي حتى الشلل.

فكر بأنها ميتة. ثم، وهو ما أرعبه أكثر، لقد سبقني أحدهم إليها. لقد قطف أحدهم زهرتي وأخذ عبقي لنفسه! لم يستطع أن يصرخ، فقد كانت صدمته أكبر من أن يفعل ذلك، لكنها كانت كافية لأن تنهمر الدموع من عينيه، ولتسيل فجأة بغزارة على طرفي أنفه.

في تلك اللحظة جاء دروو من الحانة المجاورة لتناول طعام الغداء في البيت، وحكى له بصورة عابرة أن المستشار الثاني وابنته قد غادرا صباح اليوم إلى "غرنوبل" بصحبة دزينة من البغال. ابتلع غرنوي دموعه وهرع عبر المدينة إلى بوابة "دو كور". توقف في الساحة أمام البوابة وأخذ يتشمم. وفي الريح الغربية النقية غير الملوثة بعد بروائح المدينة استطاع فعلاً أن يلتقط خيطه الذهبي، رقيقاً وضعيفاً، لكن الأنف لا يخطئه. إلا أن العبق الحبيب لم يأت من جهة الشمال الغربي حيث الطريق المؤدي إلى "غرنوبل"، وإنما من جهة "كابريس"، إن لم يكن من الجنوب الغربي.

سأل غرنوي الحارس عن الطريق الذي سار فيه المستشار الثاني، فأشار هذا نحو الشمال. ألم يذهب في الطريق نحو "كابريس"؟ أم في الطريق الآخر، المؤدي جنوباً إلى "أوريبو" و"لانابول"؟ بالتأكيد لا، أجاب الحارس، فقد رآه بعينيه.

ركض غرنوي عبر المدينة عائداً إلى كوخه، حيث حزم قطعة القماش القطني وطاسة الدهن والملوَق والقميص وهراوة بيضاء صغيرة ملساء من خشب الزيتون. وضع كل شيء في جعبة رحلاته وتوجه دون أي تأخير، لا باتجاه "غرنوبل"، بل بالاتجاه الذي دل عليه أنفه: نحو الجنوب.

هذا الطريق الذي يؤدي إلى "لاناپول" مباشرة كان يمتد على طول سلسلة جبال "تانرون" عبر وهاد نهري "فراييز" و"سيان". كان طريقاً ممهداً ومريحاً للمشي، فتقدم غرنوي بسرعة. وعندما ظهرت على يمينه "آوريبو" معلقة على قمة الجبل شم أنه قد أشرف على اللحاق بالهاربين. وبعد برهة وجيزة أصبح وإياهم على ارتفاع واحد، وتمكن من شمهم فرداً

فرداً، حتى أنه شم رائحة خيولهم. إنهم على الأغلب على مسافة نصف ميل غرباً، في مكان ما من غابات "التانرون"، وهم متوجهون جنوباً نحو البحر، مثله تماماً.

في حوالي الخامسة بعد الظهر وصل غرنوي إلى "لاناپول". دخل النزل، أكل وطلب مكاناً رخيصاً للنوم. قال إنه أجير دبّاغ من "نيس" وعلى طريقه إلى "مرسيليا". فقيل له أن بإمكانه النوم في الاسطبل. وهناك اختار زاوية افترشها واسترخى فيها. شم أن راكبي الخيول الثلاثة يقتربون. إذن ليس عليه إلا أن ينتظر.

بعد ساعتين، بعد أن حلّت الظلمة الداكنة، وصلوا. وليخففوا حقيقة شخصياتهم كانوا قد بدلوا ملابسهم، فارتدت المرأتان الآن ردائين قاتمين ووشاحين، في حين ارتدى ريتشي بزة سوداء. قدم نفسه كنبيل قادم من "كاستلان" ويريد أن يبحر غداً إلى جزر "لُرني"، وعلى صاحب النزل أن يؤمن له قارباً يكون جاهزاً مع شروق الشمس. ثم سأل عما إذا كان في النزل ضيوف آخرون غيره هو وجماعته. لا، أجاب صاحب النزل، هناك أجير دباغ من "نيس" ينام في الإسطبل.

أرسل ريتشي المرأتين إلى الغرف. أما هو فقد ذهب إلى الاسطبل ليحضر شيئاً من جيب السرج، كما قال. في البداية لم يستطع أن يجد أجير الدباغ، مما اضطره لطلب فانوس من سائس الخيل. عندها رآه مستغرقاً في نوم عميق، وفي زاوية من الاسطبل، من تحته غطاء عتيق وكومة من القش، وقد أسند رأسه إلى جعبة الرحلات. بدا له النائم تافهاً تماماً، وللحظة تولد لدى ريتشي انطباع بأنه غير موجود على الإطلاق، وبأنه مجرد وهم عكسته ظلال شمعة الفانوس المتأرجحة. على أية حال

أحس ريتشي للتو بأن هذا المخلوق الوديع المسالم لا يمكن أن يكون مصدراً لأي نوع من الخطر، فابتعد بهدوء كيلا يزعج نومه وعاد إلى النزل.

تناول طعام العشاء مع ابنته في الغرفة. لم يكن قد أخبرها بغرض وهدف هذه الرحلة الغريبة، كما أنه لم يخبرها الآن بذلك رغم رجائها. بل قال إنه سيطلعها غداً على الموضوع، وعليها أن تكون واثقة من أن كل ما يخطط له ويفعله سيكون لمصلحة سعادتها المستقبلية.

بعد وجبة الطعام لاعبها بضع جولات بالورق، خسرها كلها، لأنه بدلاً من أن ينظر إلى ورقه كان يحدق طيلة الوقت في وجهها ليستمتع بجمالها. وفي حوالي التاسعة أوصلها إلى غرفتها المقابلة لغرفته. قبلها قائلاً: تصبحين على خير، ثم أقفل الباب من الخارج، وذهب إلى سريره.

وفجأة أحس بتعب شديد من مشاق النهار والليلة السابقة، وأحس في الوقت نفسه ببالغ الرضا عن مسار الأمور. ودون أية فكرة قلقة أو أوهام سوداوية كالتي كانت تعذبه حتى الأمس بعد إطفاء الشمعة فتؤرقه، نام هذه المرة فوراً، نام دون أحلام، دون تأوهات، دون انتفاضات تشنجية ودون أن يقلب جسده هنا وهناك بعصبية. للمرة الأولى منذ زمن بعيد قرت عينا ريتشي بنوم هادئ عميق ولذيذ.

في الوقت نفسه تقريباً نهض غرنوي من مضجعه في الاسطبل. وهو أيضاً كان راضياً عن نفسه وعن مسار الأمور، وشعر بنفسه في غاية الانتعاش رغم أنه لم ينم ولا ثانية واحدة. عندما دخل ريتشي إلى الاسطبل باحثاً عنه، تظاهر بالنوم كي يولد لديه الانطباع بأنه مسالم لا خطر منه، وهو ما كان ينبعث منه على أية حال بفضل رائحته التمويهية

التي أرادها أن تكون أكثر وضوحاً. على نقيض إحساس ريتشي به، أحس هو بريتشي وبكل دقة، شمياً طبعاً، ولم يفته أبداً ارتياح ريتشي له.

وهكذا خلال لقائهما القصير اقتنع كل منهما بسلامة نية الآخر، خاطئاً ومصيباً، ووجد غرنوي أن الأمر هكذا أفضل، فسلامة نيته المزعومة، وتلك الحقيقية عند ريتشي، قد يسرتا عليه عمله - وهي على أية حال وجهة نظر كان ريتشي لو انعكس الأمر ليشاطره إياها.

٤٥

بدأ غرنوي عمله بتدبير وتأن احترافي. فتح جعبة رحلاته وأخرج منها القماشة القطنية وطاسة الدهن والملوق. بسط القماشة على الغطاء الذي كان مستلقياً فوقه وأخذ يفرش المرهم الدهني فوقها. وهو عمل يحتاج لوقته دون تعجل، إذ يجب أن تكون طبقة الدهن في هذا الموضع أسمك منها في ذاك، حسب المكان من الجسم الذي ستغطيه قطعة القماش. فالفم والإبطان والصدر والفرج والقدمان تبث كميات أكبر من العبق مما تبثه الساقان أو الظهر أو الكوعان، وباطن اليد أكثر من سطحها، والحاجب أكثر من الجفن، وهكذا - وبناء على ذلك يجب تغطيتها بكمية أكبر من الدهن. وهكذا رسم غرنوي على قطعة القماش مخططاً بيانياً للجسم الذي عليه معالجته، وهذا الجزء من العمل كان أكثر ما يبعث الرضا في نفسه، فالأمر يتعلق هنا بتقنية فنية تشغل الحواس والخيال واليدين بالدرجة نفسها، وتفسح المجال في الوقت نفسه بطريقة فكرية لتوقع متعة انتظار النتيجة النهائية.

عندما استنفذ كل ما في الطاسة من دهن، وضع لمسة هنا وأخرى هناك، مزيلاً جزءاً من الدهن عن هذا الموضع ليضيفه في ذاك. ثم أجرى التعديلات الأخيرة، فالعمل كله قد جرى في الظلام الحالك، ولربما كان هذا سبباً آخر لمزاج غرنوي المتوازن المرح. في ليلة القمر الجديد هذه لم يكن ثمة ما يشغل باله. لم يكن العالم أكثر من مجرد رائحة ومن أصوات اصطدام أمواج البحر بالشاطئ. وغرنوي كان مستغرقاً في عمله وسعيداً به. ثم طوى قطعة القماش كما تطوى الملصقات، بحيث تتوضع المساحات المطلية بالدهن فوق بعضها البعض، وكم كانت تؤلمه هذه العملية، إذ كان يعرف جيداً أن أجزاء من المساحات المشكلة إما أن تسقط أو تنزاح رغم كل الحذر. ولكن ليس ثمة من إمكانية أخرى للتنقل بقطعة القماش. وبعد أن وصل في طيها إلى الحد الذي يمكنه من حملها على ساعده دون أن تعيقه كثيراً، وضع الملوق والمقص والهراوة الصغيرة في ثيابه وانسل إلى الخارج.

كانت السماء مغطاة بالسحب، ولم يعد في النزل أي نور مضاء. الشرارة الوحيدة في هذه الليلة المدلهمة كانت تلتمع في جهة الشرق، من منارة القلعة على جزيرة "سان مارغريت"، على بعد ميل واحد. كانت كقطبة إبرة مضيئة في قطعة قماش حالكة السواد. من الخليج كانت تهب ريح خفيفة سميكة الرائحة. الكلاب نائمة.

مشى غرنوي إلى الفتحة الخارجية لجرن الدراس حيث وجد سلماً مستنداً إليها، فرفعه ووازنه طولانياً مثبتاً ثلاث درجات منه تحت ذراعه اليمنى الحرة، ضاغطاً الجزء الأعلى منه على كتفه الأيمن، ومشى به عبر الفناء حتى نافذتها التي كانت نصف مفتوحة. عندما صعد السلم،

مرتاحاً كمن يصعد درجاً، هنأ نفسه على هذا الظرف الذي أتاح له أن يحصد عبق الفتاة هنا في "لاناپول". ففي "غراس" مع النوافذ ذات القضبان الحديدية والحراسة المشددة على البيت كان كل شيء سيجري بطريقة أكثر صعوبة. حتى أنها هنا تنام وحدها. فلم يكن بحاجة حتى إلى تصفية خادمتها.

فتح درفة النافذة وانسل إلى الحجرة ووضع قطعة القماش، ثم التفت إلى السرير. كان عبق شعرها مهيمناً، فقد كانت مضطجعة على بطنها، وقد ضغطت وجهها المحاط بذراعها في الوسادة، بحيث كانت مؤخرة رأسها معرضة بوضعية مثالية لضربة الهراوة.

كان صوت الضربة عميقاً ذا صرير. كرهه. كرهه لسبب واحد فحسب، لأنه كان صوتاً، صوتاً في عمله الصامت. ولم يكن بوسعه تحمل هذا الصوت المقرف إلا وهو يكز على أسنانه. وبعد أن انقضى الأمر وقف هناك لبرهة متصلباً عابساً وقد تشنجت يده على الهراوة، وكأنه يخشى رجع الصوت كصدى من مكان ما. لكن الصوت لم يعد، بل عاد الهدوء إلى الحجرة مضاعفاً، بعد غياب صوت تنفس الفتاة الثقيل. وسرعان ما ارتخت وقفة غرنوي المتصلبة (التي قد يفسرها البعض على أنها وقفة تبجيل أو كدقيقة صمت متصلبة) وعاد جسده إلى استرخائه المرن.

وضع الهراوة جانباً وقد امتلأ الآن بحمى العمل النشط. بدأ ببسط قطعة القماش على الطاولة والكراسي، منتبهاً لئلا يلامس السطح المدهون أي شيء. ثم سحب غطاء السرير عن الفتاة. لم يؤثر فيه عبق الفتاة الرائع الذي تدفق منها الآن دافئاً وكثيفاً، إذ كان يعرفه. أما

الاستمتاع به، حتى النشوة، فسيأتي لاحقاً، عندما يمتلكه فعلياً. أما المهم الآن فهو أسرع أكثر ما يمكن منه، وعدم السماح لأي شيء منه أن يتسرب، الآن لابد من التركيز والسرعة.

وبحركات سريعة كان قد قص قميص نومها، خلعه عنها، تناول قطعة القماش المطلية بالدهن ورماها على جسدها العاري. ثم رفعها ولف تحتها ما تدلى من قطعة القماش، ثم فتلها كما يفتل الخباز الفطيرة، وضم النهايات فغطاها من أصابع قدميها حتى جبينها، فلم يعد يظهر من لفة المومياء سوى شعرها. فقصه من منابته ولفه في قميص نومها الذي ربطه كصرة. وأخيراً بسط على الجمجمة الحليقة قطعة متبقية من القماش المدهون، سوّى النهايات المتدلية منها وضغطها بأصابعه برقة مثبتاً إياها. تفحص الطرد كله، فلم يجد شقاً أو ثقباً أو ثنية مفتوحة يمكن لعبق الفتاة أن يتسرب منه. كان ملفوفاً بصورة محكمة. لم يعد ثمة ما يمكن عمله سوى الانتظار، ست ساعات حتى انبلاج الفجر.

أخذ الكرسي الصغير الذي كانت ثيابها ملقية عليه، حمله إلى قرب السرير وجلس. ثمة شيء من عبقها مازال عالقاً في ردائها الأسود الواسع. ممتزجاً برائحة كعك اليانسون الذي كان في جيبها كزاد للرحلة. وضع قدميه على طرف السرير بالقرب من قدميها، غطى نفسه بردائها وأكمل كعك اليانسون. كان متعباً. لكنه لم يرد أن ينام، إذ لا يجوز للمرء أن ينام أثناء العمل، حتى ولو كان العمل انتظاراً لا أكثر. وتذكر الليالي التي قضاها في ورشة بالديني وهو يقوم بعملية التقطير: تذكر الإنبيق المسود من السخام، والنار المتوهجة المتراقصة، وصوت البصق الخفيف الصادر عن انصباب السائل المعطر قطرة فقطرة من انبوب التبريد

في الزجاجة الفلورنسية. بين الحين والآخر كان على المرء أن ينتبه لحالة النار، أن يعيد ملء جهاز التقطير بالماء، أن يغير الزجاجة الفلورنسية وأن يستبدل المواد التي تم تقطيرها بأخرى طازجة. ومع ذلك كان يشعر بأن الهدف من اليقظة ليس القيام بهذه الأعمال الضرورية بين الآونة والأخرى بل وكأن لليقظة مغزاها الخاص. وحتى هنا في هذه الحجرة حيث تسير عملية المرث البارد من نفسها، وحيث قد يكون لفحص الطرد في الوقت غير المناسب، لقلبه أو ترتيبه تأثير غير مرغوب، حتى هنا، هكذا بدا لغرنوي، كان وجوده يقظاً ضرورياً، فالنوم قد يعرض روح النجاح للخطر.

على أية حال لم يصعب عليه أن يبقى يقظاً وأن ينتظر، فهو كان يحب هذا الانتظار. وقد أحبه أيضاً مع الأربع وعشرين فتاة الأخريات، إذ لم يكن انتظاراً فارغاً ممتداً بلا معنى، ولا انتظاراً متشوقاً متلهفاً، بل كان انتظاراً مرافقاً، ذا مغزى، أي أنه انتظار فعال. فثمة ما كان يحدث خلال هذا الانتظار، أي الأمر الجوهري. ومع أنه لم يقم بالفعل نفسه، فإنه السبب فيما يحدث. لقد قدم أفضل ما عنده، كافة مهاراته الفنيــة، دون أن يرتكب أي خطأ. هذا الانتظار كان يملؤه بالرضــا. لم يسبق له في حياته أن شعر بمثل هذه السعادة والهدوء والتوازن، متفرداً ومتوحداً مع ذاته في الوقت نفسه - حتى آنذاك في جبله لم يكن الأمر كما هو خلال ساعات الاستراحة المهنية، حين يجلس في عمق الليل مع ضحاياه ساهراً منتظراً. كانت تلك هي اللحظات الوحيدة التي غشت فيها دماغه الكئيب بعض الأفكار المرحة.

والغريب أن هذه الأفكار لم تتجه صوب المستقبل. لم يفكر بالعبق

الذي سيحصده بعد بضع ساعات، ولا بعطر الخمس وعشرين فتاة، ولا بخطط مستقبلية أو بالسعادة والنجاح. لا، بل كان يستعيد ماضيه. تذكر محطات حياته بدءاً من منزل مدام غايار وكومة الحطب الرطبة الدافئة أمامه حتى رحلته في هذا اليوم إلى قرية "لاناپول" التي تفوح منها رائحة السمك. استعاد في ذاكرته الدباغ غريمال وجوزيبه بالديني والمركيز دي لا تيلاد - إسبيناز. استعاد مدينة باريس وسديمها الكريه المتقزح بآلاف الألوان. استعاد الفتاة ذات الشعر الأحمر في "شارع دي ماريه"، الأرض الخلاء والريح الخفيفة والغابات. كما استعاد أيضاً جبل أوفيرج - لم يحاول أبداً تجنب هذه الذكرى - وكهفه والهواء الخالي من البشر. واستعاد أحلامه أيضاً، وكل تلك الأشياء بمنتهى الرضا. وعندما كان يعود هكذا بذاكرته إلى الوراء، كان يبدو له أنه إنسان محظوظ على نحو خاص، ورغم أن قدره قد ساقه عبر طرق ملتوية، لكنه وضعه في نهاية المطاف على الطريق الصحيح - وإلا كيف كان له أن يجد طريقه إلى هنا، إلى هذه الحجرة المعتمة، وإلى هدف رغباته؟ وعندما أمعن التفكير بالأمر وجد أنه في واقع الأمر فرد مبروك!

فاضت نفسه بمشاعر التواضع والعرفان. "أشكرك" قال بصوت خافت: "أشكرك يا جان باتيست غرنوي لأنك على ما أنت عليه!" إلى هذا الحد بلغ تأثره بنفسه.

ثم أغلق جفنيه - لا لينام، وإنما ليكرس نفسه لسلام هذه الليلة المقدسة. غمرت السكينة قلبه، ولكن بدا له أنها تغمر الأشياء من حوله أيضاً. شم رائحة نوم الخادمة المسالم في الغرفة المجاورة، ونوم انطوان ريتشي البالغ الرضا على الطرف الآخر من الممشى. شم النعاس الهادئ

لصاحب النزل والسواس والكلاب وبهائم الإسطبل، شم المكان والبحر. كانت الريح قد هدأت. وكان كل شيء هادئاً. ليس ثمة ما يز السكينة.

مرة واحدة فقط مال بقدمه فلامس بكل رقة قدم لور. لم يلاه قدمها تحديداً، بل قطعة القماش التي تغلفها، ذات السطح الداخ المطلي بالدهن والذي يتشرب الآن بعبقها الرائع، بعبقه.

٤٦

عندما بدأت الطيور تزعق - أي قبل انبلاج الفجر بمدة طويلة نهض غرنوي وأنهى عمله. رفع أطراف قطعة القماش عن بعض وسحبها عن جسد الميتة كمن يسحب لاصق الجروح، وكان تقشر الد عن الجلد جيداً، ولم يتبق شيء منه إلا في الزوايا، فكان عليه أن يجم بالملوق، أما ترسبات الدهن الطينية فقد مسحها بقميص لور الداخ الذي استعمله في الختام لمسح جسدها من رأسها حتى قدمها بدقة جعل الدهن يتحول إلى فتائل صغيرة تحمل في طياتها آخر شذرات عبقه الآن فقط أصبحت بالنسبة له ميتة فعلاً، ذابلة شاحبة ورخوة كبقا الزهور بعد المرث.

رمى قميصها الداخلي في قطعة القماش المروثة التي لا تستمر حي لور إلا فيها، ثم وضع فوقه قميص نومها وشعرها وحزم الكل في ربط متينة ثبتها تحت ذراعه. لم يكلف نفسه عناء تغطية الجثة على السرير ورغم أن كحل الليل قد تحول إلى لون الفجر الرمادي الضارب إلى الزرقة بحيث بدأت تتحدد معالم الأشياء في الحجرة، لم يرم على السرير ولا حتى

نظرة، ليكون قد رآها بعينيه ولو مرة واحدة في حياته. لم يكن شكلها يهمه في شيء، وهي كجسد لم تعد موجودة بالنسبة له، وإنما فقط كعبق دون جسد، وهو ما كان يحمله تحت ذراعه، وهو ما أخذه معه.

تسلل بهدوء عبر النافذة وهبط السلم. في الخارج كانت الريح قد عادت لتهب، والسماء قد بدأت تصحو ساكبة على الأرض نوراً بارداً أزرق داكناً.

بعد نصف ساعة أوقدت خادمة النزل النار في المطبخ. وعندما خرجت لتحضر بعض الحطب رأت السلم المسنود إلى النافذة، لكن نعاسها لم يسمح لها بإدراك معنى ذلك. بعد السادسة بقليل أشرقت الشمس، هائلة، حمراء ذهبية مرتفعة من البحر بين جزيرتي "لُرني"، وكانت السماء صافية تماماً. إنها بداية يوم ربيعي رائع.

وريتشي الذي كان ينام في غرفة على الجانب الغربي من النزل استيقظ في السابعة. لأول مرة منذ شهور شعر بأنه قد نام نوماً عميقاً فعلاً، وعلى غير عادته بقي ربع ساعة أخرى مستلقياً في فراشه وهو يتمطى ويتنهد مستمتعاً ومستمعاً إلى الضجة اللطيفة المتصاعدة من المطبخ. ثم عندما نهض وفتح النافذة عن آخرها وأحس بالطقس الجميل في الخارج واستنشق هواء الصباح المنعش وسمع صوت أمواج البحر، لم يعد لطيب مزاجه من حدود، فدبب شفتيه وصفر لحناً مرحاً.

كان يصفر خلال ارتدائه ثيابه، وكان ما يزال يصفر عندما غادر غرفته وتقدم بخطوات سريعة من باب غرفة ابنته. نقر الباب. ونقر ثانية بهدوء شديد كيلا يرعبها. لم يأته أي جواب. ابتسم، وتفهم جيداً أنها مازالت نائمة.

بحذر أدخل المفتاح في الثقب، وأدار القفل بهدوء، بمنتهى الهدوء، مراعياً ألا يوقظها، وراغباً بشدة أن يجدها نائمة، لأنه أراد أن يوقظها بقبلة، كالعادة، وللمرة الأخيرة قبل أن يتوجب عليه تسليمها إلى رجل آخر. انفتح الباب، وما إن دخل حتى ملأ نور الشمس وجهه. كانت الحجرة تتلألأ وكأنها مليئة بالفضة البراقة، كل شيء كان يتلألأ، وتحت ضغط الألم اضطر أن يغمض عينيه لبرهة قصيرة.

عندما فتحهما ثانية شاهد لور مستلقية على السرير، عارية ميتة مقصوصة الشعر بيضاء كالثلج. كان الأمر كما في الكابوس الذي رآه قبل ليلتين في "غراس" ثم نسيه والذي عاد مضمونه الآن إلى ذاكرته كلمع البرق. كان كل شيء تماماً كما في ذاك الحلم، والفارق الوحيد هو النور الباهر هنا.

٤٧

انتشر خبر مقتل ريتشي في منطقة "غراس" بسرعة مذهلة، ولكأن مفاد الخبر هو "مات الملك" أو "اندلعت الحرب!" أو "نزل القراصنة على الساحل!" وإلى ما هنالك من أخبار سيئة تنشر الرعب. والخوف المتناسى بعناية عاد فجأة ليهيمن على الجميع، كحمى الخريف الماضي وجميع أعراضها المرافقة: الذعر، الاستياء، الغضب، التشكيك الهيستيري واليأس. خلال الليل كان الناس يبقون في بيوتهم وقد أرتجوا الأبواب على بناتهم، وأقاموا الحواجز التحصينية حول منازلهم، وفقدوا الثقة ببعضهم بعضاً، وما عادوا ينامون. كل كان يفكر بأن الأمر سيستمر الآن كما حدث آنذاك، جريمة قتل كل أسبوع. وبدا وكأن الزمن قد عاد نصف سنة إلى الوراء.

كان الخوف الآن أكثر مدعاة للإحساس بالشلل مما كان عليه قبل ستة شهور، فالعودة المفاجئة للخطر الذي ظن الناس أنهم قد تجاوزوه نشرت الشعور بالعجز بينهم. ماذا إذا كانت حتى لعنة الأسقف قد خابت!؟ وكيف إذا كان انطوان ريتشي، ريتشي الكبير، أغنى مواطن في البلد، والمستشار الثاني، الرجل المتدبر ذو النفوذ، والذي كل شيء في خدمته، فأي أمل بعد إن كان هذا الرجل غير قادر على حماية ابنته! إن يد القاتل لم ترتدع حتى أمام جمال لور المقدس - فقد كانت تبدو لجميع من عرفها كقديسة فعلاً، خاصة الآن بعد أن ماتت، فما الأمل المتبقي بعد للنجاة من القاتل؟ إنه أشد هولاً من الطاعون، إذ بمقدور المرء أن يهرب من الطاعون، ولكن ليس من هذا القاتل، كما أثبت مثال ريتشي. لاشك أنه يمتلك قدرات خارقة للطبيعة. وإن لم يكن هو الشيطان نفسه، فهو حليفه بالتأكيد. وهكذا لم يجد الكثيرون، وخاصة البسطاء والسذج منهم، أي مخرج آخر سوى الذهاب للصلاة في الكنيسة، فتوجهت كل جماعة مهنية إلى حاميها: السباكون إلى القديس ألويسيوس، والنساجون إلى القديس كريسبيتنيوس، والبستانيون إلى القديس أنطونيوس، والعطارون إلى القديس جوزيفوس. كانوا يأخذون معهم زوجاتهم وبناتهم، فيصلّون معاً، ويأكلون وينامون في الكنيسة، دون أن يغادروها حتى نهاراً، وهم مقتنعون أنهم هنا في حماية الجماعة اليائسة تحت أنظار الأم العذراء واجدون الملجأ الآمن الوحيد من الوحش، هذا إن كان ثمة مكان آمن بعد.

وبما أن مساعي الكنيسة قد خابت سابقاً، فقد شكل بعض الماكرين من المؤمنين بالقوى الخفية جماعات سرية، ودفعوا الكثير من المال

لإحضار ساحرة مجربة من "غوردون"، فكانوا يتسللون معها إلى واحد من الكهوف الكلسية الكثيرة الموجودة تحت "غراس" ليقيموا هناك قداسات صاخبة تمجيداً للشيطان كي يأمنوا جانبه ويسترضوه. وثمة آخرون، خاصة من البرجوازية العليا ومن النبلاء المثقفين، ممن راهنوا على أحدث الطرق العلمية، فمغنطوا بيوتهم، ونوّموا بناتهم مغناطيسيا وأقاموا في صالوناتهم حلقات صمت فلويدالية محاولين معاً عن طريق ابتعاث الأفكار المشتركة وبالتخاطر لاستحضار روح القاتل. أما الجمعيات فقد نظمت موكب سفارة سار من "غراس" إلى "لاناپول"، ومنها عائداً إلى "غراس"، في حين أقام رهبان أديرة المدينة الخمسة قداس شفاعة دائم، مع تراتيل مستمرة كانت تسمع ليلاً ونهاراً دون انقطاع، تارة من هذه الزاوية من المدينة، وأخرى من تلك. أما العمل فقد أهمل تماماً تقريباً.

بسلبية أشبه ما تكون بالحمى. وبنوع من نفاد الصبر كان سكان "غراس" ينتظرون ضربة القاتل القادمة، ولم يشك أحد في أنها قادمة لا محالة. وفي السر كان كل منهم يتوق إلى وصول الخبر المرعب، مع الأمل الوحيد، ألا يمسه هو، وإنما الآخرين.

أما سلطات المدينة والريف والإقليم فإنها لم تصب هذه المرة بالجو الهيستيري السائد بين الشعب. ولأول مرة منذ ظهور قاتل البنات ظهرت حالة من التعاون المجدي والفعال بين إدارات "غراس" و"دارغونان" و"طولون"، بين المجالس البلدية والشرطة والمدراء والبرلمانات المحلية وسلاح البحرية.

إن سبب هذا التضامن بين أصحاب السلطة كان من جهة خشية انفجار انتفاضة شعبية عامة، ومن جهة أخرى نتيجة توفر أدلة - منذ

جريمة قتل لور ريتشي - تساعد على ملاحظة القاتل بتخطيط منظم. فالقاتل قد شوهد، وجلي أنه أجير الدباغ المشؤوم الذي كان ليلة الجريمة في اسطبل نزل "لاناپول" واختفى في صبيحة اليوم التالي دون أي أثر. وحسب تطابق إفادات صاحب النزل وسائس الاسطبل ريتشي كان القاتل رجلاً لا يلفت النظر، قصير القامة يلبس رداء بني اللون ومعه كيس رحلات من نسيج القطن الخشن. ورغم أن ذاكرة الشهود الثلاثة بقيت ضبابية ولم تسعفهم في تحديد أوصاف وجه القاتل أو لون شعره أو طريقته في الكلام، فقد كان لدى صاحب النزل ما يضيفه، فإن لم تخنه ذاكرته، لفت نظره في وقفة الغريب ومشيته شيئاً غير طبيعي، نوعاً من العرج، قد يكون ناتجاً عن إصابة في الساق أو تشوه في القدم.

عند ظهيرة يوم الجريمة تحركت فصيلتان من فرسان الدرك، مزودتين بهذه الأدلة، لملاحقة القاتل باتجاه "مرسيليا" - فصيلة على طول الساحل والأخرى على الطريق الداخلي. أما المنطقة المحيطة "بلاناپول" فقد سمح للمتطوعين بتمشيطها. كما سافر مفتشان من محكمة "غراس" إلى "نيس" لإجراء استقصاءات حول شخصية أجير الدباغ. وفي موانئ "فريجو" و"كان" و"آنتيب" تم تفتيش جميع السفن المبحرة، كما سدت كافة الطرق على حدود "ساڤوين"، ولم يسمح للمسافرين بالعبور إلا بعد إبراز أوراقهم الرسمية. وبالنسبة للقادرين على القراءة علقت كل بوابات "غراس" و"فانس" و"غوردون" وعلى أبراج كنائس القرى إعلانات تتضمن أوصاف القاتل. وكان المنادون يقرأون مضمونها ثلاث مرات في اليوم.

إن الاعتقاد بأن للغريب قدماً مشوهة دعم طبعاً وجهة النظر القائلة بأن الفاعل هو الشيطان نفسه، ولذلك عم الفزع بين الناس بحيث لم تستطع السلطات الحصول على أية معلومات مفيدة منهم.

ولم تتوفر مثل هذه المعلومات إلا بعد أن أعلن رئيس محكمة "غراس" بتكليف من ريتشي عن جائزة مقدارها مائتا ليرة لكل من يقدم معلومات تساعد في القبض على الفاعل. وقد أدت البلاغات إلى القبض على بعض أجراء الدباغين في "غراس" و"أوبيو" و"غوردون"، ومن سوء حظ أحدهم أنه كان يعرج فعلاً. وقد فكرت الشرطة بتعريضه للجلد رغم إفادة كثرة من الشهود بوجوده في مكان آخر وقت الجريمة. وما حال دون ذلك في اليوم العاشر بعد وقوع الجريمة، هو قدوم رجل من حرس المدينة إلى مجلس البلدية ليقدم للقضاة البلاغ التالي: عند ظهيرة ذلك اليوم كان هو غابرييل تاغلياسكو النقيب في الحرس يقوم بمهمته في بوابة "دور كور" كالمعتاد، فكلمه شخص تنطبق عليه الأوصاف المذكورة في الإعلان، حسبما عرف الآن، وسأله بإلحاح عن الطريق الذي أخذته قافلة المستشار الثاني عندما غادرت المدينة صباحاً. وهو لم يعر هذا الحادث أية أهمية لا حينذاك ولا فيما بعد، وما كان ليتذكر من نفسه ذلك الشخص بالتأكيد - لأنه لا يلفت النظر أبداً - لولا أن رآه بالأمس مصادفة، هنا في "غراس"، في شارع "دو لالوف" أمام ورشة المعلم دروو ومدام آرنولفي، وما لفت نظره عند دخول هذا الشخص إلى الورشة هو عرجه الواضح.

بعد ساعة كان غرنوي قد اعتقل. وصاحب نزل "لاناپول" وسائس الاسطبل اللذان كانا في "غراس" بمهمة التعرف على الآخرين المشتبه بهم، عرفا فوراً أنه أجير الدباغ الذي قضى ليلة في نزلهم: إنه هو ولا أحد سواه، ولابد أن يكون هو القاتل الذي تبحثون عنه.

تم تفتيش الورشة وتم تفتيش الكوخ في حقل الزيتون خلف دير الفرنسيسكان. في إحدى الزوايا وبشكل ظاهر تقريباً وجدت الشرطة

قميص نوم لور ريتشي وقميصها الداخلي وشعرها الأحمر. وعندما نبشت الشرطة الأرض ظهرت بالتتالي ثياب وشعور الفتيات الأربع والعشرين. كما وجدت الهراوة التي قتلت بها الضحايا، وكذلك كيس الرحلات القطني. كانت الأدلة مبينة. فقرعت نواقيس الكنائس، كما أعلن رئيس المحكمة كتابة وشفاهة أن قاتل الفتيات الشهير، بعد نصف عام من البحث عنه، قد تم القبض عليه أخيراً وأنه الآن في الحجز القضائي.

٤٨

في البداية لم يصدق الناس الإعلان. واعتبروه خديعة يغطي بها المسؤولون عجزهم ويهدئون بها هياج الجمهور الخطر. وقد تذكروا جيداً ذلك الوقت عندما قيل لهم إن القاتل قد انتقل إلى غرنوبل. لقد افترس الخوف البشر ووصل حتى إلى أرواحهم هذه المرة.

في اليوم التالي، في ساحة الكنيسة أمام دار القضاء عرضت الأدلة علناً - كان منظراً مروعاً أن يرى المرء ثياب وخصل شعر الخمسة وعشرين فتاة معلقة على الحوامل ومصفوفة كفزاعات العصافير في صدر الساحة مقابل الكاتدرائية - عندها تغير الرأي العام.

تدافع الناس بالمئات مارين أمام هذا المعرض الذي يثير الهلع. وأقارب الضحايا الذين تعرفوا على ألبسة بناتهم انهاروا صارخين. أما بقية الحشد فقد أرادت رؤية القاتل، من جهة لما في ذلك من إثارة، ومن جهة أخرى بقصد الاقتناع الكامل. وعندما ارتفعت صيحات الحشد مطالبة به وأصبحت الفوضى في الساحة الصغيرة المزدحمة بالبشر تشكل تهديداً صريحاً، قرر رئيس المحكمة إحضار غرنوي من زنزانته وعرضه عليهم من إحدى نوافذ الطابق الأول من دار القضاء.

عندما ظهر غرنوي في النافذة خرس الصياح. وفجأة حل سكون شامل كما في يوم صيفي قائظ في الظهيرة عندما يخرج الجميع في الحقول أو يحتمون في ظلال البيوت. ولم يعد يسمع من الساحة لا وقع خطوة ولا صوت تجشؤ ولا حتى صوت التنفس. طيلة دقائق تحول الحشد إلى أعين محملقة وفم مفتوح. لم يستطع أحد أن يصدق أن هذا الرجل السافل الضئيل المحني الكتفين البادي هناك من النافذة، هذا الخرع، هذه الكومة الحقيرة، هذا اللاشيء يمكن أن يرتكب أكثر من دزينتين من جرائم القتل. لم يشبه شكله شكل قاتل أبداً. ولكن لم يكن بوسع أحد أن يقول كيف كان يتصور القاتل، هذا الشيطان، لكن الجميع كانوا متفقين على أمر واحد: ليس هكذا! مع ذلك - رغم أن شكل القاتل لم يتطابق مع تصورات الناس عنه مطلقاً، وعرضه أمامهم بالتالي، كما قد يخطر ببال البعض، لن يكون ذا تأثير مقنع عليهم، فإن ما حدث هو نقيض ذلك تماماً، فمجرد وجود هذا الإنسان جسدياً في النافذة، مع حقيقة أنه هو الذي قدم إليهم كقاتل وليس غيره، قد ولد تأثيراً مقنعاً. لقد فكر الجميع قائلين لأنفسهم: لا يمكن لهذا أن يكون هو الحقيقة! - وفي اللحظة نفسها كانوا يعرفون أنه لابد أن يكون هو الحقيقة.

وبطبيعة الحال، فقط عندما سحب الحراس الرجل الضئيل إلى ظلام الغرفة، فقط عندما لم يعد حاضراً أو مرئياً، بل مجرد ذكرى، ولو لأقصر برهة من الوقت، أو لنقل مجرد تصور عنه في أدمغة الناس، مجرد تصور عن قاتل شنيع، عندئذ فقط زال ذهول الحشد مفسحاً المجال لرد فعل مناسب: انطبقت الأفواه وعادت الحياة إلى آلاف العيون. ثم انطلقت الحناجر دفعة واحدة بصيحة غضب وانتقام كقصف الرعد:

"سلموه لنا!" وكاد الناس أن يقتحموا دار القضاء كي يخنقوه ويمزقوه وينتّفوه بأيديهم. وقد بذل الحراس جهداً كبيراً حتى تمكنوا من سد الباب ورد الرعاع. وبأسرع ما يمكن أعيد غرنوي إلى سجنه. ثم ظهر رئيس دار القضاء في النافذة ووعد بإجراء محاكمة سريعة صارمة رادعة. رغم ذلك انقضت عدة ساعات قبل أن يتفرق الحشد، وعدة أيام حتى عاد الهدوء بالكاد إلى المدينة.

وقد جرت محاكمة غرنوي في واقع الأمر بسرعة كبيرة، لا نتيجة توفر الأدلة الدامغة فحسب، وإنما لأن المتهم خلال الاستجواب قد اعترف دون مواربة بجميع جرائم القتل المنسوبة إليه.

لكنه عندما سئل عن دوافعه، لم يقدم أي جواب مقنع، بل كان يكرر قوله بأنه كان بحاجة للفتيات فقتلهن. وعندما سئل لأي غرض احتاجهن، وماذا يعني بقوله: "إنه كان بحاجة إليهن". صمت ولم يحر جواباً. فأخضعوه للتعذيب، علقوه طيلة ساعات من قدميه، وحقنوه بتسع ليترات من الماء، وضغطوا قدميه بالملزمة، ولكن دون أية نتيجة. وبدا لهم أن الرجل لا يشعر بالآلام الجسدية، حتى أنه لم يطلق أي صوت خلال التعذيب. وعندما كانوا يعاودون سؤاله، لم يجب إلا بقوله: "كنت بحاجة إليهن". فاعتبره القضاة مختلاً عقلياً وأوقفوا التعذيب، ثم قرروا متابعة المحاكمة وإنهاءها دون مزيد من الاستجوابات.

وكان التأجيل الطارئ الوحيد ناتجاً عن مناوشة قانونية مع مجلس بلدية "دراغوينان" المشرف على إدارة قوية "لانابول" ومع البرلمان المحلي في "أيكس". فكلاهما أراد سحب القضية لمصلحته. لكن قضاة "غراس" لم يسمحوا بأن تسلب منهم قضيتهم. فهم الذين أمسكوا القاتل، وفي المنطقة الخاضعة لإرادتهم وقعت معظم جرائم القتل، وهم المهددون

بانفجار الغضب الشعبي إن سلموا القاتل إلى محكمة أخرى. إذن يجب أن يسفح دمه في "غراس".

في الخامس عشر من نيسان / أبريل صدر الحكم، وقرئ على المتهم في زنزانته كالتالي: "إن العطار المتدرب جان باتيست غرنوي سيساق خلال ثمانية وأربعين ساعة إلى ساحة الاستعراض أمام بوابة المدينة، حيث سيوثق ووجهه نحو السماء إلى صليب خشبي، وسيتلقى بقضيب حديدي وهو حي اثني عشرة ضربة تحطم ذراعيه وساقيه ووركيه وكتفيه، وسيبقى من ثم على الصليب المنتصب حتى يفارق الحياة". وقد منع الجلاد منعاً باتاً من ممارسة إجراء الرحمة، أي أن يخنق المجرم بالخيط بعد تحطيم أضلاعه، حتى ولو استمر النزع عدة أيام. أما الجثة فستدفن من ثم ليلاً في مقبرة المسلخ دون أن توضع أية إشارة على المكان.

تلقى غرنوي الحكم دون تأثر. وعندما سأله خادم المحكمة عن رغبته الأخيرة، قال: "لا شيء". إذ أن لديه كل ما يحتاجه.

حضر إلى الزنزانة كاهن ليسمع منه اعترافه بخطاياه، لكنه خرج بعد ربع ساعة على عقبيه دون أن ينجز مهمته وقال إنه عندما ذكر اسم الرب أمام المحكوم، نظر هذا إليه دون فهم، وكأنه يسمع لأول مرة في حياته، ثم تمدد على سرير الزنزانة وغفى من فوره. ولم تكن هناك ضرورة لأية كلمة أخرى.

خلال اليومين التاليين جاء كثير من الناس ليروا القاتل الشهير عن قرب. وسمح لهم الحرس بإلقاء نظرة عبر فتحة باب الزنزانة مقابل ستة قروش لكل نظرة. وكان من بينهم حفار على النحاس أراد أن يخطط صورة أولية للمحكوم، فاضطر لدفع فرنكين كاملين، لكن الموديل كان مخيباً للآمال، فالسجين المقيد من يديه وقدميه كان طيلة الوقت نائماً

على السرير. كان وجهه باتجاه الجدار، ولم يستجب لا للنقر على الباب ولا للبذاءات. ودخول الزوار إلى الزنزانة كان محظوراً تماماً، ورغم الإغراءات لم يجرؤ الحرس على تجاهل قرار المنع الذي صدر خشية أن يقوم أحد أقارب الضحايا بقتل السجين قبل موعد إعدامه. وللسبب نفسه لم يسمح للزوار بأن يقدموا له الطعام عبر الفتحة، إذ قد يكون مسموماً. وخلال فترة الأسر كلها كان طعام غرنوي يأتي من مطبخ الفقراء في قصر الأسقفية، وكان على ناظر السجن أن يتذوقه قبل تقديمه له. لكن غرنوي لم يأكل أي شيء خلال اليومين الأخيرين، بل كان يستلقي وينام. وعند سماع الحارس صليل قيوده أحياناً كان يهرع إلى الكوة ليناوله رشفة من زجاجة الماء، يعود بعدها غرنوي إلى سريره ليتابع نومه تحت أنظار الحارس المندهش الذي بدا له أن غرنوي قد سئم الحياة لدرجة أنه يرفض قضاء ساعاته الأخيرة فيها في حالة يقظة.

خلال ذلك تم تجهيز ساحة الاستعراض لعملية الإعدام. فبنى النجارون سقالة بارتفاع مترين على منصة مساحتها تسعة أمتار مربعة ولها درج متين. لم يسبق لسكان "غراس" أن شهدوا منصة إعدام بمثل هذه الفخامة. ثم بني سرادق خشبي للشخصيات الرفيعة المقام، وحاجز لصد الرعاع الذين يجب أن يحجزوا على مسافة معينة من المنصة. أما نوافذ البيوت على يمين ويسار "بوابة دو كور" ونوافذ بناء الحرس فقد بيعت محلاتها منذ مدة طويلة وبأسعار خيالية. وحتى في بناء مشفى الرحمة البعيد قليلاً قام مساعد الجلاد بمفاوضة المرضى على غرفهم، ثم أجرها بربح فاحش لمحبي الفرجة. كما قام بائعو العصير بتحضير كميات هائلة من شراب السوس من باب الاحتياط. أما الحفار على النحاس فقد باع من صورة القاتل التي وضع خطوطها الأولى في السجن واستكمل

معالمها من خياله المجنح مئات النماذج. في الوقت نفسه توافد البا الجوالون على "غراس" بالعشرات، في حين خبز الخبازون نوعاً من الـ للذكرى.

والجلاد، مسيو بابون الذي لم يحصل منذ سنوات على مجرم ليـ له أضلاعه، طلب من الحداد أن يصنع له خصيصاً قضيباً حديدياً ثـ مضلعاً، ذهب به إلى المسلخ ليجرب ضرباته على جيف الحيوانات يكن مسموحاً له إلا باثنتي عشرة ضربة، وبها كان عليه أن يكـ المفاصل الاثني عشر، دون أن يؤذي الأجزاء القيمة من الجسد، كالـ أو الرأس - لاشك أنه عمل صعب يتطلب مهارة عظيمة.

جهز المواطنون أنفسهم للحدث، كما لعيد كبير. وكان أمراً مفر منه أن اليوم سيكون عطلة عن العمل. كوت النساء أثواب العـ ونفض الرجال الغبار عن بزاتهم وطلبوا تلميع جزماتهم. ومن كان ذا ر عسكرية أو صاحب منصة، ومن كان معلم حرفة أو محامياً أو مو عقود أو مدير جمعية إخاء أو أي شيء مهم آخر فقد ارتدى لبا الرسمي مع زينته وأوسمته ووشاحه وسلاسله وباروكته المبيضة ببو الكلس. وتذكر المؤمنون ضرورة أن يقيموا قداساً للرب قبل الإعدام، كـ أقام أتباع الشيطان قداس شكر حافل لإبليس، والتقى النبلاء المثقفـ لجلسة مغناطيسية في فنادق "كابريس" و"فيلينوف" و"فونميشيل". و المطابخ تصاعدت روائح الكعك والشواء، ومن الأقبية جُلب النبيذ، و السوق أزهار الزينة، وفي الكاتدرائية بدأت تدريبات الكورال بمرافقة موسيقى الأورغن.

أما في بيت ريتشي في شارع "دروات" فقد بقي كل شيء ساكنـ إذ منع ريتشي تحضير أي شيء من أجل "يوم التحرير"، وهو الاسم الذ

أطلقه الشعب على يوم إعدام القاتل. كان فزع الناس الذي انتشر فجأة مرة ثانية يشعره بالقرف، وكذلك حمى سعادتهم السابقة لأوانها كانت تشعره بالقرف. حتى هم، الناس أنفسهم، جميعهم كانوا يشعرونه بالقرف. لم يشارك مع الجموع في استعراض القاتل وضحاياه في الساحة أمام الكاتدرائية، ولا في مجريات المحاكمة، ولا مع حشد محبي الإثارة الكريهة أمام كوة زنزانة المحكوم. ومن أجل التعرف على شعر وثياب ابنته طلب من المحكمة إحضارها إلى بيته، حيث أدلى بإفادة متماسكة مقتضبة، راجياً أن يتركوا له هذه الأشياء على سبيل الذكرى، فلبت المحكمة رجاءه، فحملها إلى مخدع لور حيث بسط قميص النوم المقصوص والقميص الداخلي على سريرها، ونشر الشعر الأحمر على الوسادة وجلس أمامها ليلاً ونهاراً، وكأنه بهذه الحراسة التي لا جدوى منها يود أن يعوض ما لم يفعله في تلك الليلة في "لانابول". كان متخماً بالقرف من العالم ومن نفسه بالذات، بحيث لم يكن قادراً على البكاء.

كما شعر بالقرف من القاتل. لم يعد يرغب برؤيته كإنسان، بل فقط كضحية سيتم ذبحها. لم يرغب برؤيته إلا عند الإعدام، عندما يكون مستلقياً على الصليب والضربات الاثنتي عشرة تهوي عليه كالصاعقة. كان يريد رؤيته عند هذه اللحظة، وعن قرب شديد. فحجز لنفسه في الساحة مكاناً في الصف الأول. وعندما يتفرق الناس بعد ساعات، سيصعد إليه، إلى منصة الدم، وسيجلس إلى جانبه ويحرسه، طيلة ليال وطيلة نهارات، إن كان لابد من ذلك، وخلال ذلك سينظر في عينيه، في عيني قاتل ابنته، وفي عينيه سيصب كل القرف الذي يملؤه، كل القرف، خلال نزعه الأخير، كحامض كاوٍ، وسيستمر في ذلك حتى يتفسخ ذاك الشيء..

وبعد؟ ماذا سيفعل بعد ذلك؟ لم يدر. قد يعود إلى حياته المعتادة، قد يتزوج، وقد تلد له زوجته ابناً، وقد لا يفعل أي شيء، قد يموت. لم يأبه لذلك مطلقاً. لم ير ثمة جدوى من التفكير في ذلك، وكأنما يفكر بما سيفعله بعد موته: لا شيء طبعاً. لا شيء يحتمل أن يعرفه الآن.

٤٩

حُدد موعد الإعدام في الساعة الخامسة بعد الظهر. ومنذ الصباح توافد محبو الفرجة إلى المكان ليضمنوا لأنفسهم المحلات المناسبة، وأحضروا معهم الكراسي ومساند القدمين ووسائد الجلوس والطعام والنبيذ وأطفالهم. وعند الظهيرة عندما وصلت جموع الريفيين من كافة الاتجاهات كانت الساحة قد اكتظت بالناس بحيث اضطر القادمون الجدد للجلوس في الحدائق والبساتين المعلقة على منحدر الجبل على الطرف الآخر من الساحة، وعلى الطريق المؤدي إلى "غرنوبل".

وأخذ الباعة يبيعون بضاعتهم، فالكل يأكل ويشرب، وكان الضجيج والازدحام أشبه ما يكون بأعياد المواسم الشعبية. وسرعان ما بلغ عدد الناس أكثر من عشرة آلاف، أي أكثر مما يجتمع معاً في عبد ملكة الياسمين، وأكثر مما في أضخم المواكب، بل أكثر من أية مناسبة أخرى في "غراس"، فملؤوا المكان حتى أطرافه البعيدة على المنحدرات، وتسلقوا الأشجار والأسوار والأسطحة، وزاد عددهم في كل نافذة عن عشرة رؤوس محشورة عبر الفتحة. في مركز الساحة فقط، في حماية السور والحواجز بقي مكان خال للمنصة والسرادق، وكأنه قد اقتطع من وسط العجينة البشرية، فبدت المنصة مع السرادق فجأة صغيرة كلعب الأطفال أو كمسرح العرائس. رغم شدة الزحام حافظ الحرس على ممر

مفتوح وممتد من ساحة الإعدام عبر بوابة "دو كور" وحتى شارع "دروات".

بعد الثالثة بقليل ظهر المسبو بابون مع مساعديه، فتعالى التصفيق كهزيم الرعد. حملوا صليب القديس أندريا المصنوع من العوارض الخشبية إلى المنصة ونصبوه على ارتفاع مناسب لعملهم وقد دعموه بأربعة مساند كالتي تستخدم في ورشات النجارين. ثم ثبته صبي نجار بالمسامير. وكان الجمهور المحتشد يصفق لكل عمل يقوم به مساعدو الجلاد والنجار. ثم عندما اقترب بابون حاملاً قضيبه الحديدي ودار حول الصليب وهو يقيس خطواته، تارة من هذا وأخرى من ذاك الجانب، مجرباً ضربة تجريبية متخيلة، صاح الحشد مهللاً ومبتهجاً.

في حوال الرابعة بدأ السرادق يمتلئ. كان هناك كثير من المتأنقين متعة للنظر، أثرياء مهذبون مع خدمهم، سيدات جميلات، قبعات كبيرة وثياب براقة. نبلاء المدينة والريف جميعهم كانوا موجودين في السرادق. ثم ظهر أعضاء مجلس المدينة في رتل واحد يقودهم المستشاران. كان ريتشي يرتدي بزة سوداء، وجوارب سوداء، وقبعة سوداء. ومن بعده تقدم أعضاء مجلس البلدية بقيادة رئيس المحكمة. وكان آخر من حضر هو الأسقف على محفة مكشوفة بردائه البنفسجي المضيء وقبعته الخضراء. ومن ما زالت قبعته على رأسه حتى الآن اضطر مع حضور الأسقف إلى نزعها. أصبح الجو احتفالياً.

ثم ولعشر دقائق لم يحدث أي شيء. أخذ السادة مجالسهم، جمد الناس دون حراك وتوقف الجميع عن الأكل، الكل كان ينتظر. أما بابون ومساعدوه فقد وقفوا على منصة الإعدام كالمسمرين في أماكنهم. وفي المساء كانت الشمس كبيرة وصفراء. ومن حوض "غراس" هبت ريح فاترة

حاملة معها أريج أزهار البرتقال. كان الطقس قائظاً، وهادئاً بصورة غريبة.

وأخيراً، عندما كاد المرء يظن أن التوتر لن يطول أكثر من هذا دون أن ينفجر بصيحة من آلاف الخناجر، بصخب، بهياج أو بأي حدث جماعي. انبثق من أعماق الصمت صوت خبب خيول وصرير عجلات.

كانت عربة ضابط الشرطة ذات الحصانين تهبط شارع "دروات"، عبرت بوابة المدينة وأصبحت الآن مرئية من الجميع وهي تقطع الممر الضيق بين الجمهور متقدمة نحو ساحة الإعدام. لقد أصر ضابط الشرطة على هذه الطريقة في توصيل المحكوم إلى منصة الإعدام، لأن أي طريقة أخرى، في رأيه، لم تكن كفيلة بضمان سلامته، رغم أن هذا الأسلوب لم يكن معتاداً أبداً، فالسجن كان على مسافة خمس دقائق من الساحة، وإن كان المحكوم غير قادر على قطع هذه المسافة على قدميه، كان يُحمل على عربة مكشوفة يجرها حمار، أما أن يصل المحكوم إلى مكان إعدامه بعربة مغلقة تجرها الجياد، يقودها حوذي إلى جانب خدم في زي رسمي ومن حولها كوكبة من الفرسان، فهذا ما لم يسبق لأحد أن رأى مثيلاً له.

ومع ذلك لم يبدر عن الحشد أي نوع من الغضب أو الاستياء، بل على العكس. فقد كان الحشد راضياً بأن ثمة شيء يحدث، معتبراً موضوع العربة فكرة ناجحة، كما يحدث في المسرح عندما تعرض مسرحية معروفة بأسلوب تفاجئ جدته الجمهور. وهناك من وجد المشهد بحد ذاته لائقاً تماماً، فالمجرم الشنيع غير العادي يستحق معاملة غير عادية، ولا يجوز أن يتصرف المرء حياله وكأنه لص شوارع عادي، يجر بسلاسل قيوده ليعدم في الساحة، إذ ليس في هذا أية إثارة. أما أن

تسوقه من مقعد العربة الفاخرة إلى صليب أندريا، ففي هذا قسوة مجنحة بخيال لا يقارن.

توقفت العربة بين المنصة والسرادق. قفز الخدم إلى الأرض ثم فتحوا باب العربة وأنزلوا دَرَجها الصغير. فترجل ضابط الشرطة ومن ورائه ضابط من الحرس، وأخيراً غرنوي. كان يرتدي بزة زرقاء وقميصاً أبيض وجوارب حريرية بيضاء وحذاء أسود بإبزيم. لم يكن مقيداً، ولم يمسكه أحد من ذراعه. لقد ترجل من العربة كرجل حر.

ثم حدثت معجزة، أو ما يشبه المعجزة، أمر لا يعقل، لا يصدق ولم يسمع بمثله أحد. فكل من شهده كان سيصفه فيما بعد على أنه معجزة، هذا إن كان سيعود ليطرق الموضوع على الإطلاق، وهو ما لم يحدث، ففيما بعد خجل الجميع، دون استثناء، من كونهم قد شاركوا فيه.

فقد جرى الأمر كالتالي: بين لحظة وأخرى امتلأت نفوس العشرة آلاف إنسان في الساحة وما حولها بإيمان لا يتزعزع بأن هذا الرجل الضئيل ذو البزة الزرقاء الذي ترجل لتوه من العربة لا يمكن أن يكون قاتلاً. لم يشكّوا أبداً في هويته، إنه الرجل نفسه الذي شاهدوه قبل أيام قليلة في نافذة دار القضاء في ساحة الكنيسة، ولو حظوا به آنئذ لمزقوه إرباً من هيجان حقدهم عليه. إنه الرجل نفسه الذي صدر الحكم بحقه قبل يومين استناداً إلى الأدلة القاطعة واعترافاته. هو نفسه الذي كانوا قبل دقيقة واحدة متعطشين لإعدامه بيد الجلاد. إنه هو، لاشك في ذلك!

ورغم ذلك - لم يكن هو نفسه، ما كان يمكن أن يكونه، وما كان يمكن أن يكون قاتلاً. فالرجل الواقف في ساحة الإعدام كان البراءة متجسدة في شخص. هذا ما عرفه الجميع في تلك اللحظة، من الأسقف

حتى بائع العصير، من المركيز حتى الغسالة الصغيرة، ومن رئيس المحكمة حتى صبية الأزقة.

حتى بابون عرف ذلك، فارتجفت قبضتاه الممسكتان بالقضيب الحديدي، وشعر فجأة بضعف في ذراعيه المتينين وبارتخاء في ركبتيه وبهلع في قلبه كطفل. شعر بأنه لن يتمكن من رفع هذا القضيب، وبأنه في حياته كلها لن يستجمع قواه لرفع القضيب في وجه هذا الإنسان الضئيل البريء. آه كم أرعبته اللحظة التي سيسوقون فيها الرجل إلى المنصة، ارتعد، فاضطر للاستناد إلى قضيبه القاتل كيلا يسقط على ركبتيه من الخور. هكذا أحس بابون العظيم، القوي!

وحالة العشرة آلاف رجل وامرأة وطفل وشيخ المجتمعين هناك لم تكن مختلفة: كان مثلهم كمثل صبية صغيرة خاضعة لسحر حبيبها، وغمرهم شعور طاغ بالود والحنان، شعور بخبل طفولي مجنون - كان الله في وعنهم - بحبٍ نحو الرجل الضئيل القاتل، ولم يكن في وسعهم فعل أي شيء حيال ذلك، بل لم يريدوا أن يفعلوا شيئاً. كان وضعهم أشبه ما يكون ببكاءٍ محبوس منذ أمد بعيد، يتصاعد الآن من أعماق النفس جارفاً بطريقةٍ رائعة كل ما يعيقه، مذيباً إياه، ليتدفق مع العيون كالفيضان. لم يعد الناس في الساحة وما حولها سوى محلول، فلقد ذابت في دواخلهم عقولهم وأرواحهم إلى سائل لا معالم له، تعوم فيه قلوبهم وحدها ككتل متأرجحة بلا سند، فأمسكوا بها، رجالاً ونساء، ووضعوها في يد الرجل الضئيل ذي البزة الزرقاء، على الخير والشر: لقد أحبوه.

كان قد مضى الآن على غرنوي عدة دقائق وهو واقف عند باب العربة المفتوح دون أن يحرك ساكناً. كان الخادم إلى جانبه قد ركع على ركبتيه وتابع الركوع في وضعية السجود المعروفة في الشرق أمام الله

والسلطان. وحتى في هذه الوضعية كان يرتجف ويهتز راغباً بمزيد من السجود، بمزيد من الغوص في الأرض، بل تحتها، وحتى الطرف الآخر من العالم، تعبيراً عن خضوعه. أما ضابط الحرس وضابط الشرطة القويان الشجاعان واللذان كان عليهما الآن قيادة المحكوم إلى منصة الإعدام وتسليمه للجلاد. فقد كانا عاجزين عن تنسيق أي فعل بينهما. بكيا، خلعا قبعتيهما ثم أعاداها إلى رأسيهما، ثم رميا بهما إلى الأرض. تعانقا ثم ابتعدا عن بعضهما، لوحّا بأذرعهما في الهواء دون معنى، فركا أيديهما، انتفضا وقلصا عضلات وجهيهما كالمأخوذين في رقصة القديس فينوس.

ولم يكن السادة أصحاب المقام والرفعة الأبعد قليلاً عن الضابطين أقل تحفظاً في التعبير عن عواطفهم الجامحة. فقد أطلق كل منهم العنان لما في قلبه من جيشان. وبعض السيدات لدى رؤيتهن غرنوي وضعن قبضاتهن في أحضانهن وأخذن يتأوهن من اللذة. وثمة أخريات، نتيجة رغبتهن الجامحة بهذا الشاب الرائع - إذ هكذا بدا لهن - غنين ثم سقطن مغشياً عليهن دون أدنى صوت. وثمة من السادة من كان يقفز عن كرسيه باستمرار، يعود فيجلس، ليقفز مجدداً وهو يلهث بشدة ويده على مقبض سيفه كأنه يود سحبه، وما أن يسحبه حتى يعيد النصل المعدني إلى غمده مصدراً قعقعة عالية. وكان هناك آخرون ممن أغمضوا أعينهم بصمت رافعين وجوههم نحو السماء وقد تقلصت أيديهم على بعضها في وضعية الصلاة.

أما قداسة الأسقف فقد أحنى جذعه إلى الأمام حتى لامست جبهته ركبتيه، كمن يشعر بالغثيان، وأخذ يضرب رأسه على ركبتيه حتى تدحرجت قبعته الخضراء إلى الأرض، علماً بأنه لم يحس بأي غثيان،

وإنما لأول مرة في حياته بنشوة دينية هائلة، فقد حدثت المعجزة أمام الملأ، الرب بنفسه شخصياً أوقف يد الجلاد وأظهر كملاك ذاك الذي كان يظنه العالم قاتلاً - آه ما أروع أن يحدث مثل هذا في القرن الثامن عشر. ما أعظمك يا رب! وما أصغرك أيها الإنسان الذي أعلنت لعنة الحرمان دون أن تؤمن بها، وإنما لإرضاء الشعب فحسب! يا له من تطاول! ويا له من ضعف إيمان! ها هو الرب الآن قد أنجز معجزة! فأي تحقير رائع وأي اذلال محبب وأية رحمة في أن يؤدبك الرب وأنت الأسقف!

خلال ذلك كان الشعب وراء الحواجز قد تمادى وبوقاحة متزايدة في التعبير عن نشوته الشعورية الرهيبة التي فجرها ظهور غرنوي. فمن شعر لدى رؤيته في البداية بنوع من التعاطف والتأثر، تملكته الآن شهوة عارية، ومن شعر في البداية بالإعجاب والرغبة، وصل الآن إلى ذروة النشوة. لقد اعتبر الجميع أن هذا الرجل ذا البزة الزرقاء هو الكائن الأجمل والأكثر جاذبية وكمالاً من بين من يمكن أن يتصورهم: فبدا للراهبات كتجسيد للمخلص، ولعبدة الشيطان كسيد الظلمة المنير، وللمتنورين ككائن أعلى، وللصبايا كأمير خرافي، وللرجال كانعكاس مثالي لذواتهم. وأحس الجميع بأنه قد أدرك أشد النقاط حساسية فيهم، فأصابهم في مراكزهم الجنسية. وبدا كأن للرجل آلاف الأيدي اللامرئية، وكأنه قد مد يداً منها إلى كل فرد من العشرة آلاف إنسان المحيطين به، ووضعها على عضوه مداعباً إياه بتلك الطريقة تحديداً التي يتمناها كل منهم في خبايا خياله، رجلاً كان أم امرأة.

فكانت النتيجة أن انقلبت تحضيرات إعدام أشنع مجرم في عصره إلى أعظم حفلة مجون باخوسية لم ير العالم مثيلاً لها منذ القرن الثاني

قبل الميلاد: فإذا بالنساء المحترمات يفتحن قمصانهن بنزق ويعرين صدورهن وهن يطلقن صيحات هيستيرية ويلقين بأنفسهن على الأرض مشمرات عن أفخاذهن. والرجال يتعثرون بنظراتهم المجنونة عبر حقل اللحم الشهواني المكشوف، وهم يستلون من سراويلهم بأصابع مرتجفة أعضاءهم المنتصبة وكأنها قد تجمدت بفعل صقيع لا مرئي، فيسقطون في أي مكان لا على التعيين وهم يتأوهون ليضاجعوا في أكثر الأوضاع والمزاوجات استحالة وغرابة: العجوز مع الفتاة العذراء، العامل المياوم مع زوجة المحامي، الصبي المتدرب مع الراهبة، اليسوعي مع المرأة الماسونية، فاختلط الحابل بالنابل، كيفما اتفق. كان الهواء مثقلاً برائحة العرق الحلوة التي تنضحها الشهوة، ومليئاً بصيحات وتأوهات ونخير عشرة آلاف حيوان بشري. كان الجو جحيماً.

وقف غرنوي مبتسماً. وبالأحرى هكذا بدا للناس الذين رأوه وكأنه يبتسم ابتسامة هي الأكثر براءة وحباً وسحراً، وغواية في الوقت نفسه، في العالم أجمع. لكنها لم تكن في حقيقة الأمر كذلك، بل كانت ابتسامة متكلفة بشعة متهكمة ارتسمت على شفتيه عاكسة نصره الكامل واحتقاره الكامل. فهو، جان باتيست غرنوي، المولود دونما رائحة، في أكثر أماكن العالم تخمة بالروائح الكريهة، الناشئ من القمامة والغائط والعفن، الذي تربى دون حب وعاش دون روح إنسانية دافئة، وإنما نكاية وبقوة القرف، هو الضئيل الأحدب الأعرج البشع، الذي يتجنبه الجميع، والشنيع من الداخل والخارج على حد سواء قد توصل إلى جعل نفسه محبوباً من قبل الجميع. وماذا تعني كلمة محبوب! معشوق! محترم! مؤلمة! إلى الجحيم بكل ذلك! فهو قد أنجز الفعل البروميثيوسي، الشرارة الإلهية. هذه الشرارة التي لم يحققها لنفسه إلا بعناده ومكره

الدائمين، وبمهارته، هذه الشرارة التي يحصل عليها الآخرون مجاناً منذ ولادتهم، والتي حجبت عنه من دونهم جميعاً. لقد حقق أكثر من هذا! إنه هو الذي زرع هذه الشرارة في نفسه بنفسه، فهو إذن أعظم من بروميثيوس! لقد خلق لنفسه هالة عبق أشد تلألؤاً وفعالية من أية هالة سبق لإنسان أن امتلكها. والفضل في ذلك لا يعود إلى أحد - لا أب ولا لأم، ولا حتى لرب رحيم - وإنما فقط له بالذات. لقد كان حقاً رب نفسه، وربما أكثر روعة من ذاك الذي ينفث روائح البخور في الكنائس.

ها هو الأسقف بشحمه ولحمه راكعاً أمامه على ركبتيه وهو يتشنف باكياً من المسرة. وها هم الأثرياء وذوو النفوذ، والسيدات والسادة المعتزون بأنفسهم يتزلفون إليه من الإعجاب، بينما أفراد الشعب في الدائرة الكبيرة حوله، ومن بينهم آباء وأمهات وإخوة وأخوات ضحاياه يعربدون على شرفه وباسمه. إنهم على استعداد، بإشارة منه، لأن ينكروا ربهم، ويعبدوه هو، غرنوي العظيم.

أجل، لقد كان غرنوي العظيم! وها هو يتجلى الآن. ها هو يبدو الآن في الواقع كما كان يبدو آنذاك في أحلامه النرجسية. لقد عايش في هذه اللحظة أعظم انتصار في حياته، فكان مدعاة لذعره.

كان مدعاة لذعره لأنه لم يستطع أن يستمتع به ولو لثانية واحدة. ففي لحظة ترجله من العربة إلى الساحة المشمسة مضمخاً بالعطر الذي يجعل الناس يحبونه، بالعطر الذي استهلك صنعه سنتين من عمره، بالعطر الذي أمضى حياته كلها متعطشاً لامتلاكه... في هذه اللحظة التي رأى وشم فيها سرعة انتشاره ومدى تأثيره الذي لا يقاوم على البشر.. في اللحظة نفسها عاوده الشعور بالقرف من الناس، فأفسد عليه انتصاره كلياً، بحيث لم يفتقد الشعور بالفرح فحسب، وإنما أيضاً

الشعور بالرضا، ولو بأبسط أشكاله. إن ما تاق إليه دائماً، أي أن يحبه الآخرون، أصبح في لحظة نجاحه أمراً لا يحتمل، فهو بالذات لا يحبهم، بل إنه يكرههم. وفجأة أدرك غرنوي أن الحب أبداً لن يشبعه، وإنما الكره، أن يكره وأن يكون مكروهاً.

لكن الكره الذي أحس به تجاه البشر بقي دون صدى. فكلما ازداد كرهه لهم في هذه اللحظة، كلما عبدوه، إذ أنهم لم يحسوا منه سوى هالته المزيفة أو قناع عبقه، أو عطره المسلوب الذي كان فعلاً يستحق العبادة.

كان أكثر ما يوده الآن هو أن يستأصل شأفتهم جميعاً من على وجه البسيطة، هؤلاء البشر الأغبياء القذرين المستثارين جنسياً، تماماً كما فعل بالروائح الغريبة آنذاك في أرض روحه السوداء. وود لو يشعروا بكراهيته لهم، وأن يقابلوه بالتالي بالكراهية لخاطر هذه المرة الوحيدة التي ينتابه فيها شعور حقيقي، فيقضون عليه كما كانوا ينتوون أصلاً. أراد لمرة واحدة في حياته أن يفرغ ما في ذاته. أراد لمرة واحدة في حياته أن يكون كما الآخرين يفرغون ما في دواخلهم: عندما يعبرون عن حبهم أو تبجيلهم الغبي، هكذا كان يريد أن يفرغ كراهيته. أراد لمرة واحدة، لمرة واحدة فقط أن يدركه الآخرون في وجوده الحقيقي، وأن يتلقى من إنسان آخر رداً على شعوره الحقيقي الوحيد، الكراهية.

لكن شيئاً من هذا الحدث، وما كان يمكن أن يحدث، وخاصة اليوم بالذات. فقد كان غرنوي مقنّعاً بأفضل عطر في العالم، وتحت هذا القناع لم يكن له أي وجه، لا شيء سوى انعدام رائحته كلياً. وفجأة أحس بالغثيان، فقد شعر بأن الضباب قد عاد ليتصاعد.

تماماً كما حدث آنذاك في كهفه في حلمه في نومه في قلبه في

خياله عندما تصاعدت فجأة سحب الضباب، ضباب رائحته الخاصة المرعب، رائحته التي لا يستطيع أن يشمها لأنه بلا رائحة. وكما آنذاك انتابه الآن خوف لا حدود له، وظن أنه على وشك الاختناق. إلا أن الفرق الآن هو أنه ليس وحيداً كما في الكهف، بل هو واقف الآن في ساحة، في مواجهة عشرة آلاف إنسان. والفرق الثالث هو أن الصراخ الآن لن يوقظه فينقذه، وليس ثمة من مهرب إلى العالم الطيب الدافئ المنقذ، فهذا الذي أمامه هنا والآن كان العالم. وهذا هنا والآن هو حلمه المتحقق، وهو الذي أراده أن يكون هكذا.

بينما كان الناس يتأوهون وينتفضون من نشوة اللذة، كانت سحب الضباب الخانقة المريعة تتابع تصاعدها من مستنقع روحه. وفجأة تقدم منه رجل كان قد قفز من الصف الأول في سرادق الأعيان بحيث سقطت قبعته السوداء عن رأسه، وأخذ يقترب منه عبر ساحة الإعدام وأطراف بزته تتطاير مع الهواء كغراب أو كملاك منتقم. كان الرجل هو ريتشي. سيقتلني، فكر غرنوي. إنه الوحيد الذي لن ينخدع بقناعي. إن عبق ابنته ملتصق بي بوضوح فاضح كالدم. يجب أن يتعرف علي ويقتلني. يجب أن يفعلها.

ففتح ذراعيه لاستقبال الملاك المندفع نحوه. وظن أنه يحس منذ الآن بطعنة الخنجر أو السيف تخترق صدره مولدة قشعريرة رائعة، وبالنصل يتابع طريقه عبر دروع العبق والضباب الخانق لينغرز في وسط قلبه - أخيراً، أخيراً شيء ما في قلبه، شيء آخر سواه! وشعر بأنه على وشك الخلاص.

لكن ريتشي ارتمى على صدره وعانقه. لم يكن الملاك المنتقم، وإنما ريتشي المهزوز المنتحب الشاكي. تشبث به وضغطه إلى صدره وكأنه لا

نجاة له من البحر المائج بالسعادة من حوله إلا بغرنوي. إذن لا طعنة خنجر مخلّصة، ولا ضربة في القلب، ولا حتى لعنة أو مجرد صرخة كراهية. وبدلاً منها وجنة ريتشي المخضبة بالدموع ملتصقة بخده، وفم ريتشي المرتجف يهمس له متزلفاً: "سامحني يا بني، يا بني العزيز، سامحني!".

عندها تحول كل ما في داخله إلى بياض ناصع أمام عينيه، بينما أصبح العالم الخارجي أسود كالغربان. وتقطرت سحب الضباب إلى سائل يغلي ويفور كالحليب، ملأ السائل كيانه ضاغطاً جدران جسده بقوة لا تحتمل دون أن يجد منفذاً للخروج. أراد غرنوي أن يهرب، أن ينجو بنفسه، ولكن إلى أين.. ودَّ لو ينفجر، لو يتمزق، كيلا يختنق في ذاته. وأخيراً سقط مغشياً عليه.

٥٠

عندما استعاد وعيه كان مستلقياً في سرير لور ريتشي - أشياؤها وثيابها وشعرها كانت قد أبعدت عن المكان. على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير كانت هناك شمعة مشتعلة. وعبر النافذة نصف المغلقة سمع عن بعد أصوات المدينة المختلفة. وكان أنطوان ريتشي جالساً على كرسي صغير بلا مسند إلى جانب السرير، يحرسه. كان يمسك بين يديه يد غرنوي وهو يمسدها.

قبل أن يفتح غرنوي عينيه كان قد تفحص الجو المحيط به. في داخله كان كل شيء هادئاً، لم يعد هناك ما يغلي ويضغط، فقد عاد إلى روحه الليل البارد المعتاد الذي يحتاجه كي يجمد حركة وعيه، ومن ثم لكي يصفيه ويوجهه نحو الخارج، إلى حيث كان يشم عطره الذي طرأت

عليه بعض التغيرات، فقد ضعفت حدة المواد المرافقة، فتجلى مركز العطر، عبق لور، بصورة أشد روعة، كنار لطيفة غامضة متأججة. شعر غرنوي بالاطمئنان وعرف أنه لبعض الساعات القادمة لن يطاله مكروه، ففتح عينيه.

كانت نظرات ريتشي مستقرة عليه، مليئة بالطيبة اللامتناهية وبالحنان والتأثر، واشية كذلك بخواء وغباء دخيلة نفس المحب.

ابتسم ريتشي ضاغطاً يد غرنوي بقوة وقال: "كل شيء سيكون الآن على ما يرام. المجلس تراجع عن حكمه عليك، والشهود تراجعوا عن إفاداتهم. أنت حر. بإمكانك أن تفعل ما تشاء. لكني أريد أن أكسبك كابن لي. أنت تشبهها. أنت جميل مثلها، شعرك، فمك، يدك. كنتُ طيلة الوقت ممسكاً بيدك. أنت أخوها. وأريدك أن تكون ابني، سعادتي، فخاري ووريثي - أما زال والدك على قيد الحياة؟" هز غرنوي رأسه نافياً، فتورد وجه ريتشي من السعادة ثم قال بتلعثم: "ستكون ابني أنا إذن؟" ونهض عن كرسيه ليجلس على طرف السرير ضاغطاً بيده يد غرنوي الثانية متابعاً حديثه: "ألا تريد؟ ألا تريد؟ هل تقبل بي أباً لك؟ - لا تقل شيئاً! لا تتكلم! فصحتك لا تساعدك على الكلام بعد. هز برأسك فقط!".

وهز غرنوي برأسه. فتفجرت السعادة متدفقة عبر جوانح ريتشي الذي انكب على غرنوي وقبله على فمه.

"نم الآن يا ابني الحبيب!" قال وهو ينهض: "سأسهر إلى جانبك حتى تغفو". ثم وبعد أن تملى منه لفترة طويلة بسعادة صامتة قال: "أنت تغمرني بالسعادة، بسعادة كبيرة".

افتر فم غرنوي عما يشبه تلك الابتسامة التي واجه بها الناس في

الساحة، ثم أغمض عينيه. انتظر برهة قبل أن يجعل نفسه هادئاً وعميقاً كالنائم. وشعر بنظرات ريتشي المحبة مستقرة على وجهه، وشعر كذلك كيف أن ريتشي قد انحنى مرة كي يقبله، ثم تراجع في ذلك خشية أن يوقظه. وأخيراً طفئت الشمعة وانسحب ريتشي من الغرفة على رؤوس أصابعه.

بقي غرنوي مستلقياً في موضعه حتى سكنت الأصوات في البيت والمدينة. وعندما نهض كان الفجر قد انبلج. ارتدى ثيابه وغادر الغرفة بهدوء عابراً الممشى، هابطاً الدرج حتى وصل إلى الشرفة.

من الشرفة كان بوسع المرء أن يرى حوض "غراس" من فوق السور. ولو كان الطقس صحواً لرأى البحر. أما الآن فثمة طبقة من الضباب، بل البخار تغلف الحقول التي كانت تفوح منها روائح الحشائش والهرجة والورود مغسولة نقية بسيطة ومنعشة. عبر غرنوي الحديقة وتسلق السور إلى الخارج.

وهنك عند الساحة كان عليه أن يشق طريقه عبر أبخرة البشر حتى وصل إلى الخلاء. كانت الساحة والمرتفعات المحيطة بها أشبه ما تكون بمعسكر جيش مهزوم مندحر، الهياكل البشرية السكرى والمجهدة من فجور الاحتفال الليلي مرمية هنا وهناك، بعضها عارٍ، وعلى بعضها الآخر بعض الثياب، تلحَّف بها كدثار. كان الهواء متخماً برائحة النبيذ الحامض والكحول الثقيل والبول والعرق الناضج من آلاف الأجساد، وكذلك برائحة غائط الأطفال واللحم المتفحم. وهنا وهناك كان الدخان ما زال يتصاعد من بقايا النار التي شووا عليها لحومهم وسكروا ورقصوا حولها. ومن بعض الأماكن، رغم الشخير المتعالي من آلاف الحناجر، كان يسمع أحياناً غناء قصيراً أو ضحكة مقتضبة. ومن المحتمل أن ثمة من كان صاحياً يعالج بقايا وعيه بالشراب. لكن غرنوي الذي خاض عبر

الأجساد المتناثرة في الساحة كمن يخوض عبر مستنقع، حذراً وبسرعة في الوقت نفسه، لم يره أحد. ومن رآه لم يعرفه لأنه أصبح بلا رائحة. لقد انتهت المعجزة.

عندما وصل إلى آخر الساحة لم يأخذ الطريق المودي إلى "غرنوبل"، ولا ذاك المؤذي إلى "كابريس"، بل توجه نحو الغرب عبر الحقول دون أن يلقي أية نظرة إلى الوراء. وعندما ارتفعت الشمس في السماء، سمينة صفراء ولاهبة كان غرنوي قد اختفى.

استيقظ سكان "غراس" ورؤوسهم توجعهم بصورة مريعة. حتى أولئك الذين لم يسكروا كانوا يشعرون بثقل كالزئبق في رؤوسهم وبغثيان في بطونهم ونفوسهم. في الساحة كان الفلاحون الطيبون يفتشون عن ثيابهم التي رموها بعيداً عنهم في حمأة الاحتفال الماجن، والنساء المحترمات عن أزواجهن وأطفالهن. وأولئك الذين لا يعرفون بعضهم بعضاً كانوا يشعرون بالرعب وهم ينفصلون من أكثر أوضاع العناق حميمية. أما الذين يعرفون بعضهم والجيران والأزواج فقد وقفوا فجأة تجاه بعضهم البعض وأمام الملأ في عري فاضح مخز.

بدت هذه التجربة للكثيرين مريعة، غير قابلة للتفسير على الإطلاق، وغير منسجمة مع تصوراتهم الأخلاقية الحقيقية لدرجة أنهم في لحظة حدوثها قد محوها من ذاكرتهم كلياً، فما عادوا قادرين فعلاً على تذكرها فيما بعد. أما الآخرون الذين لم يتمكنوا من ضبط جهاز حواسهم بإرادتهم فقد حاولوا أن يتجنبوا النظرات والكلمات أو التفكير، الأمر الذي لم يكن من السهولة بمكان، فالعار كان فاضحاً جداً وعاماً جداً. ومن وجد أشياءه وذويه فقد حاول أن ينسل من المكان بأقصى سرعة وسرية ممكنة. وفي حوالي الظهيرة كانت الساحة قد خوت تماماً.

في المدينة لم يخرج الناس من بيوتهم إلا مع حلول الظلام، وفقط لقضاء أكثر حاجاتهم ضرورة. وإن صادفوا بعضهم في الشوارع كانوا يتبادلون التحية بسرعة، وإن تبادلوا الحديث، فعن أتفه الأمور فحسب. أما عما جرى خلال النهار والليلة السابقة فلم يتلفظ أحد بأية كلمة. وبقدر ما كان سلوك الناس دون رادع أو تحفظ بالأمس بقدر ما أضحى اليوم خجولاً. وكان الجميع على الشاكلة نفسها، فكلهم كانوا مذنبين. لم يكن الانسجام بين سكان "غراس" في أي وقت من الأوقات أفضل مما كان عليه آنئذ، فقد كانوا كالمعلبين داخل طبقة من القطن.

وبطبيعة الحال كان على البعض بسبب المناصب التي يشغلها أن يتعاطى بصورة مباشرة مع ما جرى. فاستمرار الحياة العامة واستتباب النظام والقوانين تطلب اتخاذ إجراءات سريعة. وبعد ظهر اليوم نفسه كان مجلس المدينة قد انعقد. فتعانق السادة بصمت، ومن بينهم المستشار الثاني، وكأن في هذه اللفتة التآمرية إعادة اعتبار دستورية جديدة للمجلس. ثم ودون أن يرد أي ذكر للأحداث أو لاسم غرنوي اتخذ المجلس بالإجماع قراراً "بإزالة منصة الإعدام والسرادق والسور الحاجز وبإعادة الساحة والحقول المجاورة المخربة إلى سابق عهدها دون إبطاء". خصص لذلك مئة وستون ليرة.

وفي الوقت نفسه انعقدت المحكمة في دار القضاء. وتوصل المجلس دون مشاورات إلى اتفاق يقضي باعتبار "قضية غ" منتهية، وبرفع الملفات إلى الأرشيف دون تسجيل محضر بذلك، وبفتح قضية جديدة ضد مجرم مجهول حتى الآن قتل في منطقة "غراس" خمساً وعشرين فتاة. وأمر ضابط الشرطة بالبدء بالتحقيقات فوراً.

في اليوم التالي مباشرة تم العثور على المجرم. فاستناداً إلى

الشكوك القاطعة تم اعتقال دومينيك دروو، معلم العطارة في شارع "لالوف"، ففي كوخه بالذات طبعاً تم العثور على ثياب وشعر جميع الضحايا. لم ينخدع القضاة بإنكاره الجرائم في بداية التحقيق، فبعد أربع عشرة ساعة من التعذيب اعترف المجرم بكل شيء، وترجاهم حتى أن يعجلوا بإعدامه ما أمكن. وفي اليوم التالي لُبي رجاؤه، بأن شنق عند الفجر دون ضجة ودون منصة وسرادق، بحضور الجلاد وبعض أعضاء مجلس البلدية وطبيب وكاهن لا غير. وبعد أن حدثت الوفاة وتم تسجيل محضر رسمي بذلك تم دفن الجثة مباشرة. وبذلك أُقفلت القضية.

كانت المدينة على أية حال قد نسيت القضية، وبصورة كلية تماماً، لدرجة أن بعض المسافرين الذين وصلوها بعد بضعة أيام وسألوا بصورة عابرة عن قاتل فتيات "غراس" الشهير لم يجدوا أي إنسان عاقل قادر على تزويدهم بجواب. إلا أن بعض المجانين في مشفى الرحمة، من مشاهير المرضى عقلياً همسوا بشيء ما عن حفلة كبيرة في ساحة "دو كور" اضطروا بسببها لإخلاء غرفهم.

وسرعان ما عادت الحياة في المدينة إلى مجاريها الطبيعية تماماً. فعمل الناس بجد وناموا جيداً واهتموا بأشغالهم وسلكوا سلوكاً حسناً. وكما في غابر الأزمان تدفقت المياه من الينابيع وفاضت من الآبار لتنشر الأوحال عبر الأزقة. وبقيت المدينة على حالها كابية وفخورة، معلقة على المنحدر، مطلة على الحوض الخصب. كانت الشمس دافئة وسرعان ما جاء شهر أيار / مايو وبدأ الناس بقطاف الزهر.

الجزء الرابع

٥١

كان غرنوي يسير ليلاً، متجنباً المدن كما في بداية رحلته، وكذلك الشوارع. وعند الصباح كان يستلقي وينام ليتابع مسيره مساءً. كان يأكل ما يجده في طريقه من حشائش وفطور وأزهار وطيور ميتة وديدان. عبر منطقة "بروفانس" ثم سرق قارباً انتقل به إلى ضفة نهر "الرون" الأخرى جنوب "أورانج"، تبع مجرى نهر "آرديش" حتى جبال "السيڤين" ثم مجرى "الآلييه" نحو الشمال.

واقترب في منطقة "أوڤيرج" من جبل "كانتال". رآه يساره شامخاً وفضياً في ضوء القمر وشم الريح الباردة القادمة منه. لكنه لم يشعر برغبة بالتوجه إليه، إذ لم يعد يحن إلى حياة الكهوف. لقد مر بهذه التجربة التي أثبتت أنها لا تعاش، تماماً مثل تجربته الأخرى بين البشر. في كلا الحالتين كان سيختنق. لم تعد لديه أية رغبة في الحياة مطلقاً. أراد أن يذهب إلى باريس ويموت. هذا ما كان يريده.

بين الحين والآخر كان يمد يده إلى جيبه ويمسك بقارورة عطره الزجاجية الصغيرة، التي كانت مليئة تقريباً. لم يستهلك منها لمشهده في "غراس" سوى قطرة واحدة. وما تبقى في القارورة كاف لسحر العالم أجمع. وفي "باريس" إن أراد لجعل لا عشرة آلاف بل مئة ألف يحتفلون به، وقد يتمشى إلى "فرساي" ليجعل الملك يقبل قدميه، أو في "نوتردام" أمام الملوك والقياصرة كإمبراطور أعلى، بل حتى كإله على

الأرض، هذا إن كان هذا الأمر ما زال معمولاً به..

وبإمكانه أن يفعل كل هذا، بمجرد أن يشاء، فهو يمتلك القدرة على ذلك. إنها في يده. قدرة أقوى من سلطة المال وسلطة الإرهاب وسلطة الموت. إنها القدرة التي لا تقاوم والتي تجعل الناس يحبون. لكن ثمة ما لا تستطيعه هذه القدرة: أن تمكنه من شم نفسه. فما الفائدة إذن حتى إن ظهر أمام العالم بعطره كإله، إن لم يكن قادراً على شم نفسه، وبالتالي على معرفة نفسه. إلى الجحيم إذن بهذا العالم وبنفسه وبعطره. كانت تفوح من يده الممسكة بالقارورة رائحة في غاية النعومة، وعندما قربها من أنفه وشمها شعر بتوق مشوب بالكآبة ونسي أن يمشي، توقف وأخذ يشم. ثم فكر أن ليس ثمة من يقدِّر الجودة الحقيقية لهذا العطر. لا أحد يعرف مدى جودة صنعه.

والآخرون خاضعون لتأثيره ليس إلا، وهم لا يعرفون حتى أن ما يؤثر عليهم ويسحرهم هو عطر. أنا الوحيد الذي أدرك مدى جماله الحقيقي، لأنني أنا من أبدعه. لكنه في الوقت نفسه لا يسحرني، إذن أنا الوحيد الذي لا جدوى منه لي.

وفي مرة ثانية، عندما كان قد وصل إلى "بورغوند"، فكر: عندما وقفت إلى جانب السور تحت الحديقة التي كانت الفتاة ذات الشعر الأحمر تلعب فيها، وعبقها يهب باتجاهي أو بالأحرى الوعد بعبقها، فعبقها المستقبلي لم يكن قد وجد بعد - ربما كان هذا الذي شعرت به آنذاك مشابهاً لما أحس به الناس هناك في الساحة، عندما غمرتهم بعطري..؟ لكنه بعدئذ تخلى عن هذه الفكرة: لا، لقد كان شيئاً آخراً. فقد كنت أعرف أني أشتهي العبق، وليس الفتاة. لكن الناس ظنوا أنهم يشتهونني أنا. أما ما اشتهوه فعلاً فقد بقي بالنسبة لهم سراً.

ثم أقلع عن التفكير، فالتفكير لم يكن نقطة قوته، كما أنه كان قد وصل إلى "أورليان".

عبر نهر "اللوار" عند "سوللي". وبعد يوم واحد كان عبق مدينة "باريس" قد وصل إلى أنفه. وفي الخامس والعشرين من حزيران / يونيو عام ١٧٩٧ دخل "باريس" من شارع "سان جاك"، في السادسة صباحاً.

مع تقدم النهار اشتدت الحرارة. كان أشد أيام السنة قيظاً. وآلاف الروائح الكريهة تتصاعد كما من تفجر ألف بثرة متقيحة. ولم يكن في الجو أدنى نسمة. وقبل أن يحين الظهر كانت الخضار قد ارتخت على بسطات السوق، واللحم والسمك قد تفسخ. وفي الأزقة والحواري كان الهواء كما الطاعون. وبدا وكأن النهر نفسه قد توقف عن الجريان وأخذ ينضح بالروائح النتنة. كان الجو كما آنذاك يوم ميلاد غرنوي.

عبر جسر "نوف" إلى الضفة اليمنى متابعاً طريقه إلى قاعات السوق حتى مقبرة الأبرياء، وجلس تحت أقواس مبنى حفظ الجثث الممتد على طول شارع "أوفير". كانت أرض المقبرة أمامه أشبه ما تكون بحقل دمرته القنابل، مليئة بالحفر والخنادق ومزروعة بالقبور والجماجم والعظام، لا شجرة ولا أجمة ولا عشبة، مزبلة للموت.

لم يكن هناك أي بشر حي. كانت روائح الجثث المتعفنة من القوة بحيث اختفى حتى حفارو القبور، فلم يظهروا إلا بعد المغيب ليعملوا تحت أضواء المشاعل حتى الليل في حفر القبور لموتى اليوم التالي.

بعد منتصف الليل - كان حفارو القبور قد غادروا - دبت الحياة في المكان، فظهر السفلة بكافة أنواعهم: اللصوص والقتلة وضاربوا السكاكين والعاهرات والفارون من الجيش والشباب الجانحون. فأوقدوا ناراً صغيرة كي يطبخوا عليها طعامهم ويطردوا الروائح الكريهة. عندما ظهر غرنوي

من تحت الأقواس واختلط بينهم لم ينتبهوا في البداية لوجوده مطلقاً. فكان بوسعه أن يقترب من نارهم وكأنه واحد منهم. وقد أكد هذا فيما بعد فكرتهم عن أنه كان شبحاً أو ملاكاً أو شيئاً لا طبيعياً من هذا القبيل. فحساسيتهم في العادة كانت عالية جداً عند اقتراب أي غريب منهم.

إلا أن هذا الرجل الضئيل ذا البزة الزرقاء كان موجوداً هناك فجأة وببساطة وكأنه قد نبت من الأرض. وكانت بيده زجاجة صغيرة رفع غطاءها. كان هذا أول ما تذكروه جميعاً: وجود شخص يرفع غطاء زجاجة صغيرة، ثم أخذ يرش على نفسه من محتوى الزجاجة هنا وهناك؛ وفجأة انسكب عليه الجمال كنار متأججة.

للحظة تراجعوا من حوله تهيباً، ونتيجة الدهشة الهائلة. وفي اللحظة نفسها كانوا قد شعروا بأن التراجع لم يكن سوى مقدمة للهجوم، وأن تهيبهم قد تحول إلى شهوة، ودهشتهم إلى حماس. شعروا بأنفسهم منجذبين إلى هذا الرجل الملاك. كانت تصدر عنه قوة امتصاص متوحشة، أو جزر هادر ليس بوسع مخلوق مقاومته، فكيف إن لم يكن هناك من يرغب بمقاومته! فما كان هذا الجزر يشده ويجذبه باتجاهه هو الإرادة الإنسانية نفسها: إليه هو.

كان هناك عشرون إلى ثلاثين شخصاً قد شكلوا حلقة من حوله آخذين بتضييقها شيئاً فشيئاً، وسرعان ما لم تعد الحلقة تتسع لهم جميعاً، فبدأوا يضغطون ويتدافعون ويتزاحمون، وكل منهم يحاول أن يكون الأقرب إلى المركز.

ودفعة واحدة سقط عنهم آخر ما تبقى من تحفظهم تجاهه وانهار شكل الحلقة. فهجموا على الملاك، انقضوا عليه ورموه أيضاً. كل واحد منهم كان يريد ملامسته، كل منهم أراد أن يحصل على جزء منه، على ريشة صغيرة أو

جناح، على شرارة من ناره الرائعة. مزقوا عنه ثيابه، ثم شعره وجلده من جسمه، نتفوه وغرزوا أسنانهم ومخالبهم في لحمه، كالضباع انقضوا عليه.

لكن الجسد البشري قاس وليس من اليسير تمزيقه، حتى على الكلاب. وهكذا التمعت الخناجر فجأة لتنغرز فيه وتقطعه، ثم هوت الفؤوس والسواطير على المفاصل مهشمة العظام. وخلال دقائق كان الملاك قد تمزق إلى ثلاثين قطعة، خطف كل فرد من الجماعة إحداها، منسحباً إلى الوراء وقد ملأه الجشع الممتع ليلتهمها. بعد نصف ساعة كان جان باتيست غرنوي قد اختفى عن وجه الأرض دون أدنى أثر.

عندما اجتمع أكلة لحوم البشر بعد الوجبة حول النار ثانية لم ينبس أحدهم بحرف. أحدهم تجشأ، والآخر بصق عظمة، والثالث تلمظ قاذفاً في النار نثرة من البزة الزرقاء: كانوا جميعهم في حيرة من أمرهم قليلاً، ولم يجرؤوا على النظر في وجوه بعضهم بعضاً. كان كل منهم، رجلاً أم امرأة قد ارتكب سابقاً جريمة قتل أو شيئاً فظيعاً ومشيناً من هذا القبيل. أما أن يلتهموا رجلاً؟ لم يكن في ظنهم أنهم قادرون على ارتكاب مثل هذا الفعل المروع أبداً. واستغربوا أن الأمر ببساطة قد أعجبهم، وأنهم رغم حيرتهم لا يشعرون بأي شيء من قبيل تأنيب الضمير. بل على العكس! فرغم الثقل الذي كانوا يحسون به في معدتهم، كانت قلوبهم خفيفة جداً، كما امتلأت نفوسهم المظلمة فجأة بمرح طاغ، وعلت وجوههم مسحة من السعادة رقيقة. ربما كان هذا هو سبب خجلهم من رفع بصرهم والنظر في وجوه بعضهم البعض.

وعندما تجرأوا أخيراً على ذلك، تلميحاً في البداية، ثم صراحة، كان عليهم أن يبتسموا. كانوا فخورين إلى أقصى حد، فلأول مرة في حياتهم فعلوا شيئاً عن حب.

تمت

المؤلف في سطور

ولد باتريك زوسكيند PATRICK SUSKIND في السادس والعشرين من شهر آذار / مارس ١٩٤٩ في بلدة أمباخ على بحيرة شتارنبرغ الواقعة على سفوح جبال الألب. كان والده صحفياً وكاتباً. بعد حصوله على الثانوية العامة درس باتريك التاريخ في جامعة ميونيخ بين ١٩٦٨ -- ١٩٧٤، عمل بعدها في أعمال وأماكن مختلفة، وكتب عدة قصص قصيرة وسيناريوهات سينمائية. ولم يعرف ككاتب إلا عام ١٩٨١ بمسرحيته "عازف الكونترباس"، وهي مونودراما من فصل واحد قدمتها معظم المسارح الألمانية والأوربية. وبروايته الأولى "العطر" ١٩٨٥ التي ترجمت حتى الآن إلى أكثر من عشرين لغة وصل الكاتب إلى الشهرة العالمية. ومنذ منتصف الثمانينيات عرف الكاتب في أوساط الجمهور الألماني والأوروبي عبر مشاركته في كتابة سيناريوهات عدد من المسلسلات التلفزيونية الناجحة. وفي عام ١٩٨٧ حصل زوسكيند على جائزة غوتنبرغ لصالون الكتاب الفرانكوفوني السابع في باريس. وهو يعيش حالياً بين ميونيخ وباريس متفرغاً للكتابة.